



سونيا بوماد

أنا الآخر

رواية

فكرة: محمد سيف الأفخم

مكتبة دار العربية للكتاب

سونيا بوماد

أنا الآخر

رواية

فكرة: محمد سيف الأفخم

مكتبة دار العربية للكتاب

1

عزيزي البروفيسور سالم.

ردًا على سؤالك، يوسفني أن أعلمك أن تلك المعلومات المنقولة عن ملف المخابرات السريّة، والتي أرسلتها إليك، مؤكدة، ولا تحتمل التأويل.

لقد أكملت وزارة الدفاع الأمريكية فعليًا - وبسريرة تامة - المرحلة الأخيرة من استنساخ وحدتي المغاوير والتدخل السريع. وقد عملت على شفرتهم الوراثية وعدّلت جيناتهم كما ذكر، أما أجسادهم تلك، فقد أخذت خلاياها من النسخ الأصلية من أبطال الجيش الأمريكي وقياداته، نسخ بشرية بإمكانها الصمود في ظل أي ظروف بيئية أو نفسية، فهؤلاء الجنود المستنسخون ستم رعايتهم بأجواء خاصة، تتناسب مع أسباب خلقهم ليصبحوا أكثر عنفًا وطاعة، وفي حال موت المستنسخ، طبقًا مستقبلي النسخة الأصلية موجودة. هكذا لن يتمكن أي إحصاء من حصر عدد الضحايا المحتمل سقوطهم أثناء الحروب، ولن تكون هناك أي مخاطر من انقلاب الرأي العام ضد الحكومة؛ لأن من سيموت - وببساطة - مجرد بديل بشري لا جذور له.

أفضل حاسوبه بغضب. تنشق جرعة إضافية من الأوكسجين، فما قرأ واقع يخيفه ويتظره منذ زمن. ترك مكتبه مسرعاً، وتوجّه إلى الدور السفلي، ثم أخرج من جيبه مفتاح أحد أبوابه، وقبض عليه بحرص كأنه قطعة الـ «puzzle» الضائعة، التي لن يكتمل مشهد لوحته الأخير إلا بها. إنه مفتاح أسراره وماضيه الغامض، الذي أبى أن يُشارك فيه أحداً، حتى من قاسمه تفاصيل حياته.

بحرص وقلق، فتح ذلك الباب الخشبي، بعد أن أدار المفتاح في قفله عدة مرات. نزل ببطء وبحذر الكهولة تلك الدرجات التسع، التي حفظ عددها كاسمه، أشعل الأنوار جميعها، فالضوء المنبعث من المصباح الإلكتروني الذي يضيء تلقائياً عند فتح الباب لم يكن نوره كافياً. فالمخزن، أو «غرفة المختبر» كما كتب البروفيسور كميل سالم على بابه، شاسع الأطراف، يشغل ما يقرب من نصف مساحة المنزل إلى أطراف الحديقة.

- إن تسربت هذه المعلومات السرية وتأكدوا أنها قد وصلت إليّ فلن يتركوني حيّاً. ولكن عندما سستتهي أنا وشافي من أبحاثنا، ونجد ما ينفقون المليارات لأجله، عندما ستقضي على أسباب الموت، سيعودون إليّ منهزمين مُقرّين بهزيمتهم تلك، وسيشتررون اكتشافنا ويعترفون بأنني سيدهم، أجل ذلك العربي المنبوذ سيدهم وسيّد هذه العلوم.

جال في أرجاء مختبره الحبيب، متفحصاً كل ما وقع عليه ناظراه، متأكداً من أن كل شيء في هذا العالم الغريب الذي يلقّه الغموض يسمى

إليه، حتى هو. منذ زمن طويل، يُقاس بالسنين. لم يمارس مهاراته في أروجه.. الروب الأبيض ما زال مُعلّقًا، حيث كان بجانبه هذاؤه الخاص بالمكان.. ذلك الرداء لم يعد مقاسه مناسبًا، فقد زادت تلك السنين العابرة الكثير من الوزن على جسده النحيل، فأحتته وأثقلت حركته، وكأنها تعدّه لعبور دورة الحياة التنازلية، إلى تلك النهاية الحتمية التي كانت ترعبه كعالم أمضى أعوامه باحثًا عن الأبدية وإكسير الحياة.

جيشٌ من المستنسخين! جميلٌ هذا. يحللون لأنفسهم ما يحزّمونه على سواهم، متخفّين بقناع الله والإنسانية وحقوقها.

تفقد بقلق، للمرة العاشرة وربما أكثر، ما ظهر وخفي.. الأوعية الزجاجية المرصوفة على الرفوف، التي يحمل كل منها اسم المادة التي يحتويها، وما تحتها، وخلفها.. ثلاجة الحفظ والتبريد، وأشياء أخرى كانت جزءًا من عمله لسنين طويلة. فجأة.. تقززت عيناه.. كيف فاته أن يلاحظ هذا؟ بسرعة أخذ منديلًا نظيفًا، وبلمّة بسائل التنظيف، بعد أن ارتدى قفازه الطبي، وراح يمسح تلك الآلة الغريبة التي شغلت إحدى زوايا المختبر. آلة ذات طراز غريب، كبيرة الحجم، صلبة الأجزاء، لها شفرات حادة الأطراف، وكأنها قد صُنعت بمميزات خاصة لطحن ما يُلقى في داخلها من أشياء، ربما تحتاج إلى قوة غير عادية لتتفكك وتحلل.

ركّز عمله على نقاط الدماء المتجمدة العالقة هناك، وقد استعصت بصلابتها على المنديل والمنظف. مرر أظافره - من خلال القفاز - تحتها عدة مرات، إلى أن زالت، ثم مسح آثارها بعصية.

أنهكه التوتر، وتزاحمت أنفاسه مرهقة من جولته الغامضة في أقبية الماضي. وكأن نقاط الدم تلك غاصت في عمق عينيه بصراخها المدوي، قبل استسلامها للرحيل، فأخرجت خوفه منها قطرات عرق باردة، تسربت من مسام جبينه لتبلل كامل الوجه، ولتختلط بما تبقى من خصل شعره الأبيض الناعم. فوق هذه الآلة الغريبة صنبور ماء، فتحه وراح يغسل زواياها وخرومها، عساه يمحو من الذاكرة صورة تلازمها، وهي تبدد ما رمي فيها، ليمتزج مع الماء ويلونه بلونه، مختلفاً داخل أنابيب الصرف الصحي، حاملاً معه أشلاء ورواسب حمراء تخفي خلفها عشرات القصص المرعبة.

أقفل الحنفية بإحكام، بيديه المرتجفتين التي كاد يفقد السيطرة عليهما بعد أن تأكد من أن كل شيء قد بات على ما يرام. رمقها بنظراته الحادة، ثم حدّثها قائلاً:

- لقد عاهدت نفسي منذ ذلك اليوم أن أتجنب تشغليك من جديد، ولكن لن أتردد في ملء أحشائك، إن تجرأ أحدٌ ما على هدم ما بنيت!

فجأة، أسر بصره ما كُتب على اللوح المعدني المعلق فوقها: «التجربة الخامسة بعد المئة - ذكر - الأسبوع العاشر».

هزّ رأسه بعصبية، ليعيد صورة استقرت هناك وما زالت تطارده، ثم راح يسمح ذكراها دون توقف وهو يتمتم بصوته المخنوق:

- عليّ أن أكون حذراً، إن لم يكن دخوله إلى هنا أمناً، فسيتحول حلمي إلى جحيم.

جال على ما تبقى، راح يفتش الأدراج كَمَن يبحث عن شيء ما مفده.. الكتب، المراجع، الدفاتر، الجداول، جميعها هنا، حتى جدول الملاحظات، تفقدها جميعها، كلمة كلمة. أما ذلك الدفتر الموضوع جانباً، فلقد تركه عن قصد لنهاية المطاف. مسح عنه الغبار بكم قميصه، ل يظهر ما كتب عليه جلياً: «الاستنساخ البشري». تَلَفَّت بقلق يميناً ويساراً بعينه الواسعتين، حضن دفتره بقوة.. ضَمَّه إلى صدره، علَّه يخفي ما فيه في مسكن أسرار، كي لا يراه أحد بعد اليوم.

- سرِّي الدفين.. عصارة عمري ومجهود أيامي وسهر ليلي. لن نصل إليه يد مخلوق.

توجَّه إلى البار الخشبي، في الزاوية الأخرى من المكان، حيث وضع عليه هناك ماكينة قهوة، وأخرى لتسخين الماء، وأكياس الشاي والسكر، وبعض الأكواب والملاعق. إنه مكان الاستراحة، الذي كان ينفث فيه ضجر خلايا دماغه من تراكم المعلومات، أو من اليأس والإحباط.

أزاح الكراسي من أمامه، وأبعد السجادة الصغيرة من على الأرضية الخشبية، فظهرت حلقتان حديديتان يتخللهما قفل متين بأرقام، دُسَّ في مكانٍ خاص به بين الأخشاب، وقد سوي كل ذلك بإحكام. بحذر شديد، أدار الأرقام إلى الأعلى ثم إلى الأسفل، إلى أن فتح، فأبعد الغطاء لتفحص عيناه ما أخفي خلفه، كنز الذي خبَّاه لسنتين، وربما سيبقى مخبياً إلى الأبد.

بين الكثير من الأوراق والملفات، وإلى جانب بعض الأدوات الغربية، وبعض الحُلي وقطع الثياب الموضوعة هناك بشكل عبثي، ترك دفتره. أفلته من يديه المرتجفتين، ثم أعاد إقفال تلك الخزانة، ووضع السجادة الصغيرة والكراسي فوق بابها من جديد. رفع نظره إلى أعلى، وأطلق زفرة أخرجت معها قلق سنين طويلة.

أطفأ الأنوار، وصعد الدرجات التسع من جديد، ثم أقفل خلفه الباب بإحكام، وعاد ليجلس في صالة المنزل على الأريكة الوثيرة. تنفس الصعداء، وكفَّت مفاصله عن الارتعاش، وعاد قلبه وأنفاسه إلى ثباتها المعتاد.

إنه بيته الأول في هذا البلد الجميل، الذي قرر الإقامة فيه بعد غياب عشرين عامًا في تلك البلاد الغربية التي أخذت منه بقدر ما أعطته. لقد أبقت سكون المكان حنينه، مشاعره وذكرياته القاطنة في الحنايا وبين الضلوع.

عند عودته من أسكتلندا، لم يكن التطور قد غزا المدينة بعد، ولم تكن على ما هي عليه اليوم. أما السكن في الضواحي، فكان شاقًا - خاصة لمن أمضى سنواته متنقلًا بين القارات الحية أمريكا وأوروبا - لكن بسبب عمله المجهد، فضل الإقامة في فيلا الرايبة هذه، طلبًا للراحة والهدوء. هنا عاش مع زوجته إلى أن قضى المرض على حياتها. بعد موتها بقي وحيدًا مع طفلهما. لقد حملته الحياة مسؤولية كائن حي، بات مطالبًا بأن يكون له أمًا وأبًا في آن. لهذه الأسباب، قرّر أن يترك فيلا الرايبة ويتنقل

من جديد إلى المدينة، حيث تتوفر الخدمات والمدارس والجامعات،
ولنتمكن شافي لاحقًا من إنهاء دراسته.

هذا ما أراده والده البروفيسور كميل سالم، وساعده أيضًا عشق شافي
لهذا الاختصاص الذي أورثه إياه: «هندسة الجينات الوراثية».

2

ما إن ألقى جسده على السرير، حتى غطَّ في نوم عميق، وإذ بصدى خطاه يتردد على مسامعه، تعيده جذران ممر طويل تتوزع فيه الأبواب المقفلة يمينا ويسارا. مكان غريب، لم يرهُ سابقا، ولم يختبر تلك المشاعر التي انتابته قبل الآن. تابع سيره بحذر إلى أن لاح له من بعيد نور إضافي، يخترق الممر من أحد الأبواب. سارع الخطى، وتسارع وقعها في مسامعه.. وقف هناك، حبس أنفاسه المتصاعدة، دفع الباب الموارب ببطء وحذر، ثم جال بعينه في أرجاء المكان، إلى أن استوقفهما ذلك الجالس أرقصا، والمتدثر بغطاء صوفي يحتضن به كامل جسده، وقد طوّق ركبتيه المثنيتين بذراعيه، وراح يبعد جسده ويضمّه إليهما بحركة تأرجح غير إرادية، تتجاذبها قوة مغناطيسية، كتلك التي تدير الكون.

خفت النور شيئا فشيئا.. ثم انبعث من أحد الأركان المظلمة ظل كهل، راح يقترب من الجالس بخطى مثقلة، وقد مدّ يديه إلى الأمام، كأنه يتسلل بحذر، لينقضّ على عنقه ويوقف حركة جسده تلك إلى الأبد.

انبثقت عن هذه الصورة عشرات الصور المتكررة، كاتقسام جبل الجينات الوراثية بأبعادها وتزاوجها اللانهائين، حتى ملأت المكان بانعكاساتها، وبات الجميع يتسابق للوصول إليه.

صاح بصوت كسر صمت أعماقه:

.. انتبه يا هذا، انتبه.. هناك مَنْ يحاول قتلك، تحرك هيا، أوقف
مسدك اللعين هذا، اهرب قبل أن تموت!

لكن الصوت لم يخرج، لم يُسمع، ولم يكسر صمت الواقع السائد.
سَمِعَ الكلام في سرّه، تسمر في مكانه، وفقد القدرة على الحراك والتنطق.
ماد يحاول..

- آه، أرجوك اسمعني، حاذر أرجوك، سوف ينقضون عليك، سوف
تموت!

صرّخ من جديد محاولاً كسر قيود صوته وجسده الذي تسمر في
مكانه كقطعة جليد، ولكن لا صدى يتردد! ولا وقع خطى يسمع، ليس
هناك إلا الصمت، وذلك الغافل عما يدور حوله، والقدر الذي يتربص به.
- يا إلهي ساعدني! سيصلون إليه، استيقظ يا هذا! انظر خلفك بالله
عليك!

فجأة، تنبّه الجالس، استفاق من غيبوته، استدار ببطء، فالتقت العيون،
صعقته المفاجأة، وإذ به يرى نفسه مبتسماً.. إنه هو، وتلك الأيدي تنقض
على عنقه لتقطع أنفاسهما معاً.

دوى صراخه في أرجاء المنزل. رفع جسده محاولاً إخراج أنفاسه
المتعثرة، متحسباً عنقه، تحلّق حوله خدم البيت مذعورين..

- سيد شافي.. ما بك يا سيدي؟

- آه، إنه كابوس مرعب، لا تقلقوا عليّ، يا إلهي! كم هذا مرعب! أين والدي؟

- ذهب إلى فيلا الراية، وطلب أن نخبرك عندما تستيقظ.

- لماذا لم يوقظني، لماذا لم يصحبني معه؟

- لا أعرف يا سيدي.

استجمع تركيزه من جديد:

- حسنًا.. اذهبوا الآن، دعوني وحدي.

ترك سريره بصعوبة، وكأنه قد خرج لتوه من حربٍ طاحنة. فتح النافذة، تنشق بعض الهواء المنعش، الذي أعاده إلى واقعه..

تبًا لهذا الكابوس المزعج، يجب أن أبعده عن واقعي، الحمد لله أنه مجرد كابوس.

حمل رسالة بحثه العلمي، تأملها مبتسمًا وقد زال عنه بعض من تداعيات ذلك الحلم المرعب، أما الواقع طبعًا فهو حقيقة الوجود الوحيدة.

وكما تعلمون يا حضرات الدكاترة الموقرين، أن الاستنساخ البشري المتعارف عليه يقتضي أخذ خلية بشرية (غير جنسية) وحقنها في بويضة بشرية، بعد تفرغها من نواتها، ومن أي مواد وراثية. وبعد

١٠٠. الخلية مكان النواة داخل البويضة، يتم وضع هذه الخلية في ماخضتها الجديدة، إلى أن تتألف معها وتتعرف عليها، ثم نقوم بعدها
١٠١. مع الخلية بالبويضة فعليًا عبر تعريضها لتيار كهربائي محدد،
١٠٢. وسكنها الطاقة، وتبدأ بالانقسام والتكاثر، إلى أن تصبح جنينًا.
اليوم أقدم لكم بحثي هذا، مطالبًا بكم الحُجْر عن تجارب الاستنساخ،
أمل ما فيه، لدعم الأبحاث الطيبة، وإيجاد علاجات لبعض الأمراض
المستعصية، والسماح باستنساخ أعضاء بشرية لمن يحتاجها، فما
صلت إليه أنه وفي أدق عمليات الاستنساخ، يبقى القرار الأخير فيه
الله، فمن بين 276 تجربة استنساخ للنعجة دوللي، واحدة فقط شاء الله
أن تنجح. فإذا كان رأي الدين أن الاستنساخ تجديد ومبارزة للخالق،
فأنا أقول إن القرار الأخير لما يشاء الله، ولكن علينا ألا نقف مكتوفي
الأيدي والأمراض تبيد البشرية، والعلاج في متناول أيدينا.

في نهاية رسالة تخصصي وبحثي العلمي هذا، أستشهد بما قاله أحد
الأطباء: «لو أصيب أحد أقربائي بالسرطان، فسأعمد إلى استنساخه، ثم
سأستخدم الإنسان النسخة كمانح للأعضاء الصحيحة لإنقاذ حياته من
الموت».

رسالة البحث العلمي في هندسة الجينات الوراثية.

الطالب شافي كميل سالم.

لم يكن شافي شخصية اجتماعية، انهماكه في أبحاثه أفقده اهتمامه بمن حوله، ما أقلق والده، إلا أن الأطباء النفسيين أجمعوا على أنه إنسان سوي، ويكاد بذكائه أن يكون خارقاً للطبيعة، وفقاً للاختبارات التي أجروها له وعليه. أما مزاجيته وحالته تلك، فليست أكثر من طابع تحكم بسلوكيات البشر، بما يحبون وما يكرهون، وبعضهم أرجع هذا لغياب دور الأم وفقدانه حضورها خلال تنقله بين مراحل العمرية المتتالية، أو إلى رعاية والده الصارمة واهتمامه المفرط بتثقيفه وتدريبه، فمن المؤكد أن مقارنته للكاتب والعلم والدراسة بهذا الشكل المفرط قد نزعت عنه روح الصبا والمغامرة واللهو، وشغلته عن مشاعره وعواطفه التي شاء لها أن تبقى حيصة الضلوع.

حتى مايا، تلك الفتاة التي كانت تداعب صورتها مخيلته، لم يجرؤ يوماً على البوح لها بما يخفيه، أو حتى على الاقتراب منها، فاكتمت بمراقبتها من بعيد رغم محاولاتها المستمرة لكسر حاجز الصمت والخجل بينهما، إلا أن إهماله المصطنع لها صرفها عنه إلى رفاق آخرين، رغم نظرات الترقب والتعلق التي كانت تلاحقه بها أينما ذهب، ومشاعر الغيرة التي تستعر في فؤادها عندما تسمع صديقاتها يتكلمن عنه بشغف وكل منهن تحلم بأن يمن عليها يوماً ببعض الاهتمام.

كان يدرك ما يدور حوله ولكنه لم يستطع أن يتفاعل معه يوماً، فهو مُبرمج كحاسوب أو كرجل آلي، لا يربطه بهذه الحياة سوى والده المعجوز الذي صرف ثروة طائلة على تنشئته، وتعليمه على يد أساتذة ذوي خبرة

١١٠ جات علمية عالية في مختلف المجالات، بالإضافة إلى عامل الوراثة الذي أشرف شخصيًا على تنميته و غرس بذوره في دماغه الصغير، لقد سمعته الفرحة عندما اجتاز امتحان الثانوية العامة وهو في السادسة عشرة من عمره، فإدارة المدرسة جعلته يجتاز بعض الصفوف بسبب تفوقه، أما هو الآن يتخرّج في الجامعة قبيل حلول ربيعہ الواحد والعشرين. إمام، عندما وقف بين رفاقه بثوب التخرج واستلم شهادته غمرته فرحة مازمة، لكن دموعه أبت أن تنحسر عندما رأى كل من حوله وقد حضن أمه وقبل يدها بين الأقارب والأصدقاء، بينما بقي هو وحيدًا مع والده الذي جلّ ما فعل أن ربّت كتفه محاولًا إخفاء دموعه، الفخور بنفسه وبما أنجب للحياة.

لم يكن لأحد أن يأخذ مكان أمه، تلك السيدة التي لم يعرفها، ما تبقى له من ذكراها لا يتعدى ما أخبره به والده عنها، وتلك الصور التي وضعها قرب سريرہ، عزاؤه الوحيد وما يفيض عليه بالحب والحنان عندما يقبلها ويغوص في أعماق عينيها، لم ينادها يومًا بـ «ماما» حتى عند حديثه الأثيري معها، وها هو اليوم يعود مسرعًا إلى غرفته، ويضع الشهادة أمام صورتها، وينطق اسمها عاليًا.

- لقد كنت طيبة بارعة كما أخبرني أبي، لكن ذلك لم يعفك من صراعك مع المرض، يا أمي.. لأجلك تابرت، لم أقارب اللهو يومًا، وكلام أبي يتردد في مسمعي: «هذا ما كانت تريده أمك منك»، وها أنا أحقق ما حلمت به حتى بعد غيابك.

حمل الصورة، قتلها وضمتها إلى صدره، وأكمل قائلاً وهو يبتسم:

- ليس هذا فقط، سأحصل على الدكتوراه، سأكمل أبحاثي، ربما أجد يوماً دواءً لهذا المرض اللعين الذي قضى على حياتك وحياتي من بعدك، وما زال يبيد البشرية دون رحمة، عاهدت نفسي وأعاهدك على هذا.

أعاده صوت والده إلى واقعه وهو يناديه، مذكراً إياه بأن اليوم لن يكون يوماً عادياً، إنه بداية النهاية، وعليهما أن يحتفلا بهذا الإنجاز كما جرت العادة بعد نهاية كل عام دراسي. ترك عالمه الصغير وصورة أمه خلفه، حمل حقيبته وذهب. لم تكن رحلتها مجهولة الهدف، فلقد خطط لها منذ أسابيع. وصلا إلى مارينا بلازا حيث يرسو يخت البروفيسور سالم الأبيض، أحب مقتنياته إليه، كان يخترق به زرقة البحر وأمواجه كلما أرهقت كاهله متاعب الحياة. تمددا على سطحه تحت أشعة الشمس بعد أن انطلق يشق صفحة المحيط الهادئة، محاولان ترك المدينة وخلع ضوضائها وضغوطها عن جسديهما وروحيهما وتجاهل سنة كاملة مرّت بصعوبة على كليهما. أسدلت ظلال المساء ستارها، خيم الصمت على المكان، لم يتكلما كثيراً، كانا يتلذذان بهذا الصمت بعد إرهاق أشهر من الدراسة لشافي، والمتابعة والتوتر لوالده. مخترقاً متعة السكون هذا، رفع الوالد كأسه:

- مبروك علينا نجاحك يا شافي، فلنشرب نخب شهادتك.

استوى شافي في جلسته، حضن ركبتيه، ابتسم برضا:

لم يكن هذا لولاك.

أجابه بصوت مخنوق:

بعد معاناتنا أنا والدتك لسنوات طويلة كي تكون بيننا، استأصل
المرض فرحتنا وبقيت أنا وأنت وحيدين، أنا.. مجرد عجوز يقارب نهايته
، يستشعرها، أما أنت.. فما تبقى مني ونصفي الذي سيستمر وسيكمل ما
بدأت.

أدار وجهه بعيدًا مخفيًا دموعه التي تشكلت لثملاً عينيه وتخرق
الوجنتين اللتين رسمت عليهما الحياة دروبها ومنحنياتها، ثم أكمل
صوت حزين:

-لقد سمعت أصدقاءك وهم يرجونك أن تذهب معهم، للحظات
خفت أن ترضخ لرغبتهم، كنتُ سأموت من الوحدة لو لم تكن معي
الآن، آه كم هو جميل لعجوز مثلي أن تمضي ليلتك المميزة هذه معه،
بدل أن تستمتع بملاهي الحياة.

- أنت تعلم موقفي من أولاد جيلي وما يصيبني منهم من اشمزاز
وتباعد، اضطر إلى التظاهر بغير ما أشعر كل الوقت، أستغرب أحيانًا
مشاعري هذه، وكأنني قد جبلت من طينة أخرى غير طينة البشر، لم
استطع أن أجد نفسي بينهم ولا تشدني أحاديثهم ولا تبهرني أفكارهم،
كأنني كائن غريب عن كوكبي، هناك فقط عالمي حيث أجد نفسي، في
مخبري بين المجهر وذلك الصحن وما يحمله من عوالم غريبة، هناك
حيث يقف القلة أمثالنا ممن وقعوا في غرام هذه العوالم الغريبة الرائعة

بكل ما خلق فيها من بدائع وما لا تستطيع أعيُننا أن تراه، هناك فقط أرى روح أمي، أرى ذلك العدو الذي قتلها وتراني. أحاول جاهداً أن أحاربه لأنقذ الآلاف من فتكهِ، أنا معنيّ مثلك ومثلها بهذه المسؤولية التي وضعها القدر على عاتقنا.

- أعي هذا، لكن لا أريدك أن تعمل فقط من أجل العلم، أريدك أيضاً أن تعتني بنفسك ومن أجل إبراز اسمك في مجتمعك العلمي، شافي كميل سالم، ومن أجلك وأجلي، وكما ترى فلقد فضّلت الوحدة لكيلا يأخذ أحد أي جزء من حياتي التي وهبتها لك.

ظهرت علامات الامتعاض على وجه الفتى، لم يحبذ سماع هذه الكلمات التي حفظها عن ظهر قلب.

استدرك الوالد انزعاجه، فأخذ الحديث إلى منعطف آخر.

- آه.. لقد جعلتني أنسى أهم مفاجأتي لهذه الليلة السعيدة، لقد اتخذت قراراً مصيرياً وأتمنى أن توافقني عليه.

- تفضّل يا أبي.

- لقد قرّرت أن تنتقل إلى قبّلا الرابية، وليس هذا فقط، بل سأضع مختبري هناك بين يديك، وسيكون لك سائق خاص كي يقلك إلى المدينة متى شئت، دون أن تكلف نفسك عبء القيادة، ها.. ما رأيك بهدية نجاحك هذه؟

سمع بإصغاء ذلك الخبر الذي لم يتوقّعه إطلاقاً فانبسّطت أساريره، لطالما أحب هذه القبّلا، إنها حضن ذكرياته التي لم يعيشها، والتي علقت

في ذاكرته مما قصّ والده عنها من قصص، لقد كانت زيارته المعدودة إلى هناك سببًا من أسباب سعادته، فالمكان بالنسبة له واحة هادئة بعيدة عن ضوضاء كوكب الأرض بما فيه، أجل.. إنه قرار صائب بالتأكيد، هناك سيكون مع نفسه، وسبب آخر جال في فكره ليترجمه لسانه:

- قرارٌ موفق يا والدي، ليس لديّ أي مانع، فالأماكن وأسمائها لا تعني لي الكثير، خصوصًا أنني سأحظى بشرف دخول مختبرك الذي تُرم عليّ دخوله.

أكمل وهو يبتسم:

- سعيدٌ جدًا لأنني قد أصبحت أهلاً لثقتك، لقد حلمت بهذا اليوم طويلاً.

- لطالما كنت دائمًا مؤهلاً لثقتي، لكن هذا المختبر جزء مني، لم ولن أفرط به لأي إنسان كان، فأنت الآن تستحقه بجدارة، لا تقلق، سأكون معك وسأكمل تدريبك، رغم أنك بهذه التكنولوجيا التي تتطور كل يوم بت تفوقني قدرة بقدرتك على الاستفادة منها في أبحاثك ومجاهل علمك. ضحك عاليًا وهو يجمله ببعض العبارات التي أخرجته:

- لا يا أباي، أنت رائع حتى وأنت تصارع جهاز الكمبيوتر وتشتمه وكأنه عدوك اللدود.

أكملًا حديثهما، إلى أن امتلكهما النعاس، استلقيا في العراء مراقبين نجوم السماء الصافية وكلّ يطارده أحلامه ومخاوفه.

3

«مركز التوحد للتأهيل»

بعد ساعة من الدوران حول نفسه، تراقص المكان أمام عينيه وهوي على الأرض ممدداً، ما زال سقف الغرفة يدور وعيناه تدوران معه، يغمضهما بين الحين والآخر بشدة مستجمعاً واقعه وثبوت الأرض تحت جسده، فما يدور ليس سوى دماغه الذي أمره بالدوران، دماغه الذي يسكنه الفراغ حيناً والضجيج أو صدى الصمت أحياناً، يهرب منهم إلى حركة الجسد التي توصل مادته المحسوسة بروحه غير المحسوسة من جديد.. هكذا كان، ودون أن يعرف لماذا أُخلق هكذا، وهل هو مختلف أم أن الآخرين لا يدركون أسراره؟ ليس سهلاً على المرء أن يحيا من غير جذور، لكن عدم إحساسنا بواقعنا قد يكون لنا سنداً ورحمة، لقد أمضى نعمة طفولته وشبابه دون عائلة، لا يعرف من كان سبب وجوده ومن هم أهله وإخوته ولا حتى من أي البلاد هو، شجرة وحيدة غريبة الثمار في وسط بستان متشابه الأشجار، أين هي تلك الأرض التي نُزِع منها؟ من، وأين هم أهل أرضه الآن؟ هل يفقدونه؟ أم أنهم غير مدركين لوجوده أصلاً، لقد أصبحت تلك الصور المتبقية في الذاكرة بالية ومشوشة وغير واضحة الملامح.

- صورة رجل كان يمسك بيدي ولا أدري أين اختفى، عاد الهواء
أرد ليصافحني، عاد ليسكن دفة كفي الصغيرة ويغتناله، فيجفف بلطفه
مرفأ تشكّل بين الأصابع، لتأتي بعد قليل يد أخرى غريبة، تحل مكان
الك اليد فتصحبني بمشوار طويل بين الطفولة والشباب، سنوات مرّت
، عاد ذلك الآخر الجديد القديم، ليفلت يدي، ترك لها العنان لتستكشف
دربها وحدها، تركها ليحل بها صقيع لا دفة بعده.

راقص أصابعه أمام عينيه علّه يبعد ما علق عليها من مشاعر:

- ذلك الإحساس ما زال يلازمني، هو كل ما تبقى لي من الماضي
ومن ذلك العالم الضبابي، بعد أن تركتُ هنا، اعتقدت أن من تركني
سيعود لاصطحابي. رغم تلك العناية التي أحطتُ بها، إلا أن هناك جزءاً
منّي بات مكسوراً كلياً، إنني وحيد، مرارة الانتظار تقتلني يوماً بعد يوم،
أشكو لنفسي ألم مشاعري ولا تجيب، تهرب مني فأطاردها كي أستدرك
طريقي فتدخلني في عوالم غريبة، وكأنني أعبّر مجاهل ذات أبعاد مختلفة
لا متناهية، عالم ليس فيه حدود للزمان والمكان، أرى المُحال غير
مُحال، وكان كل أجناس الحياة قد تداخلت بصمت حيناً، وبالكثير من
الصخب أحياناً أخرى، ثم أجد نفسي غارقاً في بحور الحيرة من جديد
وقد اختلطت على نفسي وعلّيّ الأمور، ولم نعد نعلم ما هو واقع وما
هو خيال، وكأنني عندما أقحمت شخصي ونفسي في رحلة إدراك الذات
تلك، بتّ تائهاً أكثر، كفاقد البصر الذي يبحث عن النور، نور يعرف اسمه
ولا يعي ماهيته.

سنوات مرّت على صراعه هذا، لكن غريزة الحياة، النمو والاستمرار، لم تكن لتعترف بما ترسمه وتخشاه مشاعر البشر، وها هو اليوم وبعد اجتيازه مراحل تعليم خاصة تلقاها في مركز التأهيل، يحمل شهادته وشهادة أخرى بالتأليف الموسيقي. أما تلك الوظيفة في معهد الدراسات الموسيقية فأعطته الحافز كي يجد نفسه ويكتشف أسرارها بين تلك الخطوط وما يقف عليها من نعمات، وأيضاً حب ملاك المساعدة الاجتماعية، تلك اليد التي رعته طوال تلك السنين، منذ أن تركت يده وحيداً إلى أن رفعها راسماً إشارة النصر وهو يحمل شهادته بخجل أمام المصور كما فعل الآخرون، وليفرق بعدها في حضن أمّه التي لم تلده يوماً، لم تعطه الحياة، لكنها أعطته أكثر، لقد منحته الحب، الحنان، الاحتضان، وحتى الاسم، هي التي أطلقت عليه اسمه هذا، عندما وضعته في السرير في ليلته الأولى في مركز التأهيل.

- أنت نعمة من الله يا صغيري، عجباً كيف يرمون نعمة الله في أحضان الفراغ!

لم يكن ليفهم ما يدور حوله من أحداث، لماذا يسيل هذا الماء من عيني هذه المرأة الغريبة التي حاولت منذ ساعات إطعامه وغسل يديه واللعب معه وهي تغني، وتضحك، وتهلل لقدمه بينما كان يصارع خوفه بالبكاء.

ها هو ذلك الصوت الذي أحبه كجزء منه يواكب مسيرة حياته ويطمئن عليه، يطمئن ما إذا كان إناء ذاك الصغير قد امتلأ ببعض الأمان على مرّ هذه السنين.

· كيف تسير أمور عملك يا نعمة؟

· جيدة.

كانت الوحيدة التي تعلم ماذا تعني كلمة جيد بالنسبة له، جيد تعني
أ. راضٍ وأكثر، فجلوسه بين أوراقه وأقلامه وتلك النوات التي يتفنن
ب رسمها، هي سعادته التي لا توازيها سعادة، امتداد مستقيم يفترق
إلى المنحنيات، إلى تلك الأقواس التي كانت تمثل التناغم بين الفقرة
الأخرى، مفاتيح موسيقية، خطوط أفقية مستقيمة متعددة القطع يزرع
بها بذورًا سوداء استخرجها من أعماق روحه، هذا هو عالمه الذي
يعوص فيه، شمس كانت ثمانية الأقطار ذات شعاع لا متناهٍ، ما زال يعشق
· سم الوجوه ذات الزوايا، غير أن أكثر ما كان يُشعره بالقلق والخوف،
ملك العيون البشرية المستديرة، والتي لا تملك قرارًا لعمقها، النظر إليها
بشعره بالدوار والغثيان، لذا تراه يبعد ناظره مخافة الاصطدام بها تجنبًا
للغرق في كراتها الملونة، والتخبط في صراعات تلك المشاعر البشرية
شديدة الغموض المنبعثة منها، هو الذي أمضى سنوات طويلة يراقب
أصابع يديه الملموسة والمحسوسة الواحدة تلو الأخرى، مختبرًا نقلها
للملمس البارد والحار، متسائلًا عن سر حراكها وما يكمن خلفه، كيف
له أن يواجه تلك العيون دائمة الدوران والحركة، مركز أسرار الكون!

- غريبة هذه الأصابع لماذا وكيف تتحرك وكيف لي أن أوقفها عن
اللهو والتراقص؟ سأحاول التعامل معها بلطف كي لا تمتد إلى عتقي

وتنقض عليه، تبدو اليفة ولطيفة، لكنها أيضاً عابثة وغادرة، تبني وتهدم في حين، بقدر سلطتنا وعدمها عليها.

رغم عشقه للخطوط وسيرها المستقيم، كان يتوق دائماً إلى التراجع والدوران، وعندما يسكن مع ذاته أو مخاوفه، تجد جسده قد أفلت من قبضته المحكمة ودخل في رحلة لا إرادية، تحذره من خطر قادم أو انفجار قريب.

- هذا السفر اللولبي جزء منا، حركة الأرض يحكمها الدوران حول النفس وحول الأفلاك، صعب أن نلاحظها وهي تطوف حول ما حولها وحول محورها، فهي تدور من أجل إتمام مشروع حياتنا وإن لم ندر معها فلن نتصل بمركزها، البعض دورانهم داخلي، أما أنا، عندما أتصل بكوني وأدرك حقائق الأمور، أعجز عن ضبط نفسي، ينطق جسدي بما يعجز عنه لساني، ويتحرك مترجماً حالة روحي معبراً عما يدور في داخلي من انسجام مع حركة هذا الكون بهذا الدوران الذي يشبهه. كان يحدث نفسه قائلاً:

- أنا متوحد، نعم.. أنا متوحد فعلاً، مع كواكبي وعوالمي وحركتها، مع كل ما هو غير محسوس وملمس. ورغم خطوط عالمي الدائرية، فإن تلك الخطوط مستقيمة بالمجمل، بعيدة عن التعرج والتشعب والغموض، كغموض أرواح البشر الذين يخيفونني حين يقربون مني، كل منهم يحمل خطوطه، فأجد نفسي عاجزاً عن لمسها والغوص بها، واختراقها وتحليلها، لذا أفضل الابتعاد والدخول إلى عالمي وخطوطي

في أعرفها، أجدها أكثر أمنًا وسلامًا، أكثر وضوحًا ولن تختفني يومًا
١٠.إنها.

خطوط ملاك تشبهني ولا يخيفني اقترابي منها واقترابها مني، وفك
١١.خطوطي وأسرارها إذا ما تداخلت يومًا.

أما في عملي، فأحاول البقاء بعيدًا عن هم حولي، أبتسم لهم
حين أعبّر أمامهم إلى غرفة
سجّل مكاني المعزول المفضل، وحين أعرض عليهم نماذج لبعض
المزروعات، حين أتناول معهم مجبرًا وبعد إلحاحهم الطعام في استراحة
المهد، أحسدهم أحيانًا على جهلهم للعبة الخطوط هذه، ولواقع دوران
الأرض وتداخل أطراف البشر في هالة الأجساد وذلك الخطر المقبل
والغموض الذي لا يحسونه في ظل انشغالهم بأنفسهم، لا أطلب منهم
أن يكونوا مثلي ولا أرغب بهذا، إنها خصوصيتي.. رغم قبولي لذاتي
وأفلمي مع حالتي التي تسكنتني، إلا أنني كنت أتمنى أن أضحك معهم
مدما يضحكون، وأن أفهم سبب ضحكهم، وأن يضحكوا معي عندما
أضحك وأن يفهموا هم أيضًا سبب ضحكي.

كانت مرحلة انخراطه في العالم الخارجي المرحلة الأصعب بالنسبة
١٢.لكن إدارة مركز التأهيل الذي يعتني به حاولت جاهدة تدريبه على
الاستقلالية تحضيرًا لهذه الخطوة. نقلوه قبل بدئه العمل إلى مكان
خاص، شقة مستقلة ضمن المبنى الرئيسي، يعتمد فيها على نفسه بتنظيم
حياته اليومية، وليبقى في نفس الوقت تحت مراقبتهم ومتابعة ملاك له

إلى أن يشتدَّ عودُه، لم يخفَ على أحد اهتمام الإدارة به رغم أنه مجهول الجذور.

يوم وصل إلى هناك لم يكن معه أي أوراق ثبوتية أو ما يدل علم هويته، بيّد أن الرجل الذي أوصله وقيل أن يختفي، أعلم المستشفى بأر أحدًا ما سيحوّل لهم مبلغًا شهريًا يفوق مصاريفه بكثير لتأمين خدمات ومتطلبات حياته، وما يفيض عن ذلك سيُقدم كتبرع للمؤسسة، ومنذ ذلك الحين والتفود تصل شهريًا من حساب مجهول باسم فاعل خير. لم يكن نعمة يعرف شيئًا بخصوص هذا الموضوع، ولم يكن أيضًا ليعنيه هذا، إنه مسافر في عالمه الخاص وأبعد ما يكون عمّن أحضره ومن أنجبه إلى الحياة. كانت ملاك أرضه الحاضنة وكلّ دنياه، لأجلها سوف يحارب كل ذلك الضجيج الذي يعتريه ويحوّله من أجل إرضائها، إلى إبداع.

4

«علماء أمريكيون استنسخوا جنينًا بشريًا ثم أحرقوه».

هكذا عنّوت إحدى الصحف البريطانية صفحتها الرئيسية، وتفصيل الخبر أن مجموعة من العلماء في الهندسة الوراثية في الولايات المتحدة الأمريكية قد نجحوا في إنتاج جنين مستنسخ ذكر، لكنهم أحرقوه بعد 14 يومًا على استنساخه كما فعلوا بالعديد من الأجنة الأخرى، وصرح أحد هؤلاء العلماء لوكالة «فرانس برس» أن ما حدث كان متوقعًا بسبب القيود التي فرضت على العمل في الاستنساخ البشري، ومن المتوقع أن تكون هناك منافسة ضارية بين شركات الأدوية العالمية التي تستخدم هذا النشاط كذريعة لإيجاد علاج للأمراض المستعصية، لتقوم بساطاتها في هذا المجال دون تهديد..

أفضل الصحيفة وأنهى جدل تلك الأسئلة التي أرهقته، ثم هم بنوضيب حقائبه، سينتقل اليوم إلى فيلا الراية، رغم ترحيبه بالفكرة، إلا أن تفاصيل الحياة هناك ستبقى تحت حكم القبول أو الرفض، لم يكن لديه الكثير من الأمتعة ليحملها معه، سوف يبقى منزلهم في المدينة مفتوحًا، لهذا ومن المؤكد أنه سيعود إلى هنا كلما دعت الحاجة. كانت

صورة والدته، أول ما وضعه في حقيبته، دونها تبقى الأماكن أينما ذه
 موحشة مقفرة، بلا روح ولا أنيس. لقد تعلم كيف يتعاطى مع الما
 وكيف يدخل في أعماقها باحثًا عن الحياة، حتى الصخور الصم
 الصلبة لها نواة وفيها عناصر تتألف وتلاحم لتشكل ماهيتها ووجوده
 وتلك العينان الضاحكتان في الصورة كانت لهما أيضًا جذور فم
 مخيلته المفقودة رغم ضآلة تلك الجذور وتآكلها أمام عوامل النسيان
 وصل إلى القيلآ، إلى غرفة الطفولة، لم يكن يذكر أنه قد أقام فيها أصلآ.
 إلا في تلك الليالي عندما كان يصحبه والده إلى هنا في بعض إجازات
 السنة الدراسية التي لم تتجاوز أيامها عدد أصابع اليد الواحدة، لكن
 الأخير قد أخبره وملا ذاكرته بما قد مُسح منها، أخبره كيف اختار بنفسه
 لون الستائر والمكتبة والسجادة ذات الزركشات الفارسية. لقد عرض
 عليه مرارًا أن يغير كل هذا الأثاث إن أحب، لكنّه فضل أن يترك كل شيء
 في مكانه وكما كان عليه، علّه يستعيد معها ذكرى تلك اللحظات التي
 سقطت من ذاكرته، وبما أنه قد اختارها بنفسه فمن المؤكد أنها كانت
 المفضلة لديه يومآ، رغم أن اللون البنفسجي الطفولي لم يكن يحمل له
 يومآ أي معنى أو مشاعر.

- لا أعرف يا أبي لماذا لا أستطيع العودة إلى ما تخبرني به، إن هذا
 يقلقني حقآ، وكأنني بلا طفولة.

- لا تقلق يا شافي، لقد استشرت العديد من الأطباء النفسيين عن
 حالتك هذه، وأجمعوا على أن صدمة موت والدتك قد عرّضتك إلى

... ، جزئي لذكرياتك تلك، وقالوا إنك ستستعيدها تلقائياً مع مرور
... ، وعندما تغلب بنفسك على ألم فقدانها، آه.. دعك من هذا
أه، فالبحث في الماضي مضيعة للوقت.

إنه محق، كل تلك التفاصيل الصغيرة لن تغير شيئاً في مسيرة
أه، لكنني سعيد الآن كوني هنا، ربّما هذه الإقامة ستجمع أوصالي
... هادت.

أعلق نافذة غرفته وأكمل جولته في البيت محاولاً ملاحظة أصغر
أصاويل وأدقّها، كأنه يجب أن يرجع للمرة الأولى، سوف يعيش هنا
... أنه أن يتألف مع المكان ويلتصق به ويتلاحم معه كي لا تتجاحه
... العربة وتقبض على أنفاسه، وربما أنسته حاضره ومستقبله كما
... مات بماضيه.

لم يحبّ التغيير في أسلوب الحياة يوماً كما كره الانتقال والحركة بين
الأماكن، طباعه تلك كانت جزءاً من تلك الخلايا التي يتابعها، تكبر وتتكاثر
... سنشر وهي قابعة في مكانها تحت عدسة المجهر دون سفر أو انتقال.

إنه حقاً امرأة والده الذي كان مرتاحاً جداً لهذا التشابه بينهما،
أهم يكلفه الكثير من العناء والجهد كي يفهمه ويرضيه ويتوافق معه
أه يعارضه، حتى وإن حدث أي نقاش، فطباع شافي الانطوائية البعيدة
من العنف والصراع، كانت كفيلة بتذليل أي صعاب وحل أي أزمة وإنهاء
أني جدل، فلروحه عالمها الخاص، ذلك العالم الذي يستमित في طلب
السلام والسكون.

عبر الممر، حيث تتوزع الأبواب المغلقة يمينًا ويسارًا، خلف أحده كانت غرفة والده، أما باقي الغرف فلا يعرف بعد ماذا تخفي خلفها، مر تخص وماذا تحتوي، على جدران الممر علقنت لوحات جميلة بعضها فرح وبعضها حزين، وأخرى مربكة يكتنفها الغموض تتركك حائرًا دون مشاعر.

- لقد اختارت أمي بنفسها كل ما يحتويه هذا المنزل الجميل، وأبت أن تستعين بأهل الخبرة أو أن يشاركها أحد في تفاصيل بيتها، رغم ما تطلبه ذلك منها من وقت ومجهود، كانت فرحتها لا توصف يوم أنهت كل شيء، وأصبح المكان على ما هو عليه الآن. هذا ما أخبرني به والدي.

نزل إلى الصالة ثم عبرها إلى الحديقة، جلس قليلاً قرب حمام السباحة ثم عاد إلى الصالة، فشمس الظهيرة الحارقة في أوجها وإن بقي هناك فسيتبخر بالتأكيد. كان يحارب قلقه وتوقه إلى دخول المختبر هدية والده، الذي لا يعرف منه سوى بابه، حتى عندما كانا يزوران القيلًا كان الأخير يدخل إلى هناك ويغيب لساعات طويلة، يخرج بعدها منهكًا فاقد الرغبة في الكلام وكأنه قد خرج من عالم خرافي صدمه فيه كل ما شاهده وعاشه.

- كنتُ أحسده، وأفكر أحيانًا أن في ذلك المختبر ثغرة تنقل داخلها إلى ما وراء الكون. رجوته عدة مرات أن يسمح لي بالدخول، فكان يرفض طلبتي بصرامة، حتى علا صوته في وجهي يومًا بعد إصراري

أما مستأنسٌ بأنه على استعداد لضربي أو تعنيفي إن عاودت السؤال. هذا
الخط أحمر لا يحق لي أن أنخطى عتبته ما حيت، أما الآن فالوضع
مختلف، أصبحت قاب قوسين أو أدنى منه، الآن سيُصيح المكان بأسره
بأن أستحقه كما قال، وأعرف جيدًا أنه إذا وعد وقى، لن أصرّ كي
لا يعتبر رأيه، ما عليّ سوى الانتظار.

هذا كان قراره، التحلي بالصبر ومصادقة الانتظار إلى حين.

بعد ذهاب وإيابٍ في أرجاء الصلاة تمدد أخيرًا على الأريكة أمام
المفزيون، لم يرَ في صورته سوى عينيّ مايا التي رافقته في حفلة وداع
طلاب الجامعة، أما تلك الأصوات المنبعثة منه فكانت مجرد أصوات
أحم صمت الغرفة، ولا تطفئ على همسات وصوت ضحكها الساحرة.
هل أقبلت بمفردها إلى خياله، أم أنه استدعاها لتخفف عنه ما هو فيه؟
إنها الوحيدة التي حرّكت مشاعره وجعلت قلبه ينبض، لكنه لا يزال غير
مدرك أو قادر على تقبّل هذه التغيرات وكيفية دخولها إلى حياته، هذه
المشاعر ليس لها جينات ولا خلايا رغم نموها وانقسامها واضمحلالها،
إنها كالخلايا الوهمية التي لا تحصر بشيء، لا تمس ولا تحس،
ولا تستطيع حتى عدسة المجهر رؤيتها أو إدراك ماهيتها، تلك المشاعر
لا يترجمها شيء إلى مادة محسوسة سوى اختراق ذلك الحيوان المنوي
لعالم تلك البويضة المغلق وتحويلها إلى جنين، ذلك الحيوان الشجاع
الذي يستقتل من بين الملايين من أقرانه ليخترق بويضته الحبيبة بكل
شغف وشوق وحب، وكأنه من يحمل حب ذلك القلب إلى القلب الآخر،

ليتحدا ويذوبا معاً ثم ينقسما ويتحولا إلى حياة، كقصة ملكة النحل، وما يدفع ذلك اليعسوب العاشق المتفاني لأن يطارد ملكته ويضاجعها، ليموت بعدها، ربما لأن روحه تتلاحم معها لينتجا الحياة، وربما يموت من فرط السعادة بوصوله إليها، وربما يموت لأنه لن يطارحها الغرام ثانية إلا عند نداء الطبيعة، يموت هو وتبقى هي من بعده وحيدة، إلى أن تداهمها دورة الحياة الجديدة، تبقى وحيدة دون حب، ربما حداداً عليه وربما احتراماً لحيه، ربما لتحفظ أثره على جسدها ما أمكنها.

- كنتُ أودّ أن أخبر مايا بفيضِ روحي، لكنها مفعمة بالحياة وربما لن يعجبها تفكيري وأسلوب حياتي وقراءتي لمشاعر الحب هذه، لهذا فضّلت السكوت والتمتع بعواطفني وأحلام المراهقة عن بعد وبصمت. تتصل بي أحياناً وتكلم عن أشياء عامة، يضع مجرى الحديث مني وأنا أستمع إلى حنوّ صوتها، يخيم الصمت بيننا طويلاً، نوذع بعضنا، ننهي المكالمة ويعود كلّ منا إلى حياته.

قطّع صوت محرك سيارة والده وترحيب البواب بالقادم حيل أفكاره وأعادته إلى الواقع.

- إنه والدي! لقد عاد، ربما سأنتجه معه إلى المختبر، أتمنى هذا، أرجو ألا يطول انتظاري، إن لم أعد إلى عالمي سريعاً، ربما سأموت كسمكة جفّت فمها خارج محيطها.

وكان له ما انتظر، عبر أمامه دون أن يلتفت إليه، ناداه كي يتبعه.

نعال معي يا شافي.

سارعت نبضات قلبه خلف تلك الخطى الكهله المثقلة بتعب
ابن ونجاحها، سيدخلان بعد قليل إلى عالمه الذي يعشق، لطالما
أهوى معظم ساعات دراسته في مختبر الجامعة غافلاً عن دوران
الأرض ورحيل الشمس، حتى مايا التي كانت تحضر وتغيب لم يكن
أحد يلاحظها، اليوم سيصبح مخبره على بعد خطوات من غرفة نومه ومن
المسالك والحديقة وغرفة الطعام، الأروع من هذا أنه لن يشاركه به أحد
أهله، سيختبر ما يريد دون رقيب، هذه الأمنية الأخيرة كانت الأهم
السبب له وأكثر ما يؤرقه ويحد من انطلاقه، لكن أراد أن يترك العنان
لإبداعه المجنون، ولكن أراد أن يمزج الخلايا ويزواج الأجناس ببعضها
وأن يتكسر أصنافاً جديدة من الأحياء ومن الحياة، لم يكن حرّ اليدين في
السابق بسبب قوانين الجامعة ومحظورات التجارب ما سمح منها وما
مُرم بناء على اتفاقيات دولية لم يستطع اختراقها لأي سبب من الأسباب،
أما الآن فلقد فتح الباب على مصراعيه.

وقف معه هناك يراقبه وهو يخرج المفاتيح من جيبه، كان واثقاً مما
يفعله رغم القلق البادي على ملامحه، نزلاً عبر الدرجات التسع إلى
حيث ستصنع الأحلام، ويتحول المستحيل إلى واقع، وقف أمامه في
وسط الغرفة بعد أن أثار الأضواء وفتح يديه مشيراً إلى جانبه وحيات
العرق الباردة تعاود الظهور على جبينه العريض، وإذ بصوته يخرق
سكوت الصمت:

- حسناً ها أنا أفي بو عدي لك، وهذا نصف حياتي الذي يشاركك قلبي أضعه بين يديك، وهذا أيضاً دماغي بكل ما فيه ملك لك، كتيبي، مراجعي وثمره اختباراتي، عُص بها كما شئت دون قيود، لطالما شلّنت تلك القوانين نفسها يديّ وحجّمت عقلي بما يجوز ولا يجوز، بين الحلال والحرام، بما هو إنساني ولا إنساني، تلك القيود التافهة التي تحد العلم وتطوره، غاب عنهم أن المستقبل لنا، وغداً عندما ننقذ البشرية من الفناء سيقفون مصفقين رغم أنوفهم.

التقط أنفاسه وأكمل قائلاً:

- الآن سأترك لك الملعب بكل ما فيه دون رادع، ولكن هناك شرط واحد، أن تحفظ هذا المكان بعيداً عن المتطفلين، تحفظه كما حفظته أنا، سرّاً لا يجوز التفريط به، وإلا فسيموت حلمنا حيث بدأ، عليك أن تمدني، يجب أن تقسم بروح والدتك أنك ستحافظ على نصف قلبي هذا، كي لا تنتهي أنا وأنت، علّومنا وأبحاثنا، إلى مصير أسود مميت.

هذا الكلام الصارم أشعره بالمسؤولية، كان يستمع بعينيه وفمه وأذنيه وكل ما تبقى من حواسه ليحفظ ما يقال ويستشعر ثقل الحمل الملقى عليه، لقد أدرك أخيراً سرّاً إخفاء والده لهذا المكان، وعبرت في مخيلته أفكار كثيرة لم يجرؤ يوماً على المرور بها، هل سبقه والده إلى جنونه وما يريد أن يفعله؟

لم يكن الوقت كافياً لطرح الأسئلة وهم في مراسم تسليم العهدة إلى ولي العهد الجديد ونقل صولجان العلم والأبحاث من الأب إلى الابن، الآن تنقطع الأنفاس وضربات القلوب، ترتطم الأحلام متسارعة في

حنها راكضة متلهفة متزاحمة على أبواب الحرية، السؤال الأهم يطرح
«... هل ستخرج أحلام الكهولة عبر عنفوان الشباب وإبداعه دون ألم
الخاص؟ هل سيحصد ثمار زرعه فتفصل البتة الجديدة عن البذور
من الجذور والثمار والماء والهواء والشمس التي شاركت وساهمت
... وما؟ أسئلة كثيرة، أمنيات وأحلام قطعها صوته الفتى المليء بعنفوان
الشباب وإصراره، صوتٌ حازم يجيب بكل التزام..

.. لا تقلق يا معلمي، أنت مثلي الأعلى الذي سأكمل رسالته بكل ما
انتهى الحياة من علم ومعرفة، نما وتعاضم على يدك، سأفي بوعودي كما
«فت بوعدك، وكما وعدتُ أمي بأن أحارب ما قتلها، سأحاول أن أجري
أعماحي بعيدًا عن العيون لكي أطلق ما سأصل إليه باسمك، سأعيد لك
المجد من جديد، ستأخذ ما تستحقه وما حججوا عنك بسبب انتماثك،
ذلك الوجد الذي تخفيه ولم تخبرني بتفاصيله بعد، تلك المشكلة التي
أعادتك من أمريكا وهذه الانقلابات التي حدثت، أكاد أجزم أحيانًا أن
للإسم والدين والجنسية دورًا في هذا، وإلا لكنتُ بكل ما تحمله من
علوم قائد فكر الإبداع العلمي وحامل رايته، ما زلتُ أتوق لسماع سيرة
حياتك ولكني الآن سأكتفي بما حصلت عليه، وسأشكرك إلى الأبد على
دل تضحياتك من أجلي.

حضنه بعد تردد، ولأول مرة لم يستطع أن يخفي تأثره ويكبت مشاعره،
الحقيقة باتت واضحة، لن تنمو هذه الشجرة الشابة إلا بموت من وهبها
الحياة، وربما لن يكون موتًا فعليًا، بل قد يكون انتقالًا واستمرارًا بين
الأمس، واليوم، والغد.

5

لم يكن خروج نعمة من فوقته بالأمر السهل، فلقد تلقى مراحل دراسته في مركز التأهيل منذ أن أودع فيه، إلى يوم تخرجه، خلال تلك السنوات خاض أصعب اختبارات ومواجهاته مع روحه الوحيدة، وقف مع ذاته غير المدركة أمام عالم مليء بالوجوه بكل ما فيه من صخب مؤلم، صرخ، تمرد، تذمر، بكى وضحك، كأنه يولد مع كل نفس من رحم أمه الهادئ إلى الحياة التي لم يفهمها، والتي لا يريد شيئاً منها سوى أن يحتضن نفسه كي يستوعب ما يدور حوله ببطء شديد، ببطء يحبه لأنه مسكن الأمان بالنسبة إليه.

تلك الأم الجديدة عرفت بخبرة وحنكة ومحبة كيف تهدئ أمواجه المتلاطمة، وتسكن عدم استقراره وتخفف من إزعاج ذلك الصخب والطنين وصدى أصوات الحياة المحيطة به، أما ذلك الدوران الذي يأخذ جسده معه كقشة متراخية، علمته كيف يعيشه من الداخل ويترك خارجه هادئاً، ليشارك من حوله طبيعتهم، وصوت مضغ الطعام الذي كاد أن يقربه إلى الجنون، علمته كيف يستمع إليه ويستسيغه كسيمفونية يعزف فيها عشرات الموسيقيين، لم يكن له جزيرة غير ذراعها وصدرها الحنون، رغم مشاغلها الكثيرة، زوجها، وعائلتها، وأطفالها، لكن لم

من نعمة ليأخذ بينهم أقل من نصيب الأسد، اصطحبه في الإجازات
المنزلة، إلا أن الزوج لم يكن ليفهم لهفة الأمومة حين تتسع لتشمل
الأولاد أوسع وأعمق من النفس ومحيطها المعتاد، أما أطفالها فألفوا حالته
واعتادوا عليه بعد حين، دون أن يفهموا لهذا سببًا، ورغم جهودها المستميتة
للمحافظة عليهم، ورغم سعادته بمشاركتهم له، التي لم تكن لتدوم طويلاً،
إذ يعود ويتركهم خلفه حائرين من تقلب مزاجه المربك لهم، يعود
السكنى القلق من جديد، بالنسبة لهم كل هذه التقلبات كانت مهمة
غير مبررة، لكن لم يكن لأحد أن يدخل إلى كهف ذاته المبهمة ليستشعر
الأسباب، إذن المشكلة في تلك الحواس التي تنقل ما تريد وليس لنعمة
من سلطة عليها.

إشارات الحواس تلك، كانت تقلق مخيلته ببقايا أشباح تطوف بين
الماضي والحاضر، الواقع والخيال، تضخم الأمور وتلغيبها، ورغم
رحمة النسيان إلا أن بعضها حُفر ليبقى. هكذا مرّت سنواته حتى وجد
منفذًا للمشاعره، عندما بدأت موهبته الموسيقية بالظهور، حين زرع على
تلك الأسطر المستقيمة في دفتر الموسيقى نوتات موحدة الشكل ذات
أنغام متألّفة تمسك ببعضها بعضًا، متراقصة كما تمتى هو أن يكون يومًا
مع الآخرين، لكنه مختلف، أراد أن يصنع لغته ويفك رموزها بنفسه،
تلك اللغة آلتها ليست فقط حناجر وحبلاً صوتية، لكنها أخشاب وأوتار
مختلفة الأشكال والنغمات.

- لا لا تلعب نوتة خاطئة فهذا يجرح مسمعي، ابقي كما أنت في ركن
الهدوء والتناغم.

ربما الموسيقى اللغة الوحيدة التي تحول الضجيج إلى لغة! وربما
يسمع هو وحده صوت دوران الكواكب والأفلاك!

- نعمة.. هل أحضر لك شيئًا تأكله؟ منذ الصباح وأنت غارق في
العمل.

- لا شكرًا، سأنتهي ما في يدي وأعود إلى البيت.

في غرفة التسجيل، مكانه المفضل، كان يقبع مع أوراقه إلى نهاية
دوام عمله، تلك الغرفة ذات الجدار العازل التي تشبه ذاته، لم يكن أحد
من زملائه يعرف سرّ توحده هذا، كانوا يعتقدون أنه معقد وخجول،
لكنهم اعتادوا مع الوقت التعامل مع طبيعته هذه، أما مديره في المعهد
الموسيقي، والذي قِيمَ إبداعه يوم إعطاه فرصة العمل هذه، فلم يجده
غريب الطباع إنما ظاهرة يجب أن تُرعى، لئلا تُخرج أفضل ما فيها، لقد
اختاره بعد أن زكته مُدرسة البيانو كأفضل كاتب نوتة ومؤلف رغم ضبابية
أعماله وغموض ما يكتبه.

- إنه عبقرى، لكن أرجو أن تعطوه مساحة يسكن فيها إلى نفسه، وأن
تتعاملوا مع تقلباته بطبيعية، كي يتمكن من إخراج إبداعه إلى النور.

- لقد قرأت بعض ما كتب، أشاطرك الرأي، إنه حقًا يُبشّر بموهبة
مميزة، أما بالنسبة لوضعه النفسي، فلا تقلقي، لقد اعتدتُ العمل مع
مزاجية المبدعين، وأعتقد أنه سيصل وبمجهوده إلى ما لم ينله سواه.

بعد إصرار محرر استدرجه زملاؤه مجبرًا من مكانه إلى غرفة
الاستراحة، لم يزعجه هذا كثيرًا، بل كان سعيدًا بمراقبتهم وهم

• نعمون ويسردون أخبارهم وخبراتهم، إلى أن قطعت عليهم القادمة
• اءهم بسلام رمته على الجميع، نظروا إلى الباب وقد أنبأهم الصوت
• احبته.

أه إنها مايا..

تعالى يا مايا، اجلسى معنا.

حينهم من بعيد قائلة:

• سألقى التحية على والدى وأعود.

مشت بعض الخطوات ثم التفتت إلى الوراء، وعادت لتتظر
الهمم وكأنها رأت بينهم شيئاً ما، دخلت الصالة حيث كانوا جالسين
• عيناها معلقتان بنعمة، وعلامات الدهشة تملأ وجهها.. قالت مبتسمة
• باستغراق:

- شافى ماذا تفعل هنا؟ لم تخبرني يوماً أنك مهتم بالموسيقى!

تلقت نعمة حوله، وعندما أدرك أنها تكلمه هو شخصياً هرب بنظرة
إلى البعيد ورد بخجل:

- أعتذر، ربما أنت مخطئة، أنا اسمى نعمة.

تملكتها الدهشة، لا يعقل أن تخطى بمن تعشق، وسط استغراب
الجميع ممّا يحدث تداركت الموقف وأكملت قائلة:

- لا مستحيل.. حقاً؟ من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ إنها المرة الأولى
التي ألتقيك فيها.

- أنا عازف جديد، أتدرب هنا مع المجموعة.

قالت بارتباك وكأنها ما زالت لا تصدق ما سمعت:

- حسنًا.. أنا آسفة، سأعود بعد قليل.

تركتهم وخرجت، لا يزال الشك يساورها، تعود وتلفتت إلى

الوراء!

- غريب! نبرة صوته، تفاصيله، ذلك الحزن الذي يسكن عينيه، إنه

قطمًا هو.

بعد هذا الالتباس، لم يسلم من تعليقات زملائه ومن نظرات الغيرة

التي بدت عليهم.

- محظوظ أنت يا نعمة، ستأخذ نصيب الأسد من اهتمام مايا.

- ومن تكون؟

- إنها ابنة أستاذنا المايسترو.

شعر بالتوتر والاختناق الذي يساوره دائمًا عندما يصادف أشخاصًا

جددًا في حياته، فكيف إذن كانت هذه الجديدة مايا! والتي تظن أنه

شخص آخر!

قطع حيرته أحدهم قائلاً:

- ما بك يا نعمة؟ إنها لطيفة وحساسة، رغم أن مجال دراستها بعيد

عن عالمنا، فلا داعي لهذا القلق الذي سكنك.

١...مدار برأسه محاولاً إظهار لا مبالاته.

في الغرفة الأخرى غرقت مايا في حضان والدها دقائق طويلة، قبل أن
١١ . يطرح أسئلتها الكثيرة التي كان نعمة أولها.

أبي.. من هذا الشاب الجديد الذي يجلس مع تلاميذك؟

6

تقرير جديد

«استنساخ بشري من بويضات الأبقار»، هكذا لن يقف إبداع البويضات عائقاً أمام إتمام عملية الاستنساخ، وبما أن الجنين لن يحمل أي عوامل وراثية من البويضة أو من الرحم الحامل، فإن هذا سيؤكد إمكانية ولادة جنين بشري من الأبقار أو القرود، لقد أعلن العلماء الأمريكيون هذا التطور العلمي المثير، وأوضحوا في مؤتمر علمي من بوسطن أنهم سيتبعون في الاستنساخ نفس الخطوات التي اتبعت في استنساخ النعجة دوللي.

أعدت هذه الأخبار نفسها في ذاكرته عشرات المرات منذ أن سمعها مساء أمس من والده، خلال حديثه بالهاتف مع أحد أصدقائه، زرع المكان ذهاباً وإياباً ثم جلس على كرسي البار الخشبي في مختبره، ورشف بعض القهوة بعد أن مرّر الفنجان أمام أنفه مستنشقاً رائحته المنعشة، جال بنظره في كل ما حوله، تابع أدق التفاصيل، كانت هناك رهبة غريبة تمتلكه، كل ذرة من ذرات هواء هذا المكان حبلت بالأسرار منذ سنتين، وأجهضت قبل أن تبوح بأي منها، لم يكن يعرف من أين سيبدأ، الأحداث تتوالى بسرعة،

بحناجه الآن هو التقاط أنفاسه، ورسم خطة عمل قبل القيام بأي شيء.
١٠ مكانه وسار إلى ذلك اللوح المعلق هناك، الذي مسح والده ما كُتِبَ
١١ منذ أيام، ليسكب عليه أول خطوط رحلته في هذا العالم، عالم هو
١٢ منا ولكنه غريب عنا، حمل القلم ذا الخط الأسود الغليظ، أبعد
١٣ اداته وكتب:

«بداية أبحاث استنساخ الأعضاء البشرية، والخلايا الجذعية البديلة..
١٤ الهدف الأول: ضحايا مرض السرطان! تحية لروح الدكتور هناء سالم
١٥ البروفسور كميل سالم».

رسم سهمًا صغيرًا على سطر وهمي معلنا الاستعداد للانطلاق،
١٦ أماد القلم وعاد إلى مكانه، جلس بهدوء متأملًا ذلك اللوح، ثم
١٧ هبض باتجاه زاوية المختبر حيث أقفاص الحيوانات الفارغة، حملها
١٨ وغادر المكان مقفلاً الباب خلفه بحرص شديد ورثه عن والده. غاب
١٩ ساعات ثم عاد يحمل معه العديد من الفئران والضفادع والأرانب
٢٠ وبعض الزواحف، استقبله البواب مرحبًا كالعادة، بعد أن ترك ري
٢١ الحديقة وركض مسرعًا ليساعده مع السائق على حمل ما أحضره.
٢٢ خذ الأرانب يا عم سيد وضعها في القفص الكبير خلف الإسطبل.

- حاضر يا سيدي، وباقي الحيوانات؟

- سأخذها معي إلى المنزل، ستبقى في الأقفاص، ليست بحاجة إلى
٢٣ الكثير من العناية.

عاد إلى المختبر ووضع فترانه وما تبقى معه في أحواض زجاجية خاصة، مزودة بفتحات للتهوية وأبواب صغيرة لإدخال الماء والطعام. أحضر كرسيه وجلس يرقب تلك المخلوقات وهي تنفحص سكنها الجديد.

- مسكينة أنت أيتها القوارض والزواحف اللطيفة، إنني جد أسف لما سأحتملكم من ألم لم تختبروه سابقاً في حياتكم المعقبة للبشر، لا تعتقدوا أنه من السهل عليّ أن أقطع أجسادكم أو أن أخترقها لأخذ منها ما أريد، وكأنكم بكل ما فيكم قد وجدتم لترزحوا تحت سطوة بني جنسنا، للخدمة حيناً، أو للترفيه أحياناً، أو لجعلكم حقل اختبار لأمراض استقدمناها لأنفسنا بسبب كسرنا لقوانين الطبيعة.

طرق بأظافره على الحوض الزجاجي وهو يتسهم، كانت الفتران تسير ذهاباً وإياباً غير مبالية بما يقول أو يفعل، كل منها مشغول بما يبحث عنه ويستكشفه.

- أتعرفون؟ أفكر أحياناً أنه لو زارت كائنات الفضاء الخارجي الأرض واستعمرتها، أعتقد أنهم سيفعلون بالبشر ما نفعله نحن بمن هم أقل منا ذكاءً وجمالاً وقدرة على التعبير، لكن يا أصدقائي الجدد كل هذا يهون طبعا أمام مستقبل البشرية، علينا أن نضحي من أجل إسعاد الآخرين، نتحمل الألم من أجلهم.

أعاد نفسه إلى الوراء، وأسند ظهره مسترخياً على كرسيه، ثم أكمل حديثه من ذاته وقد سكنه الفرح لمرورها..

مسكينةً مايا، رغم إبداعها في مجال الهندسة الوراثية إلا أن يديها
1. التا تر جفان عندما تحتاج إلى استخدام الحقن أو إجراء أي اختبار
2. أي كائن حي، أو عند إدخالها الإبرة في جوف خلية أو بويضة، وكان
3. مرى فَمَا صارنَا وعينين تحدقان بها. فكرت أن أسألها مرًا ما الذي
4. لها إلى هذا العالم الغريب، فتاة جميلة مثلها كان يجب أن تعمل
5. صة أزياء، عازقة بيانو، فنانة تشكيلية.

نههد بعمق وحسرة.

الناس أسرار، هم أغرب بكثير من هذه الحيوانات التي يحرك
6. ها الفطرة وغريزة البقاء.

ترك عالمه الغريب خلفه، كل أفكاره وما يتعبه وخرج باحثًا
7. ن والده الذي كان غارقًا في استراحته المسائية قرب حوض
8. السباحة في الحديقة، رفع رأسه بتكاسل عندما سمع وقع خطواته.
أهلًا بالبروفيسور الصغير، كيف كان نهارك؟

- جيد، لقد أحضرت ما أحججه للبدء في العمل، إنني جد متحمس
9. سأحضر لك هديتي الأولى قريبًا، لن تصدق ما استراه عينك، عندما
10. أنتهي من وضع خطة العمل النهائية سأطلعك عليها، ولن تنتظر كثيرًا،
أعدك.

انتعش وارتعش فرحًا، إنه هو نفسه منذ عشرات الأعوام، نفس
11. الإقدام والطموح، تلك الروح المتمردة والذكاء المتقد جعلاه يركب
12. البحر ويسافر إلى البعيد، لولا تلك الغربة التي قيدته بقدر ما ساعدته
13. لكان الآن على لائحة الجوائز العالمية للبحوث العلمية.

- لقد أعدتني بالذاكرة إلى شبابي أيها الحبيب، كنت أتمنى لو الزمن يعود بي قليلاً، لشاركتك بالكثير من خبرتي فيما تنوي عمله.

- سأعيد لك شبابك يا أبي، ستكون هذه هديتي الأولى لك.

- منذ أربعين عامًا كنتُ أعتقد هذا أيضًا، لكن بعد العديب من خيبات الأمل خبا حلمي الجميل، لكنه لم يمت، بل دخل في سباتٍ إلى أن أحببته أنت بهذا البريق الذي يشع من عينيك سكن عيناه حزناً قديم يعيد نفسه كلما عاد إليه إحساسه بالوحدة، سأله حائراً:

- متى يا أبي سأستحقك كصديق تخبرني بخيانتك تلك؟ هل هناك شروط ما لأنترع ثقتك كما انتزعتها بقدراتي العلمية؟ هل سأبقى غريباً عنك وأنا جزء منك؟ هل ما زلت تعتقد أنني صغير على مشاركتك ماضيك الذي لا أعرف حتى الآن شيئاً عنه؟ لقد تجنبت أن أسالك عن أقاربك وعائلتك وبلادك وطفولتك كل هذه السنين رغم تحرقي وشوقي لمعرفة تلك التفاصيل؟ كنتَ تشغلني ببعض الكلمات وتأخذني بها بعيداً عن أي ذكرى أو صورة أو حتى لحظة ألفة أو حنين إلى أي ماضٍ من الممكن أن يربطني بواقع أبعد بقليل من حضنك، تمنيت أن التقى مَنْ أحبك وأحبته يوماً، انظر إليّ ملياً، لقد كبرتُ ونضجتُ يا أبي، ورغم خبرتي الضئيلة في الحياة فإنني أتوق إلى اختبار المزيد من كل شيء ومن المشاعر التي لم أعرفها يوماً، من المعنى الحقيقي للأشياء التي أسمع عنها ولا أشعر بها. عدل جلسته على الكرسي الممدود وركّز اهتمامه على كل كلمة تقال، كان عليه أن يجيب عن تلك الأسئلة التي تهزّب منها منذ سنين..

لا لم تعد صغيرًا يا شافي، وها هو مختبري وعالمي بين يديك.

سمت قليلًا مفكرًا، ثم تابع حديثه:

حسنًا.. سأقصد عليك كل ما تريد سماعه عن خيالاتي وأسراري
الأمم، وعن هذه الشروة وعن خفايا عائلتي وما أفرحني وأوجعني، لكن
الآن، اليوم سنحتفل معًا، سنشرب ونأكل ونستمع إلى الموسيقى،
سنمتع بهذه الليلة المقمرة كما لم نفعل سابقًا، هل توافق على عرضي هذا؟
م. برضى، مدركًا أن والده متى وعد فسيفي بوعد.

موافق، إن غدًا لناظره قريب.. أيها الأب الحنون الرائع، كن على
ه. أنني ومهما سمعتُ لن أغير رأيي، لن ألومك ولن أحاكمك، نحن
اصدقاء.

تركة وسار مسرعًا، مكملًا حديثه:

- سأذهب إلى المطبخ وأساعد سيّد زوجته على تحضير العشاء،
أما من سيطهو اليوم ومَن سيشعل نار الشواء، سوف تندوق ما لم تختبره
سابقًا.

- جيد، لكن إياك أن تشوي لي تلك الفئران التي أحضرتها، أنا أفضل
مذاق الزواحف.

علت ضحكاتها كما لم يحدث سابقًا، لقد كسر فتح صندوق
الأسرار ذلك الجليد الأزلي بينهما، ليدخلا مرحلة جديدة، شراكة عمل
وصداقة الند للند، رغم فارق السنين، لقد وعده بأن يعيد له شبابه وهذا
بنوق إليه، بينما بدوره وعده بمصارحة تامة.

7

- ما بك يا نعمة؟ تبدو قلقًا اليوم!
- لا أعرف يا أمي، حدث معي شيء غريب البارحة وما زلت لا أجد له تفسيرًا.

نظرت إليه باستغراب وقلق، وسألته بنبرة مؤنبة:
- أنتتظر أن أسألك بنفسي؟ هل أنا غريبة عنك؟
- لا أبدًا، لكنني أحاول أن أستجمع المشهد لأنقله لك دون تشويش، لا أدري، ربّما خيالي قد رسم لي بعض الأوهام.
- إذن تعالّ نفكّر معًا ولنستعن بخيالي قليلًا.
بعد ترّد وتلعثم بادر بالكلام:

- أمس، وبينما نحن في صالة الاستراحة دخلت علينا فتاة جميلة جدًا وسلّمت عليّ عنوة بين الجميع، نادتني باسم آخر، وأصرت أنني هو، رغم تعريفي بنفسي، بعد رحيلها ضحك الجميع ولم أنه من تعليقاتهم وهمسهم إلى حين عودتي، الحقيقة أفلقني ما رأيت في عيون بعضهم، وكان هناك ما ينذر ببده المتاعب، لكن هل يوجد من يشبهني إلى هذا الحدّ؟ أم أنها أرادت فقط أن تتعرف إليّ كما قالوا؟

لا يا نعمة، لا تأخذ الأمور على هذا المنحى، هذه طبيعة الناس
م. اجتماعاتنا، أنت من يقطن بعيداً عنهم، عليك أن تعتاد سلوكهم، أنا
أهم مشاعرك هذه، فأنت تعيش في عالم واضح، عالم يسير بين خطين
ن. حال بينهما لثف والدوران، هذا العالم البسيط بعيد كل البعد عن
عالم الغريب الملتوي المثلون المريض، أجل أنت صحيح ونحن
مسي، ندفع الملايين في الجامعات كي نتعلم فن التواصل المزيف
والمر اوغة.

لماذا عالمك هكذا ضبابي ومتداخل ومُرِيب؟ أتساءل أحياناً إن
سأنجح في الاندماج به، أم أنني سأعود أدراجي لأقفل أبوابي على
التي وأرتاح؟

- حقيقةً إنه عالم نمطي اعتدنا عليه، ولدنا فوجدنا أنفسنا فيه، حتى
الصحيح فينا يجب أن يلتوي ليعيش ويقبله المجتمع ويعتبره سويًا، وأنا
أبضاً أتساءل مثلك أحياناً ما الذي أودى بنا إلى هذا النفاق والتصنع ونحن
أمر ما يكون إلى أهدافنا؟ وتأتيني الإجابة الأبدية الدائمة لهذا السؤال
مد كل تحليل لتختصر نفسها بكلمة واحدة هي الخوف، الخوف من
رفض الآخر لنا، الخوف من ردود الفعل، الخوف من الوحدة والفشل
والفقر والحزن، فترانا نحيط أنفسنا بالأصدقاء الزائفين المدعين ونحن
سدرك مشاعرهم تجاهنا، فقط لسبب واحد، لأننا نخاف وحدتنا مع
ذواتنا، ونخشى مواجهة هذه الذات ومواجهة الحقائق، فنغرق في عالم
النفاق الصاحب ونغرق أنفسنا فيه.

هز رأسه أسفًا ونطق وجعه بكلمات متقطعة:

- هذا مؤلم يا أمي.

- أجل، ليس فقط لك، بل لكل كائن أدرك حقيقة هذا الكون ويعيشها رغمًا عنه، وهكذا نبقى جميعنا غرباء متوحدين أيضًا مع ذاتنا مثلك وأكثر، وربما قد رحمتك توحدك الظاهر هذا من بعض معارك الحياة، فهذا المجتمع المريض الذي يتهم كل مختلف عنه بالمرض، يعتبرك أدنى منه مستوى ومثيرًا للشفقة ولا تستحق حتى شرف المنافسة ولا التقدير لإنجازاتك، أما نحن من يعتبرنا أصحاب فمجبرون أن نجاري الحياة وأن نعيشها ونواجه حروبها ضدنا وندافع عن أنفسنا، ربما كان وجودنا دون أن ندري عائقًا على درب نجاح أحدهم، فتجدهم قد أعلنوا استخطهم علينا دون سبب، وترانا نحاول أن نحمي أنفسنا حينًا ونتحيتن فرصة الهجوم المضاد أحيانًا أخرى، إنك أفضل من أناس كثيرين يا نعمة لأنك تعيش حالتك ببساطة دون مشقة إخفاء ما يخالفك، ربما سيكلفك هذا الكثير من الألم إلى أن يفهمك من حولك ويتقبلوك، ولكن بين الكثير، لن يبقى معك إلا من يحبك فعلاً ويشبهك، أما المزيغون فسيرحلون.

- وهل تعتقدين أن مايا، تلك الفتاة، اختلقت هذه القصة لتتعرف إليّ

كما قال زملائي أم هي حقًا صادقة؟

- لا أعرف يا صغيري.

أمسكت يده ومسدت شعره ومسحت وجهه بأناملها وهي تبسم:

بما أنها ابنة أستاذك فمن المؤكد أنكما ستلتقيان لاحقًا، وستكون
الفرصة الحديث معها، عندها ستكتشف الحقيقة التي تورقك.

ألمح كلامها قلبه، وأطفأ نار ظنونه. إنها محققة، ليس هناك ما يدعو
إلى ما عدا نظرات زميله مازن له، يبدو أنه معجب بها.

عاد إلى عالمه محاولاً رسم حادثة البارحة أنغامًا على دفتر الموسيقى،
أرسم رحلته الأولى من البيت إلى المعهد، مكان عمله، التي أجبرته
المناسبة ومتطلبات الوظيفة الجديدة على خوضها.

لقد اصططحته ملاك إلى هناك عدّة مرات، أما في ذلك اليوم فكان
ألمح أن يقطع خيوط شرنقته ويفرد جناحيه وحيدًا للنور، عليه أن يعتمد
على نفسه، فهذه العجلة الطاحنة لا ترحم الضعفاء، الهاتف كان معه
في فمها عليه، ولكنها رجته قبل مغادرته، أن ينسى أمره، وأن يحاول
الاعتماد على نفسه، اختبارًا لشجاعته وكسرًا لقلقه وخوفه، أوصلته إلى
باب الشقة، ودّعه بقبلة على جبينه، خرج من هناك ووحدته تتبعه كظله،
احتاز باب المبنى الرئيسي، وقف على الرصيف المحاذي مراقبًا الشارع
تلك السيارات التي تقتحمه يمينًا ويسارًا، هل يستطيع اختراق هذه
الموجة الحديدية المتدفقة دون مساعدة؟

علا الضجيج داخله، ارتجفت أطرافه، تصبّب عرقًا، لم يكن يخشى
مبور الشارع؛ لأن المخاطر لم تكن تعنيه ولا الآلام ولا الموت والحياة،
لكن تلك الأصوات وذاك الضجيج ودوران محركات السيارات كلها
مجتمعة كادت تقوده إلى الجنون.

أما هي فكانت هناك جالسة والهاتف بين يديها تصارع الوقت، هل تتصل أم تتجاهل مشاعرها وخوفها قليلاً، كي يكبر وينضج ويواجه الحياة؟ منذ سنوات عندما حاولت ترك يده ليعتمد على نفسه، ضاع منها وقفته، بكت كثيراً وبحثت عنه في كل مكان هي والشرطة وإدارة المستشفى والموظفين، إلى أن وجده حارس الحديقة العامة تحت إحدى أشجارها، فأخذه إلى مركز الشرطة، عندما أعادوه غرق في حضنها ساعات، أدركت حينها أنه فعلاً قطعة من روحها، وهذه المحبة اللامتناهية جعلت المستشفى يكتبني بإنذارها لا فصلها، وها هو اليوم ومن أجلها قرّر تحدي ضعفه ومخاوفه رغم ما يتخبط فيه من صراعات، أخيراً عبر الشارع. لم يكن الهدف بعيداً، انحدر إلى اليمين وسار حتى ناصية الشارع، اجتاز المبنى الأول، وعدة مباني أخرى، وها هو يجتاز باب المعهد العالي للعلوم الموسيقية، لقد وصل أخيراً، كانت مساماته قد بللت جسده بماء القلق والرغبة، الدور الثاني، القاعة رقم خمسة، فتح الباب ودخل، لقد وصل قبل الجميع بساعات، حمل هاتفه وأوصل الخبر السعيد لمن كان بانتظاره.

هلّلت هي بهدوء رغم قرع قلبها لطبول الفرح ومزاميره.

- كنت متأكدة من اجتيازك هذا الاختبار، أنت الآن إنسان مستقل، الحياة أمامك ولن يعوقك شيء بعد اليوم.

أوقف جسده المتأرجح السعيد، ثبت قلمه على الدفتر ليكمل كتابة نوات لقاء الأمس وأسراره، هكذا اعتاد أن يترجم مشاعره، هدوء وقلق

فوجرأة وتحدي ثم أمان واستسلام. في ذلك اليوم، يومه الأول،
عزفت آلة أستاذه ما كتب، وقف الجميع مدهوشًا مسحورًا من
نلك الأنغام وغرابتها، لم تكن معزوفته الأولى التي سكبها على
ق، ولكن هذه هي المرة الأولى التي تعزف على الملاء ومن أنامل
اد تعرس في فن التأليف والإبداع، لقد كان عزفه لما كتبه يدا نعمة
هامة تُعلّق وسامًا على صدره.

وما سأكتبه اليوم تحدي جديد. لقد منحني ثقته وعليّ أن أكون
نوى ما حملني إياه من مسؤولية، سأسمي هذه المعزوفة «مايا».

8

تلك الساعات مع البروفيسور سالم في مختبره أبهجت قلبه، وفتحت عقله على أشياء كثيرة، أفاض الأب في شرحها وتعمق الابن في فهمها، وها هو الأب العالم يتعامل من جديد بالكثير من الحنكة والتمرس مع تلك الخلايا التي تتحرك تحت المجهر، وكأن تلك السنين التي أوقفته عن العمل لم تزد عقله سوى اكتمالاً وفهمًا للطبيعة ومعرفة الأشياء وسبب وجودها، اعتزاله عالم الأبحاث، كان هذا ما عرفه الجميع، أما في حقيقة الأمر، فهو لم ينقطع يوماً عن عمله الذي يعشقه، والدليل مخبره المتطور الذي حرص دائماً على مواكبة آخر إنجازات العلم والتكنولوجيا من أجله، ولم يتردد يوماً في تبديل أجهزته بأخرى أكثر حداثة وتقدماً، لئيبقى جنته الصغيرة مواكبة لتطور الزمن وحدثه، عدا تلك المؤتمرات الطبية والعلمية التي حرص أيضاً على المشاركة بها في أي بقعة من بقاع الأرض كانت، أنهى شرحه، وبعد دقائق من الانتظار، ساد الصمت، ولم يسمع لشافي سؤالاً، انتبه فجأة إلى أنه يراقبه مبتسماً دون تعبير آخر، وكان روحه قد سافرت منه إلى عالم بعيد.

- شافي ألم تسمع ما قلت؟

أجابهُ كَمَنْ استيقظ لتوه من حلم جميل:

أنا هنا يا أبي، ولكن كنت أنساءل في سرّي عن سبب توقّفك عن العمل، رغم كل ما لديك من مقومات وإعجاز علمي، لم تزل بكامل مـ. وبنك ورغم هذه السنين لم تُفتك كبيرة أو صغيرة. إنك أفضل من الكثير من أساتذتي، أقسم بهذا.

قال ضاحكًا:

- لقد راهنت عليك، وهذا يكفيني، كنت أرى هذه اللحظة بوضوح
و عشنتها سابقًا مئات المرات إلى أن أصبحت واقعًا.

استدار بالكرسي إلى المجهر قائلاً:

- تعال الآن وانظر كيف سيتفاعل جيل الـ «DNA» مع وصلته،
هكذا فقط يمكن تعديل الجينات الوراثية والتحكم بشفرتها، هكذا
ممكن أيضًا أن نقرر لون عيني الجنين ولون بشرته وأشياء كثيرة أخرى،
وإن لم تستقبل هذه السلسلة تلك الوصلات المعدلة فهذا يعني أن هناك
خللاً ما يجب تصحيحه.

- أجل يا أبي، هذا ممتع رغم تناهي حجمه، إلا أنه عالم قائم بذاته.

- إنه عالم ساحر، وللأسف لا يستطيع الجميع إدراكه، عالم النخبة
وأنت واحد منهم.

ربّت كتفه وأكمل:

- هيا لتناول الغداء، ربّما العشاء.

نظر إلى ساعته وأكمل:

- يا ولدي، أعلم أن هذا المكان سيسرقك من الحياة كما سرقني، لكن فرحة أي إنجاز سوف تنسيك نفسك، فهناك دائماً جندي مجهول يحارب في الخفاء من أجل حياة البشر.

أنهيا عشاءهما وجلسا في الحديقة يشربان الشاي، رغم أحاديثهما الممتعة، فلن عينيه كانتا ترجوانه دون الكلام، يريد أن يعرف مَنْ هو هذا الرجل الذي اسمه والده ومن أين أتى؟ بدهاء العالم، وحكمة الآباء، قرأ ما أراد، ولأنه ولده ويعرفه حق المعرفة، بادره بالسؤال:

- إذن هل لديك الرغبة في السفر معي إلى أعتاب الماضي؟

قال ضاحكاً:

- وما رأيك؟ ألا تبدو حشرية الطفولة واللهفة على ملامحي؟

- بالواقع بلى، وكثيراً.

خيم الصمت لدقائق معدودة، وأنفاس الطيب الأكبر تقطعها مراراً نظرات ذاك المتلقي الجالس بقربه، المترقب بداية الرحلة، قال:

- في بلد آخر بعيد عن هنا في إحدى القرى النائية بين الجبال والسفوح، ولدت طفلاً رابعاً لعائلة فقيرة، وبين آخرهم العديد من السنوات، والحقيقة أنني قد ولدتُ في الوقت الضائع كما كان أهل القرية

١٠٠٠، فأمي قد ملّت بعد طول سنين من تربية الأطفال لا سيّما أطفال
 ١٠٠١، وأبي لم يعد في قلبه متسع لأحد، وجلّ ما يشغله جمع النقود خوفاً
 العدد. على مضض تقتل وجودي، لا بأس فسوف يساند هذا الشاب
 ١٠٠٢، المستقبل العائلة الكهلة. بعد أن كبرت قليلاً لم يرُقني شيء مما أنا
 ١٠٠٣، لا بيتنا المتواضع، ولا أُمي وأبي الأُميين، ولا إخوتي، كانوا جميعاً
 ١٠٠٤، كمين في زراعة الحقول وبناء منازلهم الخاصة والبحث عن أزواج
 ١٠٠٥، جات لهم ولأولادهم، وبما أنني أصغرهم، فعلتي أن أساعد الجميع
 ١٠٠٦، ما يحتاجونه دون أن أظهر أي ملل أو تبرّم، أمّا في داخلي، فكنت
 ١٠٠٧، كارهاً لنفسي ولخنوعي ولهم أيضاً، ولكن ما كان هذا ليشغلهم،
 ١٠٠٨، المشاعري ووجعي إلا أن يبقى دفين صدري؛ لأن أحدهم لن يبالي.
 ١٠٠٩، أهتُ سنيني الخمس عشرة دون أن أحظى يوماً بحضن أمّ ولا بتشجيع
 ١٠١٠، واطبّيت على الدراسة في مدرسة متواضعة في إحدى القرى
 ١٠١١، الجاورة دون كلل، كنتُ أسير ما يقارب الساعة ذهاباً وإياباً بين الثلوج
 ١٠١٢، حبات المطر، تحت وهج الشمس وداخل دروب البريّة المخيفة التي
 ١٠١٣، عبّرها اختصاراً للمسافة والوقت.

تنهد البروفيسور بمرار وسط ذهول وصمت المستمع، ثم تابع

فانلاً:

- بقيت الحال كما هي عليه، حتى ذلك اليوم الذي عاد فيه أحد
 أفاضنا من أمريكا بعد غياب سنين، لم يسمع فيها أحد عنه أي خبر، كانوا
 يعتقدون أنه قد مات في المهجر، وما كان من أهل القرية إلا أن أقاموا له
 أعراس الترحيب وحفلات الاستقبال والولائم لما كان يحمل من نقود

ونفوذ طعمًا في بعض الدولارات والمحسوبة، كنتُ كما بقية الأولاد،
أذهب لخدمته، منصاعًا لأوامر والدي ليس أكثر.

وبعد أيام، بتَّ أكثرهم حطًا عندما أبقاني برفقته طيلة فترة إقامت
في قريتنا ذلك الصيف، أصبحتُ الأقرب إلى قلبه، كان يفضل
صحبتي على الكثير من المتملقين الذين يحيطون به، عاد بعد انتهاء
إجازته إلى أمريكا، وعدني أن يُرسل بطلبي كي أكمل دراستي
هناك، طبعًا موضوع الدراسة كان سرًّا بيننا نحن فقط، أما ما سنُخبر
أهلي به، أنه بحاجة لي لأعمل معه هناك في إحدى مزارعه.
بعد عدّة أشهر على رحيله، كدت أفقد الأمل في السفر بوعوده التي
أحييتني في عالم ملأته الأحلام والخيال. وإذ بالعائلة تجتمع فجأة في
منزلنا، وكلُّ منهم راح يرمقني بنظرات مختلفة عن الآخر، عند عودة
والدي نهض الجميع يبارك له سفري وعملي الجديد الذي سأحصل
عليه في مزارع قريتنا المليونير في أمريكا، انتابني مشاعر غريبة لم أستطع
قراءتها، ضحكت وبكيت، اطمانت وقلقت، حزنت على ذاتي الراحلة
إلى مستقبل غامض وسط موافقة عائلة لا مبالية بولدها ولا مشاعره
ولا مستقبله ولا رأيه، وفرحت لخلاصي من كل ذلك الواقع المرير
ولتحقيق حلمي بالسفر ومتابعة دراستي، لكن من كان ليضمن هذه
الأحلام؟ ألا تكفيني غيبي هذه عن نفسي وعنهم كل هذه السنين؟
والآن سيرمون بي بدمائهم الباردة في أحضان المجهول، ويبيعوني إلى
ذلك الغريب من أجل حفنة من النقود.

مطر مجدّدًا إلى السماء راجيًا من دموعه الانحسار، بينما جفف المرار
« وشفاه المُستمع.

« مت أُمّي بعض الأمتعة والكثير من الهدايا لقريننا، بعد يومين أو صلووني
« من المطار، ودون دموع لَوْ حو لي بأيديهم، ثم أداروا ظهورهم وذهبوا،
« كنتُ أنا هناك وحيدًا، كلّ ما أعرف أنه عليّ أن أختتم أوراقِي وأسير على
« امر وانتظر عند البوابة «ألف» إلى أن يعلنوا دخول الركاب إلى الطائرة
« هدايًا للانطلاق، نظرت حولي وكنْتُ وحيدًا غريبًا لا أفهم شيئًا، كنْتُ
« من خرج من قعر الزجاجة ليصطدم فجأة بزحام الحياة، أنا غريب في
« «دي وفي منزلي، فكيف ستكون الحال في تلك البلاد وفي منزل ذلك
« «الغريب؟ لم أكن أملك أي خيار، كانت قصص العبيد والاستعباد التي
« «أت تزيد مخاوفي وقلقي، هل يأتري سابع مثلهم؟

« نأت أمريكا بالنسبة لي رغم كلّ ما أخبرني قريننا عنها، أرضًا واسعة ما
« «الت تدور في صحرائها معارك طاحنة بين الهنود الحمر، أهل الأرض،
« «المستعمرين البيض، خيّل لي أيضًا أن الكاوي يرمون الجبال
« «هجزون الناس كما الجياد من رؤوسهم، خفْتُ كثيرًا، أردتُ العودة،
« «أردتُ أن أحتضن أُمّي، لكن كيف تحتضنني وهي من أبعدتني عنها منذ
« «ليل قاتلة: «لقد أصبحت رجلًا، دعك من مداعبات الطفولة، أريدك قويًا
« «أما والدك، متحجر القلب كالصخر، عصيًا على الريح والماء والصقيع
« «والشمس».

« سعدتُ إلى سلّم الطائرة ملتفتًا إلى الخلف باحثًا عن أحد ما يناديني
« «وبعيدني إلى بلدي وعائلي وأصدقائي طفولتي وأماكن لعبنا، إلى الساقية

وبركة الماء، إلى الحديقة وأشجارها المثمرة، إلى الحقول حيث كنت
أعمل وأترش أرضها عند التعب، إلى إسطبلات الحيوانات التي كنت
أنظفها وأعتني بساكنيها، أجل أريد أن أعود إلى كل ذلك، لا أريد السفر،
لكن بآت جميع نداءاتي بالفشل.

خمس عشرة ساعة في الطائرة كانت كفيلاً بقتلي، طعنت صدري ألف
مرة ومرة، قطعْتُ شراييني حتى سال دمي وملاً ذاك المحيط الذي أعبرُ
طائرًا بين ضفتيه، محوْتُ أسماءهم جميعًا واحتفظت بصورهم، كتبتُ
على خلفية كلِّ صورة ما فعله بي صاحبها وكيف مدَّ لي يده ليودِّعني،
لا ليعيدني إلى حضنه، خمس عشرة ساعة كانت كفيلاً بولادة طفلٍ آخر
ممسوخ، أسهل ما يمكن أن يفعله هو أن يقتل نفسه دون رحمة.

في المطار الجديد كان قريينا بانتظاري عند باب الطائرة، هرعْتُ إليه
مسرِّعًا، وقفتُ أمامه مترددًا، مراقبًا ملامحه، أردت أن أرتمي بين
أحضانهِ وأبكى، لكنني فضلت مدَّ يدي كما علمتني أمي، فأنا رجلٌ ولم
أعد طفلًا يرتمي بين أحضان المشاعر الفارغة، أهمل يدي ثم أخذني
في حضنه مرحبًا فرحًا بقدمي وكأنني جزء من عالمه، جزء كان يبحث
عنه ووجده، في ذلك الحزن، دفنتُ ألمي، وبين حنايا الصوت العطوف
وجدت وطني، علمتُ حينها أن القدر حليفي، واعتبرت أن هذه رسالة
السماء لي.

منذ وصولي أدركت أن مخاوفي كلها ليست أكثر من وهم صنعته بنفسِي،
كان سببه تعلقي بما ومَن تركت خلفي، جالت عينا في الشوارع، راقبت

أبي وتفحصت وجوه الناس وواجهات المحلات، كنتُ أستمع إلى
أصوات المذياع وبعض المازين قرب سيارتنا ولا أفهم منها إلا القليل مما
يحدث في المدرسة، لهفة ذلك القريب المرحة وابتساماته أخذت تزيد
من راحتي وتشد من عزيمة، فأبادله بابتسامتي الخجول التي تعكس
أني لما قدمه لي حتى الآن، وما فعله من أجلي.

صالحنا المنزل، احتججتُ إلى الكثير من الوقت لتقبل فكرة تسمية هذا
المكان الجميل بالمنزل، مقارنة بمنزلنا الجبلي المتواضع، يحق لي
أنا، أستي هذا المكان الذي لم أحلم يوماً بدخوله بالقصر أو بقطعة من
الحنة.

ادخل يا كميل، هذا المكان من الآن وصاعدًا بيتك».

دنتُ أبكي من شدة الفرح ولم أفعل؛ لأن أُمي علمتني أن البكاء للنساء
ليس للرجال، وما هي إلا دقائق قليلة حتى اخترق مسمعي وقع خطوات
أحد ما يتهدى على ذلك الدرج في وسط الجهو الكبير، ثم ظهرت والدتك
هنا.

قاطع الطيب والده بدهشة كبيرة:

- آه، ذلك الرجل جدتي؟ أكاد لا أصدق، رغم كل ما أخبرتني عن
إسانيته.

أرخصي نفسه على الأريكة وانفرجت أساريره بابتسامة تحكي حُبًا
ثيرًا قلب كيان هذا الكهل يومًا ما منذ نعومة أظافره.

- أجل، كانت أمك وجدك تلك العائلة التي أعادتني إلى الحياة،
كم كنت محظوظًا!

قدّمها لي، إنها ابنته الوحيدة من والدة أجنبية، علمتُ لاحقًا أنه لم يكن
متزوجًا، وبعد ولادة هناء تركتها أمها ورحلت لتكمل حياتها في مكان
آخر، ولم يعرف أحد أين ذهبت ومع من، لكن ما كان معروفًا أن هناء هي
ابنة هذا الرجل الطيب.

بعد سنوات من الجِدِّ والاجتهاد ومساعدتهم لي، أكملتُ دراستي، وبسبب
تأخري في إتقان اللغة تجاوزتُ فارق السن مع هناء، ودخلنا الجامعة
معًا، درّستُ هي الطب ودرستُ أنا هندسة الجينات الوراثية، ومنذ ذلك
الحين إلى يوم تخرجنا، عشنا تحت سقفٍ واحد، نما حبنا كزهور الغابة
وأعشابها الخضراء إلى أن ملأ المكان سعادة وفرحًا، بعد التخرج عقدنا
قراننا وتزوجنا في نفس المنزل، كان قريبي الطيب قد أصبح عجوزًا وأصمَّ
أن يحتفل بنا قبل موته وهكذا حدث، بعد زواجنا بأعوام، وافتهُ المنية،
لكن روحه الطيبة بقيت معنا تسكن منزلنا، تحرسه وترعى بذور حبنا.
سأله مستفسرًا:

- وأهلك، أمك وأبوك، وأشقائك؟

تنهد بالم وأكمل قائلاً:

- كان جرحي كبيرًا وعميقًا، لقد عانيت كثيرًا لأشفي من أفكارهم
وما فعلوه بي إلى أن تجاوزت مشاعري وتناسيتهم نهائيًا.

ماد الحزن ليسكن ملامحه ويعتصر قلبه بأنامله القاسية من جديد:

وصلتني أخبار أن أمي ماتت، وبعدها بسنة واحدة توفي أبي،
الأخوتي وأولادهم فلا أعرف عنهم شيئاً إلى الآن، ولا أريد أن
أعرف، حتى كنتي هذه أخذتها عن والد زوجتي، ذلك الأب الحنون
الم سالم، فأصبحت أنا وهناء غصنين لشجرة واحدة فرعها
أبو جيد أنت، هل تعلم أنك كثير الشبه بجدك وفي أغلب طباعه؟
إن ما سمع قليلاً، لم يرو حقول فضوله بعد، بادره سائلاً:

وما قصة ثروتك يا أبي؟

لا.. لا، لن أخبرك الآن، فالنعاس يغلبني، وحبلُ الذكريات بات
يهدأ وصاله على عنقي ويكاد يخنقني، سأذهب للنوم ونكمل حديثنا
لاحقاً.

لم يعجبه الجواب، لكن ما سمعه اليوم بحاجة إلى الكثير من الوقت
منى يستوعبه ويحلله، الأفضل أن يذهب إلى النوم هو أيضاً الآن، كي
يستريح، ويستعد لسماح الجزء الأهم من القصة، والسؤال الذي شغله
لسنين: ما الذي أتى به إلى هذا البلد؟ ولماذا ترك أمجاده ورحل؟

- حسناً يا والدي، أنا أيضاً سأذهب إلى النوم.

- ليلة سعيدة.

9

لم يكن ما أخبرها به والدها عن نعمة كافيًا كي تتعرف إليه، شاتٍ يعاني من خلل عصبي يُسمى علميًا «التوحد»، لكنه ليس فقط مُبدعًا، بلٍ عبقرِي، يرُسم الأحداث ويترجم مشاعره على دفتر نواته وآله الموسيقية بإتقان ودقة، معزوفة «الرحلة»، سيمفونيته الأولى التي كتبها ويعمل الآن مع باقي الفرقة على عزفها وتوزيع أدوار اللاعبين فيها، ستكون حدث العام لما فيها من جمال، وتجلُّ وإبداع.

- هذا رائع يا أبي..

أجابها وهو يتسم بإعجاب:

- أجل، أشعر أحيانًا وكأنني تلميذه، لما يظهره من تمرس بتحليل الأصوات والانفعالات الموسيقية ودمجها وصرها وصياغتها، وكأن ما أوتي من دقة في عمل حواسه قد وظفه عقله المتفرد لإمتاع مخلوقات الأرض التي لم ولن تمتعه أو تسعده يومًا في عالمه المتوحد هذا.

- غريبٌ فعلاً، ألا يؤثر مرضه على عمله الجماعي مع الفريق؟

- ربّما، إنه أقل كلامًا وأكثر انطوائية، وبالنسبة لي أحبُّ من يحمل هذه الصفات، إنهم يتحملون المسؤولية أكثر، ويلتزمون أكثر، ويتقنون عملهم بدقة ويشابرون عليه بجهد واجتهاد.

أثار فضولها ما سمعت، بحثت عنه إلى أن وجدته، كان كعادته في
رفة التسجيل، طرقت الباب وفتحته بهدوء، تسترق النظر إلى الداخل،
الجالس على الأرض، تلفّه معزوفاته وأوراقه، تسترق النظر إليها بدهشة
استغراب، ابتسمت بخجل وسألته:

- هل تسمح لي بالدخول؟

- طبعًا تفضلي.

هَمْ يُلْمِمْ ما هو مبعثر، قاطعته قائلة:

- أرجوك دَعْ كُلَّ شَيْءٍ كما هو عليه، تعامل معي بطبيعية، سأجلس
أبداً بالقرب منك، أنا مثلك أحب الجلوس على الأرض، منذُ زمن وأنا
أفقد بساطة وطبيعية التصرف.

ترك ما كان يحملُ جانبًا، أو ما لها بارتباك كي تجلس في ذلك المكان
العارغ قربه، حيث وضع حقييته، شاله وكمانه.

مررت أصابعها على الآلة:

- هل هذا كمانك؟

- أجل.

بعد تردد مرير أكمل حديثه:

- أَلعب على أكثر من آلة موسيقية، البيانو كان مفتاح رحلتي، بعدها
نان من السهل عليّ أن أتقن الآلات الأخرى.

- جميلٌ هذا يا شافي، أفصد نعمة.

ظهر القلق على ملامحه من جديد عند سماعه ذلك الاسم.

-أسفة حقاً.. يجب أن تتعرف عليه، إنه أنت، نسخة منك.

شدَّ عضلات شفاهه محاولاً الابتسام وإخفاء حيرته، جمع شتانه وأجابها بهدوء:

- لا تقلقي سأعتاد الفكرة، أن يكون في هذا الكون أحد ما يشبهني، صراحة هذا ما يربكني وليس ذكر اسمه.

- أتعرف؟ نحنُ أصدقاء منذ الطفولة، درسنا في نفس المدرسة ودخلنا الجامعة نفسها واخترنا نفس الاختصاص، وتخرّجنا معاً، حتى إننا، أنا وأنت وهو مواليد نفس السنة.

- هذا جيد، أتمنى أن ألتقيه يوماً رغم أنني لا أحب لقاء الغرباء.

ابتسم بخجل، ثم راح قلقه يتبدّد شيئاً فشيئاً مع كلّ كلمة ينطقها صوتها الناعم الذي استشعر نغماته بحسه الموسيقي. أجابته بحماس:

- سأهتم بترتيب هذا اللقاء رغم انشغاله الدائم بالأبحاث، فهو شخصٌ غريب أيضاً، إنه وحيد والده الذي صرف عمره من أجل تربيته، وقد عزله هذا عن الناس وحرمه اللهو ومُتّع الحياة، ببساطة إنه شخصية طيبة لكنه انطوائي وخجول.

صمتت لبرهة ثم سارعت بالكلام محاولة إخفاء تلك الصفات المشتركة بينهما كي لا تؤذي مشاعره:

• أتعلم أن هؤلاء الأشخاص لديهم من الذكاء ما ليس لسواهم،
• من الحبِّ والعطف والحنان ما لا يملكه الآخرون؟ وتراهم
• يعمدون إلى إظهار مشاعرهم تلك خوفًا من رفض الآخرين لهم،
• أي جرح لتلك المشاعر بالنسبة لهم، فسلُّ يخافون دائمًا مواجهته.
• إنك كلامها، لقد اقتربت به إلى منطقة حميمة تعنيه، فقرر أخذ الحديث
• إلى منحنى آخر، سألتها مستفسرًا:

- هل تحيِّين مجال دراستك؟

جالت عيناها بالمكان مطوِّلاً، ابتسمت، ثم نهضت من مكانها ترمقها
• طراته الهاربة المستغربة، نزعت عنها سترتها، أطلقت سراح شعرها
• الحريري، نزعت حذاءها ثم عادت وجلست بقربه من جديد:

- لا أعرف حقًا، أشعر أحيانًا أنه عالمي، لكن عندما أمضي ساعات
• طويلة أحاول تجزئة خلية ما، أو تنبيت بعض الأعضاء، عند تحليل بعض
• الميكروبات أو الكروموسومات الجينية، وتبوء محاولاتي بالفشل لسبب
• ما، أشعر باليأس وأرغب في تحطيم كل شيء، فأخرج إلى الحياة، للهو
• والرقص والاستمتاع، وأنساءل حينها ألا يعني هذا أنه ليس مكاني، وأن
• ما أفعله ليس ما أريد؟ لكن شافي يحب ما يفعل، ولا أعتقد أنه سيضجر
• من الفشل مهما تكرر، أنتعتقد أنني اخترت دراستي هذه لأبقى بقربه؟
• صمتت فجأة وأحنت رأسها مرتبكة.

- آسفة، ما كان عليّ أن أقول هذا، لكنني شعرتُ بنفسي - ولأوّل
• مرّة - أنني أكلّم صديقًا قديمًا من الممكن أن أأتمنه على أسراري.

أشاح وجهه مراقبًا أوراقه مبعدًا مشاعره عن نظراتها المترقبة لرد فعد
على ما قالت.. ابتسم برضى ثم أجابها بثقة:

- لا عليكِ، مؤكّد أن إحساسك لم يخطئ..

- أشعر بهذا، إنك حقًا مختلف عن الآخرين يا نعمّة، وأتمنى أن

نصبح صديقين.

- هذا يسعدني، أفنقد وجود الأصدقاء في حياتي.

- أليست لديك عائلة؟

تنهد بعمق، داعبَ أوتار آله:

- كلا، لقد سلّمني أحد ما إلى مركز تأهيل المعاقين في المدينة ورحل،

بقيت هناك إلى حين تخرجي، ومن بعدها انتقلت إلى شقة منفصلة، تتبع

بكل ما فيها لحماية المركز ورعايته، هناك أُمّي، المساعدة الاجتماعية

التي تولّت الاهتمام بي، منذ ذلك اليوم أناديهما ماما، بالإضافة إلى بعض

رفاق المركز الذين لم تتعدّد صداقتهم جدرانهم، فكلّ منهم مشغول بعالمه

وحياته.

اقتربت منه، مدّت يديها راغبة باحتضانه إلا أن رد فعله وانفعال

جعلها تعود إلى الورا لتكمل حديثها وكأن شيئًا لم يكن.

- هل تمنع أن نتراقق معًا إلى المدينة في أوقات فراغك؟

أجابها وهو يبتسم بارتباك ظاهر:

حقيقةً أنا لا أحبذ الخروج، لكن إن رفضتُ عرضًا كهذا، أكون حقًا
.. وأنا.

علت ضحكاتها:

حسنًا يا صديقي، سنحدد موعدًا قريبًا وسنمضي أوقاتًا ممتعة معًا،
أريدك أن تعرفني أيضًا إلى والدتك..

حسنًا، سأخبرها برغبتك هذه.

خيم الصمتُ وسط زحمة انفعالاتٍ وابتسامات متبادلة.

- حسنًا سأتركك الآن لتكمل عملك وسأذهب إلى والدي..

- كما تريد.

أومات برأسها وابتسامتها الساحرة تراقبها، حملت سترتها وارتدت
ماداه، ثم ودّعا بعضهما، اجتازت الباب وأغلقت خلفها بعد أن التفتت
المزج له بيدها. أغلق الباب لتُفتح أمامه أبواب كثيرة تعدّه بصداقات
حياة عادية كأي شاب مبدع في ربيع سنينه، بعيدًا عن أي عوالم يسكنها
العراغ والألم.

10

اعترف البروفيسور إيان ويلموت، الأب الروحي للنعجة المستنسخة دوللي في رسالة لمجلة نيشر العالمية أن النعجة قد وُلدت أكم من عمرها بست سنوات، كما أشارت منظومات الحمض النووي (D.N.A)، فَعمر المستنسخ يبدأ من عمر المنسوخ، وهذا الاكتشاف سيكون له انعكاسات سلبية على مَنْ يطمحون إلى استنساخ أنفسهم، فالمستنسخون سيعانون شيخوخة مبكرة، ولهذا.. فلن الاستنساخ البشري لن يكون مُجدياً إن لم يتمكن العلم من إيجاد حل لهذه المعضلة. لطالما أقلقته هذه الحقيقة ووضعت طموحاته تحت المجهر، هل سيستطيع أن يجد حلاً إذا ما وُفّق وتمكن من تحقيق هدفه باستنساخ أعضاء بشرية سليمة معافاة؟

ثابر على العمل في مخبره بالدور السفلي من ذلك المنزل الجميل الهادئ، متناسياً إجازته الصيفية وأصدقاءه الذين قلّما واطب على الاتصال بهم، فالبروفيسور سالم الآن صديقه الوحيد، كانا يتكلمان في شؤون كثيرة خلال العمل، بعضها يخص أبحاثهما، وبعضها الآخر عن مشاغل الحياة والسياسة، وأيضاً بخصوص سبب تركه أمريكا واستقراره في إحدى الدول العربية.

با شافي الغربية مرّة ولا تصدق المهاجرين عندما يقولون لك إنهم
«اندمجوا بمجتمعهم الجديد، وإن بلاد الغربية أصبحت كبلدهم، مهما
«الالتحام قوياً يبقى هناك شيء ما يمنع تحقيق ذلك الاندماج التام،
«أنا كما الزيت والماء، يتعايشان معاً، لكن يستحيل أن يصبحا سائلاً
«أمداً، بما أنني غريب، وعربيّ تحديداً، حرمني هذا من تبوّء مراكز
«أبداً، وبقيّ تقدير إنجازاتي العلمية قابلاً في الظلام إلى أن..

أدار كرسيه وترك الحديث بلا نهاية، عاد يراقب تلك الخلية التي أفرغ
«أبداً منذ قليل:

هل تعتقد أن الخلية ستتفاعل مع النواة الجديدة؟

- أعتقد هذا، لقد حرصت على اختيار مصدر الخلية التي أخذت
«ها النواة الجديدة والخلايا الضرعية صلبة بالعادة، هذا ما أثبتته العلم،
«أم أنك نسيت أنك أنت من كتب هذه الأبحاث؟
«بلع ريقه بمرارة.

- أجل أنا، لكنها دُرست ونشرت باسم آخر.

- غريب هذا، إن إنتاج الفكر كالذرية، وهل يستطيع الإنسان أن
«ينخلي عن أولاده ببساطة؟ مؤكداً لا.

- لم يكن الأمر بسيطاً كما تعتقد، ومن الصعب فعلاً على صاحب
«الفكر أن يُنتزع منه فكره ويُنسب لآخر، إنّما للظروف أحكام.

- أجل، لكنك عملت مع دكتور إيان ويلموت، وكلنا يعرفه.
هو بروفييسور ويلموت، إنه مُطلَقٌ ومنقذ أول عملية استنساخ في تاريخ
الأرض، وهذا يا أبي بحد ذاته إنجاز عظيم لك كعربيّ، فأبي ظروف
ستعوقك بعد هذا؟ وأبي مبرّر سيدفعك لأن تتنازل عن حق ملكة
فكرك؟

أجاب مستنكراً:

- وهل تعتقد أنني وصلت إلى هناك بسهولة وبمؤهلاتي الممتازة
فقط؟ إنه مشوار كفاحي يا صغيري.

ثم زفر بغضب وأكمل حديثه:

- بعد نجاح أبحاثي العلمية في أمريكا أرسلت سيرتي الذاتية مئة مرة
إلى أسكتلندا، مركز أبحاث الدكتور ويلموت، لأشهر طويلة لم يُجب
أحد، فالاسم عربيّ وإن كانت الجنسية أمريكية، لكن أحد معارف جدك
الذي كان زميلاً له أيضاً في أحد النوادي الدولية التي تمتد شبكاتها
السرية في كل أقطار الأرض، جامعة تحت شعارها نخبة النخبة من
رؤساء ومفكرين، سياسيين وفنانين وعلماء، رشّح اسمي عنده، وزكّاني،
وعرف عما أحرزته من نجاح، بعدها قُبلت بكل ترحيب، ولكن بروز
نجمي واعتماد الدكتور ويلموت الدائم عليّ، أثار غيرة الحاقدين،
وبدأت الدسائس والمكائد تُنصب لي وأنا في غفلة من أمري، معتقداً
أنهم أصدقائي ولا يكتون لي إلا المحبة والاحترام، بعد نجاح تجربة
استنساخ تلك النعجة الشهيرة صدرت قرارات صارمة بمراقبة الأبحاث

علمية، منعًا للاستساخ البشري، تكتل علينا حينها أهل الدين والسياسة
ممعيات حقوق الحيوان والإنسان، وطبعًا الإعلام الذي أصبح موضوع
اللي شغله الشاغل. بعد هذا تفكك فريقنا، وعدتُ أنا إلى أمريكا لأعمل
في الخفاء على ما كنت قد بدأت، إلى أن فوجئت يومًا بزيارة الشرطة
مخبري بسبب شكوى قُدِّمتْ ضدي من مجهول، في الحقيقة لم يكن
فعل هذا مجهولًا بالنسبة لي، لقد كان أحد العلماء الذي عرض أن
أري أبحاثي واكتشافاتي العلمية حول زراعة الخلايا الدماغية، وعندما
اصت، أبلغتني، فتحوا بحقي قضية انتهاك للقانون، ثم أقفلوا المخبر
أسدروا قراريًا بمنعني من العمل، وما كان مني لأسوي الأمور سوى
العرض للبيع، وهكذا حصل، لقد دفع لي مبلغًا لا يستهان به، ملايين
الولايات، ووقعْتُ له تنازلًا عن اكتشافاتي وثمرات أفكارني، كنتُ أعلم
أني إن لم أوافق، سيكون الثمن أكبر من أبحاثني، ربما حياتني... بعدها
هت العيش هناك مكتبلًا مسلوب الفكر والحرية، لهذا بعثتُ كلَّ أملاكنا
وأموك، وكل ما ورثناه عن جدك وانتقلنا إلى هنا.

انتفض واقفًا والتأثر بإد على ملامحه وكأنه ناهز المثة عام في
الخطات:

- سأذهب لأستريح..
- آسف يا والدي، لا تغضب، إنها حماقة وفضول أطفال.
- ربتتُ كفتي قبل أن يغادر قائلاً:
- لا عليك، عاجلاً أم آجلاً كان يجب أن أخبرك بما حصل.

تركة هناك غارقاً في أفكاره، وتوجه إلى غرفته يجرح خلفه ذبوا
الماضي الأسود كحيوان وحشي هزمته صراعات الغابات.

- مسكينٌ أبي، من لا يعرفه حقاً يتصوّر أنه ستفأح قاس، غير أن هذا
الحياة قد أرضعتة فسوتها وطمته على ستمها ونارها، من الطفولة المعذبة،
حتى الهجرة القصيرة، مروراً باغتصاب فكره وموت حبيبته، وصولاً إلى
مسؤوليتي التي ألقيت على عاتقه منذ ولادتي حتى الآن، سحقاً لشقاء
الحياة!

عادَ إلى عمله محاولاً إلقاء ما سمع وما ساوره من مشاعر مُرّة،
في غياهب النسيان، ثم غاص لساعات تحت عدسة مجهره، بير
الكر وموسومات وعائلاتها، حتى تمردت عيناه ورفض عقله الانصياع،
وضّيب أدواته والمعدّات التي استعملها في وعاء ليدخلها إلى جهاز
التعقيم قبل ذهابه، ولكن النعاس غالبه، فسقطت تلك الأدوات الصغيرة
التي كان يحملُ أرضاً، تبعثرت تلك الأشياء ورؤوس الحقن في جميع
أرجاء المختبر.

- تبتاً، إنها قطع صغيرة نادرة ومهمة، يجب أن أجدها.

راح يجمعها ويللم آثار الخراب، حتى استوقفه جسمٌ مجهول مز
تحت يده، مرّر أنامله تكررًا فوق ذلك الشيء، سارعَ بإبعاد الكرسي ثم
رفع السجادة الحمراء، وإذ به يجد قفلاً أكله الصدأ، يخترق قطعة خشبية
تشبه الغطاء، سُويت بمستوى الأرض، حاول هزّ القفل وفتحه عبثاً، نظر
حوله، أعاد القفل إلى وضعيته السابقة، أعاد السجادة إلى ما كانت عليه،
عاد إلى كرسيه، جلس هناك متأملاً ذلك المكان بحيرة.

غريب هذا القفل وذاك الغطاء، هل هو غطاء لممر سرّي، أم مدخل
م. ن آخر؟ أم خزانة أسرار؟ ولماذا لم يطلعني والدي عليه؟ إنني متعب
من، سأعود إليك غدًا لأكتشف سرّك ومعك أسرار الوالد الّلا متناهية.

دأب على الذهاب إلى عمله بنشاط، بدقة مواعيد قَلَمًا يلتزم بها الآخرون، إلا أستاذه الذي كان يصل قبله فيستقبله مرحبًا، يشرباد الشوكولاتة الساخنة مَعًا، يتبادلان الأفكار، يستشيريه ويسدي له بعض النصائح، قبل أن يتركه وحيدًا مع نواته ويذهب إلى مكتبه. لم يُخف على الجميع تلك العلاقة المميزة بينهما، لم يبخل عليه يومًا بدعه، ووقته، والوقت الإضافي الذي يصرفه معه في أثناء التمرين زيادة على الآخرين.

ترك غرفة الاستراحة عائدًا إلى عمله، وراءه الكثير لينجزه، إنها حفلة الأولى التي سيشارك فيها بمعزوفاته، فهل سيقوى على مواجهة الجمهور وسماع التصفيق الذي كان يثير أعصابه إلى حد الجنون؟

- كم أكره تلاطم تلك الأكف، يخترق صوتها مسمعي كتحطم الزجاج، وتلك النوايا التي تقف خلف بعض منها، فكم مصفق كاره لمن يصفق له، وآخر يجامله، أصوات ارتطام الأكف كم تفصح النوايا، أكره تملق البشر وزيفهم، أما تلك الأعين التي ستحدق بي مشفقة مرة وحاسدة مستغربة مرارًا فتدفعني إلى الغثيان، كم أود أن أعمل هنا في الخفاء دون الاضطرار إلى هذه المواجهة الحتمية المفروضة عليّ.

• ترك أفكاره ومخاوفه جانباً، وعاد لينظم أوراق العازفين الذين
صلون بعد قليل، أما مازن فهو أكثر من يخشاه ويخشى مواجهته،
أما بوبت تعامله معه كان يوقظ ريبته وشكّه في قدرته على مواجهة ما
طرحه، وكأنه قد تعمد هذا رغم همس الجميع وتحذيرهم له من إثارة
ر. بوتز أو مشاكل معه، كما حذرهم المايسترو قبل دخول نعمة بينهم.

لا بأس، إنه الامتحان الأول، وإن تمكّنت من تجاوزه من المؤكد
أنه لن يخطفني وقلقي من مواجهة الجمهور.

دخلوا جميعاً إلى المسرح حاملين تلك الأوراق التي ورّعها عليهم.
أدت البروفات وكانوا متجاوبين معه، مستمعين إلى نصائحه، كسر
مال الموسيقى توتره، إنها أنغامه وحلمه المولود حديثاً، حلمه الذي
أرع من خلاله ظلمة الحياة ليخرج إلى النور، تأخر مازن، لم يحضر
١٥. وهذا أكثر ما أسعده، بعد ساعات من التدريب والإعادة وقبل وصول
أ. اذهم بدقائق دخل المسرح دون أن يُعير نعمة أي اهتمام، فتح الأوراق
التي كانت أمامه محاولاً مجاراة الجميع في العزف، إلا أن الوقت لم يكن
أدنا ليتقن ما تعلّمه الآخرون، وأدرك عند دخول أستاذه أنه في ورطة..

حسناً... هل الجميع مستعدون؟ هل انتهيت يا نعمة من التدريبات

الأولية؟

أجل.

إذن فلنبدأ.

إثر إشارة المايسترو وبدأوا بالعزف، بعد قليل أو ما لهم بيده،
يتوقفوا، ثم توجه بالحديث إلى نعمة:

- آله مازن ليست منسجمة مع المجموعة!

ارتبك وتلعثم لسانه قليلاً، استجمع شجاعته وأجابه بأسف:

- لم يكن معنا منذ بداية التدريب، لقد وصل متأخرًا.

أزعجه ما سمع، هذا جل ما يخشاه ألا يتمكن نعمة من فرض نفسه،
على المجموعة، وهذا ما سيعوقه مستقبليًا عن التقدم.

- حسنًا، سأترككم الآن، وأرجو أن تكونوا جاهزين تمامًا في البرود

القادمة، إنكم تضيعون الوقت، وأرجو أن تكون أكثر حزمًا يا نعمة، إنها
معزوفتك، وأنت المسؤول عن كل تفاصيلها.

عاد إلى البيت منهكًا حزينًا، دخل قوقته وأقفل خلفه الأبواب،

نظرات مازن التي رمقته وهو يشي به إلى أستاذهم كانت تحمل الكثير
من الحقد.

- آه يا أمي كم هو مؤلم هذا العالم! لم علي أن أخرج من هنا؟

لا أريد أن أكون شيئًا، أريد فقط أن أبقى مع نفسي، كم أحسد النجوم
البعيدة والكواكب التي تطوف بمفردها في كونها الذي لا نهاية له.

12

أسعدت اتصالها، لم يسمع صوتها منذ زمن، صوتها الذي يسافر به
عالم الخيال بعيداً عن مادّية الواقع وقسوته، أبلغته أنها تنوي زيارته،
بالفكرة وبها، آملاً في أن تخرجه قليلاً مما يتخبط به في عوالمه
محهرية تلك، حضّر نفسه ووضع بعض العطر ثم توجّه إلى المطبخ
طلب من الطباخ أن يُعدّ مادبة مميزة لضيافته التي ستمضي نهارها معه.
نتهت مشاعره وخفق قلبه عندما توقفت السيّارة أمام باب الفيلا
الاخلي، كان بانتظارها هناك، بملامح جديدة مختلفة تماماً بعيداً عن
الحامعة ومختبرها وضغوط الدراسة والأصدقاء، إنها اليوم ضيفته
وإست زميلة الدراسة والأبحاث والاختبارات، تهادت أمامه بكل أنوثة،
شعرها الطويل الكستنائي الناعم، وقدها الممشوق وتلك الابتسامة
الطفولية التي تبعث الراحة في النفوس، والعينين المشعّتين ببريق غريب
أخاذ، لم يستطع خجله ولا وقاره أن يكتبتا تلك السعادة التي حلّت عليه،
أحمل وسامة الوجه القمحي ذي اللحية الخفيفة والشعر الأسود الناعم
المصنّف بعناية، إنها المرة الأولى التي يقف فيها أمام المرأة لأكثر من
ساعة محاولاً إبراز نفسه بأسلوب جديد، ربّما هو الملل وذلك المختبر

الذي أنساه واقع شبابه الذي يتر جذوره يوماً بعد يوم، فما يشعر به الآخر،
ليس إلا تذكيراً بحقوقه عليه.

- أهلاً بك مايا، أشكرك على حضورك.

- أنا من عليّ أن أشكرك لقبول تطفلي هذا.

أطرق مبتسماً:

- لا تقولي هذا، أهلاً بك في أي وقت.

- في الحقيقة منذ تخزجنا وأنا أنتظر اتصالك، وبما أنك لم تفعل،

قررتُ أن أبادر أنا بالاتصال والزيارة، لهذا عليك أن تدعوني مرة ثانية،
لأن وجودي هنا الآن لن يسجل على قائمة إنجازاتك.

أضحكُ تحليلها كما أشعرهُ بالخجل.

- حسناً، سنحدد من اليوم موعد اللقاء القادم.

- هذا جيد، سأدرس دعوتك وأردّ عليك قُبيل رحيلي.

علا صوت ضحكهما وملأت البيت بهجة الشباب، جلسا في الصالة

وأكملا حديثهما:

- جميل بيتك يا شافي، هادئ وبعيد عن ضوضاء الحياة، هل أنت

سعيد هنا؟

- كما تعلمين، أفضل هذه الأجواء على صخب المدينة.

- وكيف تمضي أيامك هنا؟

أراد أن يخبرها عن المختبر، لكنه تذكر وعده لوالده بالألا يفشي أمره
، فهذا سرهما ويجب أن يبقى دفين الصدور.

أعمل على كتابة أبحاث جديدة، وأجهز مكانًا خاصًا هنا لأعمل
، وأطبق ما تعلمته، وما يحتاج إلى عمل مركز متخصص، سأعتمد فيه
، المختبر الجامعة.

هذا رائع، إن احتجت أي مساعدة أرجو أن تعلمني ولا تتردد،
، متى متسع من الوقت، فما زلتُ أبحث عن عمل ويُسعدني أن أتدرب
، مدعٍ مثلك.

ابنسم برضى، ثم أطرق بحياء قائلًا:

فكرةٌ جيّدة، لكن كما تعرفين، أنا لا أتهاون في موضوع العمل،
، خاصة في مجالنا هذا، فالخطأ ممنوع.

طبعًا، أنا من يعرفك، لا تخف، سأكون بمستوى طموحاتك.

سوف أختبرك إذن.

آه لقد تذكرت، تخيل آتي نسيئًا ما جئتُ من أجله..

أخذته الدهشة قليلًا، وسرقت بعضًا من ابتسامته:

- زيارتك ليست شخصية إذن، إنها لسبب ما؟

- ليس سببًا، إنها ذريعة.

ضحكا من جديد، أسلوبها هذا يروقه ويخرجه من حياته.

- وما الذريعة؟

- سيقام في مسرح المدينة حفل موسيقي بقيادة والدي، وسُتُعرف هناك العديد من المقطوعات الموسيقية لمؤلفين شباب، الفرقة سيمفونية طبعًا، لكن المعزوفات سترتدي طابع الحدائث رغم كلاسيكيتها، وقد حجزت بطاقة خاصة لك، فهل ستقبل دعوتي هذه؟

- بالطبع، وهل أستطيع رفض دعوتك ورفقتك، أسعدني هذا جدًا، فانا من عشاق الموسيقى، ولو لم أدرس الهندسة لكنك الآن بين صفوف العازفين أمام والدك.

- جميل جدًا، إذن سنستمع معًا في تلك الأمسية.

- المتعة في وجودك سيديتي، والآن لتناول الغداء، ثم سأصحبك بعدها إلى الإسطنبول لأعزفك إلى شافي آخر، مهر جديد ولد منذ أسابيع، إنه رائع الجمال، بالمناسبة، لم أسالك سابقًا، هل تُحبين الخيل؟

- كثيرًا.

- رائعة أنت دائمًا.

فرغنا من تناول الطعام وتبادل الكثير من الأحاديث، ثم توجهنا بعدها إلى الإسطنبول، لقد أسر عينيها عندما رأتها، تفحصته بنظرة يملؤها العطف والإعجاب، مررت يدها الناعمة عليه بلطف، لم يكن ذلك المهر كسواه، لاحظ انبهارها وسعادتها فبادرها بالسؤال:

- هل لديك خبرة بالجياد؟

ليس كثيرًا، لكن هذا المهر يبدو غريبًا بعض الشيء، وكأنه مزيج
من عدة خيول.

قال لها بصوت منخفض بعد أن تلقت يمينًا ويسارًا:
سأخبرك سرًا خطيرًا إن وعدتي أن تحفظيه وتقيه بيننا.

نظرت إلى عينيه، ثم أجابته بلهفة وفضول:
أعدك.

هذا المهر معدّل وراثيًا، «مستنسخ».

انقطعت أنفاسها.. وقالت بصوت منخفض:

- فعلتها إذن؟ وهل نجحت التجربة بالكامل؟

- إلى الآن أجل، المهرُ ما زال حيًا، وقد اجتاز مرحلة الحمل بنجاح
ولد بشكل طبيعيّ كباقي الخيول.

- إنك عبقرِيٌّ حقًا، كيف استطعت هذا؟

- إنه والدي يا مايا، لقد عاونته قليلًا في بعض الأمور، إن خبرتي
مارالت بحاجة إلى الكثير من الصقل.

- وهل مات الكثير من الأجنّة خلال التجارب؟

نظر إلى المهر لا يعلم ماذا يقول، فهو لم يكن موجودًا وقت
الخصيب، والوالده لم ولن يطلعه على معلومة كذلك، ربّما تحبط عزيمته
بطفئ حماسه.

- صححة هذا المهر هي الإجابة عن سؤالك.

أشعرته نظراتها الحائرة بالقلق وأثار سؤالها مخاوفه.

- تذكري أنك وعدت أن يبقى الأمر سرًا بيننا.

- أجل، لا تقلق، لكن في المرة القادمة يجب أن أكون معكم، تذكري

أنت وعدت بتدريبي وإلا سأفشي سرّك المرعب هذا.

ابتعد عنها بضع خطوات، ابتلع ريقه وأخذ نفسًا عميقًا، وتساءل في سرّه، هل ارتكب حماقة وقال ما لا يجب أن يُقال؟ وهل فعلها يومًا وتُفشي هذا السرّ؟ هل أحرق ما اجتهد والده في صنعه؟ هل كتب بيده نهاية سيرة ذلك الأب الناصعة وخاتمة بدايته؟ كلا لن تفضح سرّنا، أما أعرفها جيدًا وأثق بها، وربما ستصبح زوجتي يومًا ما، أه ماذا فعلت أيها الأخرق؟ اقتربت منه بعد أن شعرت بأن كلماتها الأخيرة أزعجته، ووقفت أمامه، أمسكت يديه، نظرت إلى عينيه ثم قالت وهي تبتسم:

- اعتذر عما قلت، لم أكن أقصد ما فهمت، كنتُ أمارحك فقط، تأكّد.

أنسي لن أفعل، أعدك، كنتُ أحاول أن أحثّك على إشراكي في تجاربكم تلك.

- حسنًا لا عليك، المرة القادمة سنعيد التجربة معًا، لكن عليك أن

تتركي مشاعرك في مكانٍ آخر، العلم بحاجة إلى هذه الأبحاث، يجب أن تتحلي بشجاعة العلماء، هكذا يقول لي والدي دائمًا.

حرّرت ترابّ الإسطبل بحذائها، أجابته بعد تفكير عميق:

أجل هذه هي مشكلتي التي أحاول التخلص منها، لهذا أحتاج إلى
اعدتك.

لا تقلقي، ستخطين هذا عندما يصبح عندك هدف سامّ تعملين
أجله.

أمل ذلك، أما الآن وقد تأخر الوقت، أستاذُ منكَ، عليّ أن أغادر.
سارا جنبًا إلى جنب، تاركين الإسطبل إلى باحة الفيلا الرئيسية،
لأنهما ملوحتا بيده إلى أن غابت عن ناظره، وعاد بعدها كلّ منهما إلى
المنزل.

دخل مختبره من جديد متمنيًا لو استطاع أن يصحبها إليه، فتشاركه
المنزل، كما شاركته سر ذلك المهر الجميل.

راح يجول في أرجائه وكأنها معه، يطلعها على كل ما هناك، تذكر
حياة ذلك الصندوق، أسرع إلى باب المختبر وأحكم إقفاله، توجه إلى
المنزل البقعة السرية، رفع البساط عنها وجلس محاولاً فكّ شفرة ذلك
القفل والوصول إلى رقمه السريّ، وضع رقم خزانة والده الخاصة الذي
أعطاه إياه يوم مرضه ولم تنجح المحاولة.

جرب تاريخ ميلاده وتاريخ زواج والديه وتواريخ أخرى ولكن
القفل بأسراره بقي مستعصيًا على تلك الاحتمالات، لم يبق أمامه
... سوى ذلك التاريخ الذي كثره مرارا عندما أخبره عن ماضيه (15-09)،
... فان تاريخ سفره من بلاده، فجأة حلّت الأحجية، وفتحت أمامه خزانة
الأسرار.

ارتجفت يدها، أراد أن يقلقه من جديد، وينسى الرقم ويعيد كل شيء إلى مكانه، لكن فضوله تفوق على عقله وخوفه، ودفعه إلى الغوص في بحور والده الغامضة مهما كان الثمن، رفع الغطاء، جالت عيناه بين تلك الأشياء الموضوعه هناك، تفتحصها عن بُعد، فأسر نظره فجأة ذلك الكتاب بعنوانه الذي كُتب بخط اليد... الاستنساخ البشري!

صعقهُ ما قرأ، ارتجفت مفاصله، نظر حوله ثم دقق النظر بباب المختبر المغقل، قبل أن يتناول الكتاب ويمسح عنه ما تبقى من غبار.

جلسَ أرضاً قرب كهف الأسرار وفتح أولى صفحاته..

«إنه يومي الأتول في مختبري. لقد حسمت أمري وسأبدأ كتابة يومياتي، وسأبدأ عملي لأصلح ما أفسده دهرى علي، لقد انتقلنا إلى هذا البلد منذ خمسة أشهر حيث احتفلنا بعيد ميلاد شافي في بيتنا الجديد، كان عيداً بسيطاً، فصحة هناك كانت تسوء يوماً بعد يوم، وباتت تحتاج إلى تكثيف تلك الجرعات الكيميائية التي كانت تأخذها، ربما انتقلنا ومحاولتها التأقلم مع هذا العالم الجديد قد أتعبتها، لقد عرضتُ عليها أن تبقى في أمريكا، لكن حبها لى جعلها تتحمل مشقة الانتقال لتبقى هي وشافي معي، كي لا أشعر بغرابتى أكثر، كانت تدرك حالة الإحباط والحزن التي انتابتني بعد إيقافى عن العمل، كم كانت عظيمة ورائعة!

لم يكن وضع شافي مطمئناً أيضاً، لقد أفسد علينا ظهور مرضه فرحنا بولادته، لا هذا مؤلم، لن أعيد ما كتبت، لقد فاضت دقاترى دموعاً، وعانيتُ كثيراً لأتقبل حالته تلك، ولأتعامل مع الواقع بشجاعة ومحبة».

١٠ فف عن القراءة والحيرة تفترسه.

ماذا؟ كنتُ أعاني من مرض ما؟ أي مرض؟

اللفظ أنفاسه ثم عاد إلى الكتاب.

١١ هل هذا وأكثر دفعني بعد موت هناء إلى عزل نفسي وتجهيز المكان
١٢ ١٠،١١، حلتي مع استنساخ أمل جديد للمستقبل، يجب أن أعيد بناء حلمي
١٣ ١٠، ١١، ولن أتكل في ذلك لا على الله ولا على القدر، كي يرسل لي ما
١٤ ١١، يجب أن أصنع بنفسي ما تطمح إليه نفسي، لن أكرث بمحرّمٍ أو
١٥ ١١، ١٢، ١٣.

١٦ أبفظُ ذلك القرعُ الخفيف على الباب من سكرات ظنونه، بسرعة
١٧ ١٠، ١١، اءاد الكتاب إلى الصندوق وأقلّ بابه من جديد، قبل أن يرد على الطارق
١٨ ١١، سألته:

سيدي هل أنت هنا؟

· أجل يا عم سيّد ماذا تريد؟

· والدك يسأل عنك.

· حسناً سأصعد حالاً.

١٩ التقط أنفاسه ومسح جبينه المبلل بزخات العرق الممزوجة بالخوف
٢٠ ١٠، ١١، الرهبة، غادر المكان مسرعاً بعد أن تأكد أن كل شيء قد عاد إلى ما
٢١ ١٠، ١١، كان عليه.

رغم سفره مع والده لحضور أحد المؤتمرات العلمية، فإن قد
ما زال هناك في ذلك الكتاب وما قرأ فيه.

- أي مرض تكلم عنه؟! هل لهذا مسح من ذاكرتي الكثير،
التفاصيل؟ وتلك الصور مع أمي التي لم أستطع ولا حتى في المخاض،
العودة إلى شيء من ذكراها، وتلك المرأة التي قابلتها صدفة أمام الفيلا
أثناء خروجها، أستطيع أن أسمع صوتها حتى الآن عندما غمرتني قانا،
«أنت شافي؟ ما شاء الله، كبرت أيها الشقي، كنت أحملك بعد ولادتنا»
وأرضعتك من صدري مع أطفالتي». اعتقدت يومها أنها تهذي، فعنا.
انتقلنا إلى هذه البلاد كنت قد تجاوزت الثالثة، وكيف لها أن ترضعني..
أطفالها؟ يبدو أن هناك الكثير من الأسرار التي تنتظر أجوبتها!

عادة في تلك الليلة متأخرين، صعد البروفيسور سالم إلى غرف
منهكاً، أما شافي فنزل مسرعاً إلى مختبره ليكمل قراءته، أقفل الباب
وسار إلى السر المدفون، حمل الكتاب وأكمل من حيث توقف:

« 30.12 كتبت اليوم على ذلك اللوح المعلق في المختبر خطتي
التي أخذت مني ساعات طويلة لأعد تفاصيلها، علمت أن أحضر عدداً
كافياً من البويضات كي أبدأ عملي عليها، لقد كان هذا أصعب ما في
الأمر، حتى هنا المسكينة لم تسمح لي بأن أستخرج أياً منها قبل أن
تموت، عدا مرضها الذي كان يشل كل أجزاء جسدها، حتى لو تمكنت
من إقناعها بانتزاع بعض بويضاتها، فلن تكون بسبب العلاج الكيميائي
بتلك الجودة التي أريد، سأبدأ إذن بالمرضة، مرتبة شافي، سأحاول أن
أتحرك سريعاً».

سئل ما قرأ أعصابه، رنَّ هاتفه كثيرًا قبل أن يستيقظ من كابوسه
مب:

أهلاً مايا..

صباح الخير، هل أزعجتك؟

طبعًا لا، على العكس، أنا سعيدٌ جدًا بسماع صوتك.

أردتُ أن أذكركَ بحفلي الليلة، البطاقات معي، سأنتظرك عند باب
...رح لندخل معًا، وهناك بطاقة إضافية، أرجو أن توجه دعوتي لوالدك
...إذ إن رغبتَ في الحضور، سوف تكون فرصة جيّدة كي تتعرفا إلى
...التي، سيسعدان بحضوره.

أرعى ما سمعته بعض الهدوء على أعصابه المتوترة، وأسعده جدًا
...مامها بكسر تلك المسافات التي بينهما.

حسنًا، سأوصل له دعوتك هذه، شكرًا لك.

هذا رائع، سأكون بانتظاركما، إلى اللقاء.

أفضل الهاتف ومن بعده الكتاب، لن يستطيع أن يقرأ أكثر، لقد حلّ
الهار دون أن يلاحظ، لقد أرعى عليه التعب إزاره، وزاد ألم رأسه الذي
...م يفارقه منذ الصفحة الأولى، أعاد صندوق الأسرار إلى ما كان عليه،
...أعاد ترتيب المختبر، ثم توجه إلى غرفته وملايين الأفكار والأسئلة
...لاطم كموج البحر، ممرضة شافي، خلل بالجهاز العصبي؟ ممرضة
...م. سنّ الثالثة، أنا سليم جسديًا وعقليًا، ما كلّ هذا؟ وما إن وصل إلى

سريره حتى غطّ في ثبات عميق لم يستيقظ منه إلا على صوت والد
الذي أتعبه النداء وقرع الباب الذي لم يتوقف، فنهض مذعورًا، فتح
الباب وعاد وألقى بنفسه على السرير..

- ما بك يا شافي، هل أخفّتك؟ أنا آسف.

- لا يا أبي، ظننت آتي أحلم.

- لا عليك، هيا تعال لتناول الغداء.

جلس على حافة السرير ومرر يده عابثًا بشعره مستعيدًا ما فقدّه،
ذاكرته.

- آه نسيت، يجب أن أبلغك شيئًا مهمًا، صديقتي مايا وجمعت
دعوة لحضور حفل موسيقي بمسرح المدينة وأصرّت على حضورك،
هل ترافقني إن كان الأمر لا يسبّب لك أي إحراج؟

- بالطبع، أنا أعشق الموسيقى، كنتُ أواظب مع أمك على متابعة كل
حفلات دور الأوبرا في أمريكا، وبعد قدومنا إلى هنا أيضًا، أما بعد مونها
فلم أرغب في الذهاب وحيدًا، لكن بما أنك وصديقتك هناك، فلا مفر
من الذهاب كي أحميها منك.

13

ملى باب المسرح كانت تنتظر بشوق وشغف، فلطالما تمنّت أن
• ف على والده الذي كانت تتوق إلى حضوره ربّما أكثر من شافي
• ذلك العالم الغدّ الذي بقي بعيدًا عن الإعلام رغم مطاردة وسائلها
• وعه له، أما قصة استنساخ ذلك المهر الجميل فلم تفارقها منذ ذلك
• وم، وبات كل أملها أن تتلمذ على يديه وأن تصبح يومًا زوجة ابنه
• حيد، لم يطلّ انتظارها، ها هو شافي قد أقبل، مدّت يدها مصافحة له
• ماها خلقه ترقب دخول والده، ثم سارعت بالقول:

أهلاً شافي، سعيدة بحضورك، لكن أين البروفيسور سالم؟

إنه يعتذر لك عن عدم الحضور، لقد شعر ببعض التوعك قبل
• منا بقليل.

أكمل بصوت يلقه بعض الحزن:

• علّه قد تهرب من مواجهة الذكريات، فأخر عرض موسيقي حضره
• مع أمي قبل وفاتها بأسبوع، لقد حضرت معه رغم مرضها الشديد.

أسرها ذلك الحزن في عينيه وخفف من خيبتها.

- لا عليك يا شافي، للأهل دائماً عالمهم الخاص الذي لا يوحون لأحد، تعال الآن لتأخذ مكاننا قبل بدء الحفل.

فُتِحَ الستار وظهرَ والدمايا واقفاً ببذلته السوداء الأنيقة وعمد الصغيرة، وخلفه وقف نعمة، بينما جلس باقي أعضاء الفرقة في أماكنهم.

صُعِقَ شافي من المشهد، حملَ الدفتر وقرأ اسم المعزوفة «الرحله» التأليف الموسيقي «نعمة»، عزف الفرقة السيمفونية.. سأل مايا بصوت مدعور:

- من هذا يا مايا؟ من يكون؟ قل لي لي بحق السماء!

ضحكت بصوت منخفض وهمست له قائلة:

- لا تخف، بالتأكيد لست أنت، إنها المفاجأة التي حضرتها لك، إيه نعمة.. شبيهك! وهو أحد أعضاء فرقة والدي، اسكت الآن كي نستمتع ونستمع بما كتب ولحن، إنه عبقرى كما أخبرني والدي، وأنا أتوق شوقاً لتذوق ما سيعزف.

سافرت هي مع أنغام نعمة، أما شافي فسافر مع الشبه الذي يجمع بينهما، مع ما قرأ، مع تجارب والده، مع ذاك المهر، مع تلك الأنغام، إيه يعرفها جيداً، تلك النغمات موجودة فيه وليست بعيدة، إنه يعرفه أيضاً، إنه هو وليس فقط مرآته.

- يا الله! هل يُعقل أن يكون هناك شبه بين البشر إلى هذا الحد؟ هل يحدث هذا دون أن تنقسم تلك البويضة وتنشط لتخرج توأمين

سن؟ هل أحلم؟ هل أنا موجودٌ هنا أم هناك على المسرح؟ ماذا
تت معي؟

أهـ تصفيق الجمهور صراعه ذلك، دون أن يخرج من دوامة ما
ي، راقب نعمة بتمتّن وهو ينحني ويداه ترتجفان، وقائد الأوركسترا
إليه بفخر وإجلال، أنساه ذلك كل ما حوله، إلى أن هزّت مايا ذراعه،
له من ذهوله من روعة ما سمع ومن شعوره المتقلب بين السعادة
الآن.

شافي ما بك؟ هل أنت بخير؟

قال بغفلة منه:

أسف لم أسمعك، أريد أن أخرج من هنا قليلاً، أشعر بالاختناق.
حسنًا تعالّ معي نتناول شرابًا باردًا ثم نعود.

جلسا على البار في بهو المسرح، وأكملا حديثهما وسط أنفاس
المتسارعة وقلق مايا الذي دفعها إلى احتضان يديه بشدة، محاولةً
و الطرق الاعتذار إليه، والتخفيف عنه، والاطمئنان عليه.

أنا حقًا آسفة، كان عليّ أن أخبرك سابقًا، لكن أردت أن أفاجئك،
هم مشاعرك، وقد حدث معي الشيء نفسه، عندما رأيته لأول مرة.

من يكون؟

إنه موسيقيّ عبقرّي، لكنه يعاني خللًا في جهازه العصبي، ما
تمونه بالتوحد، درّس الموسيقى وتخرّج في معهدها العالي، ونتيجة

لموهبته وإبداعه عرّض عليه والذي الانضمام إلى الأوركسترا، وما باختصار يتكلّم عن نفسه، شابّ مكافح، تحدّى مرضه وفرض نفسه على مجتمعه بالقوّة رغم الخجل والانطوائية اللذين يحيا بهما.

حاول شافي إخفاء تأثره، ابتلع ما تجمّع في روحه من حنّ وألم وبصوتٍ خافت ردد مرارًا:

- هذا رائع يا مايا، ربّما كنتُ محظوظًا لشبهي به، ربّما كان له،
لعبيرة ما أجملها، وسأحاول جاهدًا أن أعرف ما هي ولماذا أنا تحديدًا؟
قاطعتُهُ وهي تهلل:

- إنه هنا يا شافي، تعال نلّق التحية عليه قبل أن يرحل.

أخذته من يده ومشت خلفَ نعمة مسرعة الخطى وهي تناديه:

- نعمة.. نعمة.. انتظر قليلًا، عندي لك مفاجأة جميلة!

توقف نعمة واستدار في مكانه، سرعان ما فتح فاه وتراجع خطواته إلى الوراء، انتابهُ دوارٌ غريب قطع عنه الهواء، أشار بيده إلى مايا ومن ثم إلى شافي، بينما أشار شافي إليه وإلى ذاته دون أن ينطقا، كذلك مايا الر وقفت بينهما مصدومة يلقها الصمت، طولٌ متطابق، التفاصيل نفسها، حتى أدقها، بنية جسدية واحدة، ملامح الوجه متطابقة، الشعر ولو العينان ولونهما، إنهما واحد يقف كلّ منهما أمام مرآته.

حاولت كسر هول ما يجري، توجهت إلى نعمة بالتهنئة:

كنت رائعا يا نعمة، مبروك عليك هذا النجاح، أقدم لك شافي،
ابهي الذي أخبرتك عنه.

امط كلمته الأولى بعد حين:

اهلاً بك.

بخيل شافي أنه تكلم وترددت أصداؤه صوته في أرجاء المكان.

لا، هذا مستحيل يا نعمة.. إنك نسخة مني، أنت مبدع، مبروك لك
جاح، أنا سعيد بمعرفتك.

اخترق صوته مسامع نعمة كهمس نفسه، إنه صوته هو، وبتوترٍ ظاهر
رغب عليه أن يخفيه، أنهى حيرته وما يحدث مقرراً الهروب من هذا
الشهد الخرافي.

اعتذر.. عليّ أن أذهب، والدتي بانتظاري.

تركهما وخرج مسرعاً، هز شافي رأسه معيداً نفسه إلى أرض الواقع:

مسكينٌ نعمة، لقد أرهقته الصدمة وأضاعت عليه لذة النجاح.

- أنت محقّ، فهو لا يحب المفاجآت ويتجنب لقاء الغرباء، أنا حزينٌ
لهذا، كان عليّ أن أتدارك الأمر، أن تقف أمامه كمرآته فهذا سيؤثر على
مسيرته دون شك، ربّما لن يتقبل أن يكون هناك من يشبهه وقد قال لي
سابقاً.

تساقطت دموعها فوق وجنتيها الورديتين دون أن تشعر، اقترب منها شافي رغم ما هو فيه، ومسح دموعها بأنامله المرتجفة، محاولاً تخفيف شعورها القاتل بالذنب:

- لا تحزني يا مايا، سوف يخرج من أزمته هذه بكل تأكيد، فمن كتب هذه الأنغام الرائعة وواجه الجمهور، لن تقوى عليه أزمة عابرة كهذه، رغم أنني أقدّر شعوره هذا وأعاني ما يعانيه، وربما أكثر، لم أتخيل يوماً أن أقف أمام أحد يقاسمني ملامحي بتفاصيلها حتى نبرة صوتي، إن هذا غريبٌ حقاً!

14

لَمْ تُعُدْ إِلَى مَنْزِلِهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، لَقَدْ قَرَّرْتُ أَنْ تَبْقَى مَعَهُ بَعْدَ أَنْ غَفَا
، فِي حَضْنِهَا كَالطِّفْلِ الصَّغِيرِ، هَكَذَا اعْتَادَ أَنْ يَفْعَلَ عِنْدَمَا كَانَتْ تَهَاجِمُهُ
، بَاتَ الْحَيَاةَ بِمَا تَحْمَلُ مَعَهَا مِنْ جَدِيدٍ وَغَرِيبٍ وَمُؤَلِّمٍ، تَوَثَّرَ كَثِيرًا عِنْدَمَا
أَحْبَرَهَا كَيْفَ وَقَفَ أَمَامَ ذَلِكَ الْغَرِيبِ شَافِي، الَّذِي يَقَاسِمُهُ نَفْسَهُ وَجَسَدَهُ
، بِفَاصِلِهِ، وَحَتَّى نَبْرَةَ صَوْتِهِ وَلَوْنِ عَيْنَيْهِ:

- خَفْتُ كَثِيرًا يَا أُمِّي، شَعَرْتُ كَمَنْ يَسْقُطُ فِي هَاوِيَةٍ لَا قَرَارَ لَهَا، مَنْ
هَذَا الْغَرِيبِ يَا أُمِّي؟ بَعْدَ تَجَنُّبِي لِقَاءَ الْغُرَبَاءِ، بَعْدَ عَزْلَتِي، اَلْتَقَيْتُ بِهِ هُوَ، بَل
، أَنَا، لَمْ أَعُدْ أَسْتَطِيعُ التَّفْرِيقَ بَيْنَنَا.

- الْبِشْرُ يَتَشَابَهُونَ يَا صَغِيرِي، لَقَدْ عَرَضُوا مِنْذُ مَدَّةٍ قَصِيرَةٍ بِرَنَامِجًا
لِلْفَرْيُونِيَّةِ فِيهِ أَشْخَاصٌ يَشَبُّهُونَ آخَرِينَ عَالَمِيِّينَ وَمَشَاهِيرَ، وَفِي بَعْضِ
الْأَحْيَانِ يَسْتَعِينُونَ بِهَوْلَاءِ النَّمَاذِجِ الْمُتَطَابِقَةِ كِبَدِيلٍ لِتِلْكَ الشَّخْصِيَّاتِ
الضَّلِيلِ الصَّحَافَةِ أَوْ لِتَمَثِيلِ مَشَاهِدِ سِينِمَائِيَّةٍ خَطِيرَةٍ.

اِخْتَرَقَ الْخَوْفُ قَلْبَ مَلَائِكَةٍ أَيْضًا بَعْدَ مَا سَمِعَتْ، كَانَتْ خَائِفَةً مِثْلَهُ
، غَمَّ مَحَاوَلَاتِ طَمَآنَتِهِ تِلْكَ.

«يا إلهي! هل سيظهر له عائلة وأقارب؟ ربّما كان هذا الشاب،
أفراد أسرته؟ ربّما سيستعيدونه ويعدونه عتي؟ إنّي حقًا قلقة، ولا يتجرأ
الخوف الذي أشعر به عن خوفه».

أبقت تلك المخاوف دفيئة قلبها، راحت تضحك معه على تلك
المفارقة محاولة أن تأخذه إلى مكان آخر أكثر وضوحًا وهدوءًا.

- انسّ موضوع ذلك الغريب، ربما سيكون بديلًا لك عندما تداهمك
أضواء الشهرة..

ابتسم غير مبالي بما سمع.. شعرت هي بذلك، أحسّت أن قصة شبيهه
قد سرقت من فرحة نجاحه، فسارعت إلى سؤاله:

- أخبرني كيف كان المسرح؟ هيا أخبرني، أتوق إلى سماع شعورك
وأنت تستمع إلى تصفيق الجمهور.

ابتسم بحزنٍ محاولاً هو الآخر تخطي قصة الغريب:

- رغمّ كرهه للتصفيق إلا أنني استمتعتُ به، حاولتُ تجاهله
دون جدوى رغمّ توترتي الذي سيطر على كياني، كانت تجربة مخيفة،
ارتجفت يديا وقدماي، كان قلبي يطلب مني الرحيل والمغادرة،
وعقلي يحترّضني على البقاء والصمود، عشتُ صراعًا مريزًا يا
أمي، لكن في نهاية المطاف تغلب نداء العقل على صيحات قلبي
الضعيف، وغمرَ تصفيق الجمهور مخاوفني من الفشل والسقوط،
كنتُ قلقًا من مازن، خفتُ أن يخذلني، لكنّه تصرّف باحتراف،

اسيًا مشاكله معي، والتي اختلقها ليثير حزني وقلقي قبل الحفل.
ع عليه بمحبة قائله:

يا طفلي ما قدمته الفرقة كان رائعًا، لقد تساقطت دموعي دون أن
أمر، إنه مجهودك أنت، كم أنا فخورة بك، وكم هو جميل ما كتبت
عرفت.

- حقًا؟ بالنسبة لي لم أستمتع بأنغامي قط، فخوفي وحرصني على
إساءة كل أفراد الفرقة قتل متعتي، وبثُّ أترقب وأستقبل ما يُقدَّم كمستمع
إساءة لا كعازفٍ وكاتب.

أجابته وهي تربت كفيه التي احتضنتهما بكفَّيها، والابتسامة تعلق
جبهها الفخور به:

- إنها تجربتك الأولى وهذا أمر عادي، الوقتُ كفيلاً بأن يُدلَّل هذه
العقبات من أمامك، المهم أنك قد أنجزت مهمتك باحتراف، لو كنتُ
مكأنك لسقطتُ قبل أن أبدأ.

على نبرة صوتها الحنون غفا رأسه في حضنها، بينما أناملها تداعب
شعره بلطف.

«مسكينٌ أنت يا نعمة حياتي، يجب أن تقوى على مفاجآت الحياة
وحدك، على ما يبدو أنني لن أبقى طويلًا بقربك، ربّما ستعيدك الحياة
إلى من فقدوك.»

مَسَّحَتْ دموعها وغفت هي الأخرى على وسادة قلقها وخوفها .
الغند المقبل، ومن المجهول المتربص بانتصارهما على ذلك المرض
أو الخلل الدماغى الذى كان من الممكن أن يشلّه كما الكثير من أمثاله
فى هذا المجتمع المريض .

ذلك اللقاء هزّ كيانه وطرح أمامه أسئلة لا نهاية لها.

غريب هذا الإنسان، يعتبر نفسه متفردًا متميزًا وتراه أحيانًا أخرى
 أمام حقيقة الوجود عاجزًا عن اكتشاف سرّ واحد من أسرار هذا
 الكون الأشدّ غرابة، وأنا شخصيًا أجد نفسي أحيانًا متشككًا غير مؤمن
 بحدود خالق لهذا النظام متناهي الدقة الذي نعيش فيه، وأحيانًا أخرى
 أجد احتضان الله لي عندما أرى معجزاته في تركيب هذه الأجسام
 المجهرية وكيف تسيّر بنظام يفوق أو يشابه نظام الكون دقّة، وألومه
 أحيانًا سائلًا إياه لماذا بعد أن جاوز كلّ شيء أبقاني وحيدًا؟ وأحيانًا
 أخرى ألقى اللوم على أبي لأنه أبعثني عن الله وعن الإيمان به، يريد
 أن يصنع مني صورة مصغرة منه، حتى بما يتعلق بروحي أنا، يريدني أن
 أؤمن مثله بالعقل البشري رغم إحساسي الذي لا يخطئ بأنه ما زال في
 داخله يعيش صراعًا مدمرًا بين التصديق والنفي، وأجده أحيانًا يتحدى
 حالقه، وأحيانًا ينحني أمامه عند فشله وإدراك عجزه ومحدودية تفكيره
 أمام تلك الأسرار التي لم ولن يستطيع بعقله المحدود أن يدركها رغم
 ذلك ما وصل إليه من مراكز وعلوم، ربّما استطاع أن يستحضر الحياة،
 لكنه لن يستطيع أن يبعد الموت، ولن يستطيع أن يُعيد الأنفاس والنبض
 لمن فقدهما.

شلة التعب ولم يكن مزاجه حاضراً للمزيد من العقد والأسرار، فسارع للخلود إلى النوم.

بعد ساعات أشرق صباحه حاملاً له بداية جديدة، وكان لقاء الأمل مع نعمة مجرد حلم من أحلام أمسية غريبة التفاصيل مع مايا، هي أيضاً كانت بالنسبة له حلماً جميلاً آخر، وأن يمضي معها أمسية بأكملها ويستمتعا معاً بالحفل الموسيقي ويتحدثا حول أشياء أكثر خصوصية. تلك المواضيع العامة التي كانت تجمعهما، كان هذا في حد ذاته حلماً تحقق وإنجازاً لا يعوّض.

بينما هما على مائدة الإفطار، كسر والده الصمت سائلاً:

- قل لي يا شافي كيف كانت أمسيتك؟

- ممتعة، كنا نتمنى حضورك، في المرة القادمة لن أقبل أي أعذار، لقد كان الجميع بانتظارك، خاصة مايا.

- آسف حقاً، أعدك بالآأ أخذلك وصدقتك من جديد.

- لا عليك، فأنا أقدر مشاعرك واحترمها.

أراد أن يخبره بقصة نعمة، لكنه قاطع حديثه:

- نسيت أن أخبرك، سأسافر اليوم إلى العاصمة لأقابل أحد الأصدقاء، وسأبقى هناك إلى بعد غد.

- جيد يا والدي، استمتع بوقتك، سأحاول أن أنهي تحضير البحث، ربما تمكنا من بدء العمل بعد عودتك.

أعدت كانت هذه السفرة فرصة مناسبة له ليكمل قراءة المذكرات، دون
واج أو خوف من اكتشاف أمره.

• زنه نهاره بطيئاً مملاً إلى حين سفر والده، بعد أن ودعه عاد مباشرة
• إلى مختبره، إلى عالم والده السري من خلال ذلك الكتاب ليقرأ بين
• محامته ما خفي عنه.

• نابتت مرضة شافي لعدة أيام، حاولت أن أستفيد من فرصة
• حراج بويضة حديثة الإباضة، تعمدت دخول حمام غرفتها يومياً باحثاً
• في سلة القمامة هناك، متتبعاً توقيت دورتها الشهرية، إلى أن تأكدت من
• عدم المناسبات.

• دون أن يلاحظ أحد من خدم المنزل، وضعت لها المنوم في كوب
• الحليب الذي تتناوله قبل النوم، وبعد منتصف الليل حملتها إلى المختبر،
• الغيتها على السرير بعد أن نزع ملابسها الداخلية، غصت بين ساقها،
• أحلت التي لا تلتقط أول بويضة بشرية بنفسها. في مختبراتها في بلاد
• العرب، كنا نتلقى ما نريد من بويضات من مختبرات وعيادات الأطباء
• المسانين ومراكز التخصص، حيث هناك الكثير ممن يخضع للفحوص
• الطبية، فتستأصل بويضاتهن بموافقتهن لتحليلها، أو بذريعة زرعها
• ، ناقبحتها تجربة أطفال الأنابيب، وأحياناً يأخذونها منهن دون علمهن،
• ، فإن هناك أيضاً بعض النساء ممن يعين بويضاتهن تلك لعيادات الأبحاث
• ، مايل القليل من المال كما هو الحال في بنك الحيوانات المنوية.

• بعد حصولي على ما أريد وحفظه بسائل حمضي خاص في مبرد
• المختبر في درجة حرارة تمكنها من الحياة إلى حين الاستعمال، عدت

لتنظيف جسدها، كنتُ متوتراً جداً، الساعة تقارب الخامسة، مرة، استيقاظ الخدم، حملتها بحذرٍ وأعدتها إلى غرفتها، ألقيتها على السرير، وضعت الغطاء عليها، عدتُ إلى مخبري وكان شيئاً لم يكن.

- ماذا؟ هذا والدي؟ تباً، هذا خطُّ يده، هو من كتبَ هذه المذكرات، لكن لماذا فعلَ كلَّ هذا؟ ماذا يريد؟ من سيستسخ؟ أمي ماتت وهي مريضة. إن كان يريد استنساخها لحصل على جنين مريض أيضاً، وستكون أعضاؤه بصلاحيه عمر الجسد المأخوذة منه تلك الخلية المستخدمة في الاستنساخ، وإن كان هدفه استنساخ أطفال فأنا هنا، ماذا عساهُ فاعلاً؟

عادَ إلى الكتاب يبحث عن أجوبة تلك الأسئلة.

وبعدَ هذا المجهود، حدثَ خللٌ ما لم أستطع تداركه أو تحديداً مصدره، لقد قمْتُ بكلِّ ما اعتدتُ القيام به في تجاربي السابقة، أفرغْتُ البويضة من نواتها، أدخلتها مرحلة التجميع المحددة في محيط لا تأخذ منه أكثر من حاجتها إلى البقاء، ثم حقنتها بنواة الخلية، لقد تفاعلا معاً بعد تلك الموجات الكهربائية الخفيفة مدروسة القوة التي عرضتهما لها، وبعد أن بدأت بالانقسام وسارت دورة الحياة في مكُون تلك البويضة كما يحدث عادة، بقيتُ مسمراً الساعات في مكاني وعيناي على المجهري أراقب هذا الجنين المجهرتي، وأصل انقسامه وأصبح أربعة أجزاء وما زال يتحرك، فجأة، لا أعرف لماذا، انتهى كلُّ شيء، وتوقفت الخلية عن الانقسام.

اهد ماتت وفقدت دورة الحياة التي تحركها، أحبطني هذا طبعًا دون
١. حل اليأس إلى قلبي، عقدت العزم عندها على إعادة المحاولة من
١.١. في السابق أعدنا محاولة استنساخ تلك النعجة 276 مرة، إلى أن
١.٢. في النهاية.

السؤال الآن من أين سأتي ببويضة جديدة؟ ممرضة شافني طلبت
١.٣. وستعود بعد أسبوع، عدا ذلك فلن أستطيع إعادة المحاولة معها
١.٤. فمن الصعب أن تصدق بعدها أن ما تشعر به من ألم مجرد عارض
١.٥. حتى مفاجئ، لم يبق أمامي سوى زوجة البواب، سارعت إليها طالبًا
١.٦. ما نظيف المكتبة بعد أن أرسلت زوجها في سفرته طويلة بعض الشيء
١.٧. هنا بها عدم عودته قبل إنهاء المهمة. رحلت أراقبها وعندما شارفت
١.٨. على الانتهاء من عملها، توجهت إلى المطبخ وأعددت لها كوب شراب
١.٩. د. ولم يفتني أن أضغ ذلك المنوم فيه، أحضرته إليها وسألته أخذ
١.١٠. نراحة قصيرة، وما هي الإذقات حتى استسلمت للنوم، حملتها إلى
١.١١. حنبر وأجريت عملية استخراج البويضة بنجاح، أعدتها إلى غرفة
١.١٢. حنبر وأجلستها على أحد المقاعد، ثم استلقيت على مقعدي من
١.١٣. يد. وأخذت قيلولته ما بعد الظهر، إلى أن استيقظت على صوتها وهي
١.١٤. حنبرني بأنها قد أنهت عملها.

سيدي، لقد انتهيت من تنظيف المكتبة، هل تسمح لي بالانصراف،
١.١٥. أنا أشعر ببعض التوغمك؟

١.١٦. بالطبع، وشكرًا لك مجددًا.

أغلقَ شافي الكتاب بغضبٍ وقبضَ عليه بشدّة..

- أي نوع من البشر والدي هذا؟ أشعر بعثيانٍ شديد، ولماذا نأ
تلك الممرضة تعني بي؟ يجب أن أبحث عن سجلّاتي الطبيّة واد
طبيبي وهويّة تلك الممرضة، الغريب في الأمر أن تلك الحقبة من عم
قد مُسِحَتْ تمامًا من ذاكرتي، حتى من المستندات والملفات الخام
بي، لا أملك منها سوى تلك الصور القليلة والنادرة مع أمي والتي أُه
على أصابع اليد، يا إلهي ما هذه الدوّامة التي أعيشها؟

هل أنا حقًا محظوظ أم أن لعنة القدر قد حلّت عليّ وأوجدتني م
هذا المكان وهذا الزمان؟ في مجال العمل هذا الذي تجول فيه الشياطين
والملائكة حُرّة طليقة دون قيود؟ لالّن أحتمل المزيد، رأسي يكادُ ينفجر
سأصعد إلى غرفتي لأرتاح قليلًا.

أعاد كل شيء إلى مكانه، وغرق في صمّته رهيبٍ وغريب، ف
يحدث يفوق قدرته على الفهم، وما يجول في خاطر هذا العالمِ الممجور
أصعب من أن يتخيله، وما يدور حوله من تغيّرات يشبه الدوّامة التي
لا تتوقف عن الدوران، ربّما هو نفسه ليس نفسه، ربّما هو أحد آخر،
ومن يدري؟ فصوت نعمة وموسيقاه ما زالوا يجولان في فكره وروء
الفارغة.

16

«تكف في قوقته رغم نجاحه وتلك الأصداء الإيجابية التي حققها، أصبح حديث الصحف التي كتبت عن تميزه تحت تلك الصور التقطوها له خلال الحفل: «نجمٌ صغيرٌ يستعد للانطلاق في سماء «سبقي»».

لم يُبدد اتصال أستاذه مهنتاً إياه على نجاحه وإقدامه وكسره حواجزه همة التي كانت تؤرقه وتصادر فكرة إثباته لذاته، شيئاً من حزنه الذي يمتلكه، دون أن يعلم أسبابه، هل تلك الأضواء التي سُلِّطت عليه «سبقي» وعلى حياته الشخصية التي لم تعد ملكه وحده هي السبب؟ «سبقي» أن تناول تلك التفاصيل يشعره بالخجل، كان يخشى معرفة الجميع لمرضيه وإعلان هذه الحقيقة على الملأ، كان يخشى تناول سوع جذوره التي لا يعرف عنها شيئاً، فهو في مفهوم المجتمع ليس «سبقياً» فحسب، بل لقيطاً أيضاً، كان يخشى كل ذلك حتى في ظلمته، «سبقي» الآن وقد أصبح مركز الأضواء وحديث المجتمع!

وأكثر ما يخيفه أن حياته بدأت تكبر وتوسع وتفتح على جميع الاحتمالات، سيدخلها غرباءٌ أكثر ووجوه جديدة ولن يكون له خيار

رفضها أو قبولها، كان مرضه العصبي يشعره دائماً بعدم قابليته للاندماج في أي ظروف أو مجتمع أو أماكن جديدة، فطالما شبّه ذلك العالم الخارجي بالبحيم.

كان أستاذه قد أعطى الفرقة الموسيقية وكل من شارك في الحفل ومهر التحضيرات إجازة لمدة أسبوع، استراحة قصيرة وتحضير نفسي لهما الموسم المقبل، إلا أنه لم يكتفِ بتلك الأيام القليلة، ما زالت نفساً مشتتة، وروحه تأبى تلحّف السكون، هذا الضغط الذي وضع نفسه عليه كان أكبر بكثير من إمكانيات شخصيته التي ما زالت في طور النمو.

هاتفه كان مقلّلاً كالعادة، لهذا لم تتمكن مايا من التواصل معه، كان قلقه عليه بعد ذلك التأثير الذي أبداه عند لقائه بشافي، لم يكن أمامها سوى إدارة المركز التي زوّدتها برقم المساعدة الاجتماعية التي تعني به.

بعد توّصلات مايا ومحاولات ملاك العديدة الضاغطة عليه، وادم أخيراً على زيارتها له، حملت له الورد، ووقفت عند باب شقته الصغير، فتحت لها الباب مرحباً بخجل، دخلت أخيراً إلى هناك، جالت بعينها في أرجاء المكان حيث يسكن هذا العبقرى، مكانٌ بسيط لا يحتوى الكثير من المقتنيات، منظم بطريقة تساعد على إيجاد كل ما يحتاج دون مجهود ودون بحث، ليست هناك خزائن ولا أدراج، كل شيء مفتوح واضح المحتوى، إلا تلك النوافذ المقفلة والستائر المسدلة التي يخترقها بصعوبة بعض من ضوء النهار، الأنوار كانت مضاءة جميعها، علّه يستعيضُ بنورها الهادئ الذي يساعد نفسه على السكون عن نور

مس المفعم بالحياة، قُرب السرير في آخر الغرفة وضع منضدة عليها
، رف له مع امرأة، ربما هي أمُّه التي أخبرها عنها، وأخرى مع أصدقائه.

نفضلي يا مايا، هذا بيتي المتواضع.

إنه جميلٌ جدًّا، أمل ألا أكون قد سببتُ لك أي إزعاج.

لا، مؤكد، أنا فقط أستمتع بفترة استراحتي بعد الحفل.

أجل أنت تستحقها، ما قمتَ به كان إنجازًا رائعًا، خصوصًا أنها
..، نك الأولى.

قال بحزن شديد:

.. وربما ستكون الأخيرة.

صعقها ما سمعت:

.. ماذا؟ لا يا نعمة أرجوك، ما هذا الكلام؟

صمت من جديد ولم يجد ما يقوله، أكملت هي حديثها محاولةً شد

مر بهته:

- نعمة، لقد وعدتني أن نكون أصدقاء، أرجوك أن نفي بوعدك، افتح
لي أبواب قلبك الذي أشعر باليه، أرهقني الوقوف على عتبه غير قادرة
على اجتيازها، أرجوك يا نعمة افتح لي الباب، أرجوك، دعني أدخل
الملك، سمّني ما شئت.. أختًا، صديقة، أي شيء تريد، لكن لا تتخذ
مراعاتك وأنت متعب.

أجابها بصوت منخفض قلق:

- حتى إن دخلتِ، فلن تجدي هناك سوى الفراغ.

- أنت الوحيد الذي يرى فراغ نفسك، أما بالنسبة لنا فهي جنة.

بعالم غريب من الأنعام، عالمٌ ساحر جميل.

بنبرة متقطعة يعصرها الحزن قال:

- لن أقوى على مصاعب هذه الحياة، سأشّل، سأموت، كل ما بدأ.

حولتي يختفني، إنه ليس مكاني، من الممكن أن أكتب الموسيقى لكن.

أعزفها مجددًا، لن أقف أمام مازن والآخرين، لن أكتب اسمي عليها،

أكون على خشبة المسرح، إنه ليس مكاني، مكاني هنا! في هدوني.

نفسي، فذلك الضغط سيقتلني حين أستفزّه وأجبره على المضي مع نيا.

الحياة بصخبها الذي لا يتحمله.

- إذن كما تريد، اكتب موسيقاك وتدرّب عليها، لكن قرار عدم

المواجهة دعه إلى وقتٍ آخر، أتعرف يا نعمة كم طفلًا متوحّدًا ينظر إليك

كخشبة خلاص لما يعانیه؟ أتعرف عدد الآباء والأمهات الذين جعلتهم

يحلّمون بمستقبل جميل لأولادهم المتوحدّين بعد يأسٍ وقنوط؟

لقد جعلتهم يحاربون من أجلهم ويؤمنون بهم رغم قسوة المجتمع

والظروف عليهم، أتعلم كم أمتعتُ نغماتك نفوسًا حزينة فاقدة للأمل؟

لم يُعد يا نعمة ما تملكه ملكًا لك، لقد اختارك الله لتكون نعمة لكل فاقدا.

نعم الحياة رغم وحدتك وحزنتك، أنت كالشمس يا نعمة، فلتكن كذلك

أهل الآخرين، حارب من أجل الرسالة التي حملت، رسالة مرضك
أحك، أعرف أن هذا الحمل ثقيلٌ عليك، لكن جميعنا معك، ولن
نتردد، وحيداً، جميعنا إلى جانبك، جميعنا نحتك.

لكن لن أكون يوماً كشافياً مهما حاولت، لديه عائلة وأصدقاء، ولذ
نجرّة لها جذور، أما أنا.. فليس عندي حتى اسمٌ ثانٍ ولا ثالث، نعمة
ط

أدركت أنها قد أقدمت على خطأ فادح، ما كان عليها أن تجمعهما
١٠. بالتأكيد هي المسؤولة الآن عما يشعر به من إحباطٍ وحزن.

أنعلم أنك تشبهه؟ لقد ماتت أمه وهو صغير، رعاؤه والده في أجواء
مربة بعيدة عن أي حياة اجتماعية، ليس لديه أي أقارب أو أصدقاء،
م. جن في عالمه الخاص أيضاً، يملاً وقته وأيامه بالعمل كي يتناسى
أهمه، مثلك تماماً، لا تخذعك مظاهر الحياة، هناك الآلاف ممن يفرقون
من أحضان من حولهم وهم في داخلهم غرباء حتى عن أنفسهم.

رفع نظره إلى وجهها مراراً، متحدياً عينيه الهاربتين من مواجهة
الحياة، ثم ارتسمت على شفثيه ابتسامة غريبة، لا تشبه سابقاتها، توجه
النافذة، فتح الستائر ثم سألها:

أساعدني في تحضير القهوة؟

استيقظ باكراً، ثم نزل مسرعاً إلى المختبر ليكمل قراءة فصول ذلك الكتاب الشيطاني، كان يلاحظ مشاعره تلك وهي تتحول وتبلور . الحب والكراهية وبين القبول والرفض، وكيف بات ذلك المختبر سه تعشعش فيه العناكب المرعبة بعد أن كان حديقة يحلم بأن يحول به الألم إلى فرح وشفاء.

وأحضرتُ خلية جديدة وأعدتُ زراعة البويضة، وكُلِّي أملٌ بأن أتخطي تلك العقبة التي واجهتني سابقاً، بعد اجتياز الزرع أيامه الأولى بسلام، وبدء البويضة بالانقسام، اجتزتُ أنا أيضاً الكثير من القلق الذي كان يساورني، شعرتُ بأنني بُتُّ أملك زمام اللعبة، إلا أن القدر كان أرب بالمرصاد، لقد توقفت الحياة فيها فجأة دون أسباب، وتلك الخلايا التي أخذت تُزاحم بعضها بعضاً تنقسم وتتكاثر راسمةً بداية ملامح شيء، خبا نبضها، إنه الموت مرة أخرى..

آه من مرارة الفشل، لكن لن أدع شيئاً إطلاقاً يحبط عزيمتي، لفا تفككت البويضة بعد عدة أيام من الانقسام وهذا جيد، الجنين السام، فقد الحياة والحركة بعد ساعات، هذا يعني أنني أتقدم وأنتي سأنجح.

١٠٠. من أين سأحصل على تلك البويضات إلى حين نجاحي؟ وبعد
١٠١. طويلاً وصلت إلى قرار نهائي، سأرسل شافي مع من في المنزل
١٠٢. ..لقد فتنا في المدينة، وسيبقى لي المكان هنا، لأعمل وأستمتع فيه
١٠٣. في دون رقيب أو حسيب.

هكذا إذن.. لهذا السبب انتقلنا إلى المدينة، ومن هذا الذي أخذ
١٠٤. الخلايا؟ من المؤكد أنه واحد من سكان هذا المنزل؟ واحد منا
١٠٥. ..سسخ.. هو أم أنا؟

ماد إلى الكتاب..

١٠٦. تاريخ جديد... وأخيرًا نلتُ حريتي، اليوم سأبدأ بحثي في المدينة
١٠٧. ..أحتاج إليه. بعد أن أسدل الظلام ستاره انطلقتُ في الشوارع أفتش
١٠٨. ..صالتي، ووجدتهن يبحثن عني أيضًا من أجل التقود، ما دام عندي ما
١٠٩. ..، إذن يحق لي أن آخذ منهن ما أريد، لم أجروا على طلب حاجتي
١١٠. ..أحده ووضوح، كان عليّ أن أتبع أسلوب المراوغة الذي يفضلنه، هُنَّ
١١١. ..جن ليعرن شيئًا ما ولا يعلمن عما يبحث الآخرون فيهن، كلُّ مشترٍ
١١٢. ..بحث فيهن عن ضالته، المتعة، إيجاد الذات، ملء الفراغ العاطفي، أو
١١٣. ..المثلي يبحثون عن سر الحياة.

١١٤. إليها الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عبرتُ على بعضهن، كنتُ
١١٥. ..بحث في وجوههن عن شيء ما، وفي أحشائهن عن شيء آخر، إلى
١١٦. ..مع اختياري أخيرًا على إحداهن، أوقفتُ السيارة، فتحتُ الزجاج
١١٧. ..ادرتها بالسؤال:

- هل تذهبين معي؟

- علاقة كاملة؟

- أجل.

- كم ستدفع؟

- كم تريدین؟

- مئة دولار، تعيدني إلى منزلي عندما تنتهي والدفع مقدّمًا.

- موافق، اصعدي.

بعد أن دخلنا المنزل طوقتني بالعناق والقَبْل، لكن قلقي صرفني نحو راحة تنزع ملابسها شيئًا فشيئًا، لقد أثارتنى إثارة لم أشعر بها منذ طويل، إلا أن تفكيري كان منحصرًا بما أريده منها، استأذنتها لأعد كاس من الشمبانيا، حيث وضعت المتوم في إحداهما وحملتني إليها، أخذت من يدي وارتشفت بشغف وعلى عَجَل، اختصارًا للوقت والمجهود، تمضى سوى دقائق حتى استلقت على الأريكة مستسلمة، حملتها إلى المختبر حيث حصلت على ما أريد، وعدت بها إلى الفراش.

أعددت قهوة الصباح وتوجهت بها إلى مختبري، أتممت العدا بنجاح، وجلستُ أرتشف ما تبقى منها. كنتُ مرتاحًا جدًا، لم أفلت. فشل التجربة رغم تمنياتي بنجاحها، الآن أصبح لديّ بنك من البويضات. أحصل عليها بسهولة متى أردت، لن يكلفني الأمر سوى بعض الدولارات. وبعض الوقت على الطرقات وفي الحانات الليلية.

١٠. كل هذه الضغوط وهذه الحقائق التي فتحت الأبواب على
١١. أمام كل الاحتمالات، وفتحت معها عينيه أيضًا على أسرار
١٢. حدران ذلك المختبر تشتكي من عبثها، لم تعد روحه الشابة
١٣. المزيد، دخل إلى غرفة أمه، وارتدى على سريرها باكيًا.

١٤. ماذا حصل يا أمي، أين أنا من هذه الأحداث وهذه الدوامة؟
١٥. طاه لعل أنت كي يرحمك الموت من مرارة الحقيقة وقلق المعرفة، أنا
١٦. م الآن لماذا هناك موت، إنه رحمة للعباد، إنه حب من الله وعطف
١٧. بعض النفوس من عذاب الأرض وقسوة أهلها، عندما يصبح من
١٨. سببًا لمخاوفنا وخطرًا يهدد سلامنا، الأفضل أن نموت.

١٩. افعل يا أمي ومن أين أبدأ؟ أعتقد أن عمري العشريني كافٍ
٢٠. مهمة ما ينتظرنني؟ أشك في هذا، فكل ما عرفته من الحياة وأسرارها
٢١. د كتب وأوراق، أقلام ومعادلات وتجارب مجهرية ليس أكثر!

٢٢. نسّم الوسادة بعد أن اعتصرها بين ضلوعه، حمل صورته ويده
٢٣. ممان، قبلها عشرات المرات، أغمض عينيه مستحضرًا من الماضي
٢٤. ماما، أي ذكرى عابرة، فلم يجد سوى الفراغ وتلك الصور معها،
٢٥. لا يعرف حتى الآن أين ومتى التقطت؟

٢٦. من أنا، أي مرض أصابني ليحرمني حتى من خيالٍ متلاشي يساند
٢٧. م على فراقك؟

٢٨. لم يُجيب عن أسئلته سوى صدى تلك الغرفة الفارغة التي تشبه
٢٩. م

ساعات مرت وهو مستلقٍ على سريره دون حراك، بعد أن داسقف الغرفة مستعرضاً آلاف الصور أمام عينيه، ليستقر أخيراً على صو... مايا..

- أجل، إنها مايا، ليس أمامي سواها.

ترك السرير، أخذ حمامًا باردًا، ثم نزل إلى الحديقة، تمسّى هناك قلبه. ذهابًا وإيابًا حاملًا الهاتف في يده، يصارع نفسه بين الاتصال بها أو البقاء وحيدًا مع صحب أفكاره التي كادت تودي به إلى الجنون!
- ألو... مرحبًا مايا.

- شافي! وأخيرًا، كنتُ أظن أنك نسيتني أو تناسيتني.

كسر صوتها المبهج رتابة الصمت المخيم عليه:

- طبعًا لا، وهل أستطيع ذلك؟ أنت صديقتي الوحيدة التي أطمئن لوجودها قربي، وتشاركني أسراري وهواياتي وتفاصيل حياتي.

- أين اختفيت أيها العالم العظيم؟

- منهمك في أبحاثي.

- طبعًا، لكنك كنتُ أحسد تلك الأبحاث على مدار سنوات، لكنك

عليك أن تعتني بنفسك أيضًا، وبأشخاص آخرين.

أرضاه ما سمعته وأعاد البسمة إلى شفثيه، التقط أنفاسه وسألها عن ما يعرف جوابه مسبقًا:

ما رأيك أن تقومي بزيارتنا؟ هذه دعوة خاصة من شافي المهر، فهو
أما يسألني عنك.

صحكت بصوت مرتفع..

هذا جميل جداً أن يفتقدني شافي الصغير، مؤشر جيد يوقظ الأمل
الربيسي، لكن ماذا عن شافي الكبير؟

ارنباك كثيراً قبل أن يُجيب:

إنها دعوة مزدوجة، متى سئلتينها؟

اليوم إن سمح وقتك بذلك، فليس لدي ما أفعله حتى الآن؟

طبعاً، الوقت كل الوقت لك، سأكون في انتظارك.

أفعل الهاتف وغرق في حيرة قاتلة، هل يخبرها بما يتخبط به من معاناة، أم
ذلك سوف يُفسد عليه زيارتها واستمتاعها معاً بهذه الأوقات المميزة؟
إن بحث لها فسترفض صداقتي، وسيصبح حلم الزواج بها مستحيلًا،
لأنها فوالدها موسيقي راقٍ والدي عالمٌ ملحد مبتور الجذور، استباح
الجنس المحظور من أجل أهدافه الغامضة، لا.. يجب أن تعرف كل
شيء، سأترك لها حرية الاختيار.

الاهي ساعدني، أحس بوحدة قاتلة من نوع مختلف، وحدة أستشعرها
لأول مرة منذ ولدت، إنني بحاجة لأحد ما يشاركني سري هذا، أشعر
بأن والدي الذي ربّاني قد مات، ربما قد مات فعلاً في قلبي وعقلي
في تقييمي له كإنسان، يجب أن تعرف أنني بتُّ أكرهه وأكره هذا الرابط

الذي يجمعني به، كلّ ما يتابني من القليل الذي قرأته، تُرى كيف ستدّ،
الحال عند انتهائي من قراءة كامل الكتاب؟ أنا فعلاً بحاجة إليها، وبه
أن أخبرها هذه الحقيقة المرعبة.

مرّ الوقت بطيئاً حتى بدد كل أفكاره صوتها الناعم، وهي تناديه،
بعيد، وتلوح له بيدها بفرح:
- شافي.. لقد وصلت!

أعاد قدومها الحياة إلى قلبه، وقلبت ابتسامتها كل المقاييس، إذ
يحبّها فعلاً، هذا ما أحسه عندما تسارع نبضه، وابتسمت عيناه قبل شه
عند رؤيتها، تركّ مقعده وسار إليها مختصراً المسافة التي تفصل بينهما
في تلك الحديقة مترامية الأطراف..

- أهلاً أيتها الجميلة.. أفرحني قدومك.

- آسفة، لقد تأخرت.

- أجل، تأخرت كثيراً، مرّت الساعات وكأنها سنون.

تصافحا مبتسمين، وسارا بخجل جنباً إلى جنب.

- تعالي نجلس هنا ونشرب بعض العصير البارد قبل ذهابنا إلى

الإسطلب لزيارة شافي، فهو مشتاق إليك كما أخبرتك.

احمرّت وجنتاها وارتبكت مشاعرهما، فلم تعتد بعد أسلوبه الجدد،

هذا، رغم سعادتها العارمة به، تكاد لا تُصدّق ما تسمع، إنه غزلٌ صريح

ومباشر للمرة الثانية خلال دقائق.

مسنًا، أنا أيضًا أشتاق إليه وأتوق لسماع أخباره واللهو معه، شافي
.. ذلك.

ممت مبتسم خيم على نظراتهما المتقدمة.

ما جديدك؟

لا شيء مهم، أو اظب على إنهاء أبحاثي، وأبي مسافرٌ، سيعود غدًا

ما بك يا شافي؟ وجهك شاحب والقلق بادٍ في عينيك، هل كل
.. على ما يُرام؟

أرأيتك قراءتها لما يخفيه، وهو من كان يعتقد أن فيه من الغموض ما
.. ليكون كتابًا مشفر الرموز.

حير بأمره، وبماذا يجيب، لكن سرعة بديته أنقذته..

في الحقيقة قصة ذلك الشاب الموسيقي ما زالت تطاردني.

أسندت ظهرها إلى المقعد وقالت بدهشة:

أه، غريب.. لديكما نفس المشاعر، هل ارتكب خطأ فادحًا أغرق

.. ما بالحزن بدل أن يسعدهما؟

ماذا، هل هو أيضًا يعاني من هول هذا اللقاء حتى الآن؟

طبعًا، وأكثر منك، فتوحدُه يضخم له الأمور ويعزله، كذلك الذي

.. موز من ظلّه وحسًا أسطوريًا قابلاً لابتلاع هذا الكون بقضمة واحدة،

ربّما هذا الخلل العصبي هو الفارق الوحيد بينكما، بين الواقع والخيال.
وإلا لكتما شخصًا واحدًا قُسم إلى اثنين.

سرعان ما عاد مشهد الكتاب إلى ذاكرته، وكلمات تلك الجملة التي
وقف عندها مفكرًا عشرات المرّات: «ذلك الخلل العصبي الذي يعاين
منه شافي»، اجتاحتُه الأفكار والتساؤلات من جديد:

«آه لقد كتب والدي هذا، نحن متشابهان! نحمل نفس المرمز
والأعراض! هو مريض وأنا معافي، هل...؟»

انتفض واقفًا صارخًا:

- يا ربّ السموات..

- شافي ما بك؟

- لا شيء.. لا شيء، أنا آسف، أرجوك كَلِّمِني عنه أكثر؟

- شافي هل أنت بخير؟

- أجل.. أجل، لا تقلقي، أخبريني كيف حاله الآن؟

- تصوّر، لقد قرر أن يعتزل التأليف والعزف، عزل نفسه في غربة،
دون أن يكلم أحدًا، لقد زرته هناك وتكلّمنا مطوّلًا، كان يعتقد أنك أفضل
منه وأوفر حظًا، لأنك حظيتَ بعائلة تراك وتحميك، وجذور تُنسبُ
لها، لكنه تقبّل الأمر عندما عرفَ أنك أيضًا يتيم وترعرعت دون أم ودون
أقارب أو عائلة.

هو أيضاً يتيم؟

ليس هذا فقط، لقد سلمه أحد ما إلى المركز وهو في سنين طفولته
أى، وتركه هناك دون اسم، أو أي أوراق تثبت شخصيته وجذوره،
القدر أنعم عليه بتلك المساعدة الاجتماعية ملاك التي كانت بمثابة
... أنه كما أولادها وأكثر، وسهرت على تثقيفه وتدريبه وكسر مخاوفه
... أنه يتخطى مرضه ويقوى على نفسه، إلى أن تخرج ووجد فرصة
... مع والدي، حتى اسمه هي من أطلقتته عليه.

سدمته كلماتها وأعادته إلى عالم الافتراضات والتساؤلات، لقد
... ما لم يتخيل أنه سيسمعه عن شبيه لا يشاركه فقط نفس الملامح
... يقاسمه نفس الأقدار والمصير.

عذراً يا مايا... كم كان عمره حين تم تسليمه؟ هل أنت متأكدة من

٢٠١

لا أعرف بالتحديد، ماذا هناك يا شافي؟

انصت سؤالها انفعالاته، بادرها الكلام بهدوء محاولاً الابتعاد عن
... صوع..

أه... رائعة تلك السيدة، إنه حقاً محظوظ أكثر مني.

فالت ضاحكة:

مهلاً أنت وهو، كل منكما يعتقد أن الآخر أكثر منه حظاً!

- طبعًا يا مايا إنه محظوظ، لقد تربى في حضن امرأة، الر
لا يجيدون تربية الأطفال، كلّ همهم نقش صورتهم على خلبه .
بغض النظر عما يريد الأخر، أما الأم فتمنح ذاتها ليكون طفلها ما
ليكون ذاته.

- لكن علاقتك بوالدك لطالما كانت مميزة.

- أجل لا أنكر هذا، لكن لا يأخذ مكان الأم إلا امرأة مثلها، أنت
لا تستطيعين فهم ما أقصد، وأيضًا لم تحرمك الحياة من نعمة الأمور.
- أدرك هذا يا شافي وأفهمك جيدًا، أتعلّم؟ قلتُ لنعمة إن
أفضل رغم كل ما يعانیه، يكفي عمله في مجال الموسيقى والفن، أ
نحن فنحسب في مجاهل ما لا يراه البشر، تبقى أنفسنا سجينه خله
قضايا العزلة في مختبراتنا الباردة.

أثار ما سمع غيرته من نعمة، هي تتعاطف معه، لكن من المؤكد
مشاعرها هذه بسبب حالته النفسية، ليس أكثر، سألتها مستفسرًا طار
لظنونه:

- وماذا قرّر أن يفعل؟

- أخبرني والدي بأنه قد عاد عن قراره وبدأ بتحضير سيمفوني
جديدة أسماها «أنا الأخر»، تخيل؟ أعتقد أنه اختار هذا الاسم من و-ر
لقائكما.

أمل، ربما هو على حق! إنه اسمٌ جميلٌ فعلاً «أنا الآخر»، ربما
لا شخصٌ واحدٌ قُسم إلى اثنين.

لست مبتسمةً، مدّت يدها إليه:

الم تقل إن شافي اشتاق لي؟ هيا بنا نزره، قبل أن نبدأ فيلمًا مشوقًا
في الخيال العلمي.

هو دائمًا مشتاقٌ لكِ، هيا بنا.

اح يراقبها في طريقهما إلى الإسطنبول، يراقب أدق تفاصيلها، مشيتها،
نورها من ناحية إلى ناحية، دلالتها، حركاتها، حديثها، ابتساماتها
مخاطباتها، كيف تداعب شجيرات الحديقة بيديها الناعمتين، والكثير

بالإلهي كم هي جميلة ورقيقة! كم هي رائعة ومميّزة بكل ما
جيد أني لم أخبرها، كنت لأضيق على نفسي سعادتي بلحظتنا
الجميلة هذه!

رغم عودته إلى العمل وقراره الحازم بتجاهل ما يدور حوله . أحداث، فإن مشاعره لم تتخطَّ بعد تلك المرحلة المتسارعة التي أدت إلى قوقعة ذاته من جديد، وأظهرت ضعفه وقلة حيلته في مواجهة أزمة الحياة، تلك الأحداث العابرة والأزمات التي يسببها سلوك الأزمات . معنا، ربّما يراها البعض مجرد أغصان منكسرة تطفو على هوامش الحياة الجارف، أما بالنسبة له فيتلمسها كظل شيطان خفي، يرافق در يتنقل معه أينما ذهب . رغم تقدير كل زملائه واحترامهم له، ورغم المعاملة المميزة والرعاية التي يخصّونه بها، ورغم نجاحه وتخطيه مرضه، إلا أنه ودون مبرر بات أكثر عزلة عنهم، يحاول الوصول قبل وصولهم، ينصرف إلى عمله في غرفة التسجيل، يتناول غداءه فاه متفادياً الجلوس معهم، يغادر بعد رحيل الجميع متجنباً الخروج ومرافقتهم له، وتبادل الأحاديث التي ستضطره إلى الردّ وفتح حوار لا يستسيغها، أمّا في الاجتماعات الدورية، فيحضر قبل الجميع، يجاء بعيداً، ثم يغادر فور انتهاء اللقاء، حتى حديثه الشخصي مع أستاذه يربكه، رغم تلك المحبة والعلاقة التي تجمعهما، والتي كانت لبعض المشاكل مع بعض الزملاء، فتلك العواطف المفرطة كانت تـ .

١٠٠. إن روحه المتنتكة المتعبة من ضوضاء المشاعر وشغفها، حقدها
١٠١. لأنها كانت مرهفة الحس بكل ما يدور حولها من تغيرات.

١٠٢. لم يكن مازن قد سامحه بعد على وشايته به أمام أستاذه، لعدم التزامه
١٠٣. بالبروفات، هو أيضًا لم ينسَ ما قاله له قبل صعوده المسرح يوم
١٠٤. فصدى صوته ما زال يتردد في مسامعه حتى هذه اللحظة..

١٠٥. «نعم، لن تغلح! وستنهار، فما أعرفه أن مرضك سيمنعك من
١٠٦. أداء أمام هذه الأعين المفتوحة والأيدي المصفّقة، ستسقط هناك
١٠٧. نعمة، أمام كل تلك الجماهير ستكون بدايتك ونهايتك، وتلك
١٠٨. تبقى التي سينحني لها الجميع، والتي تعتقد بأنك قد أبدعتها، إنها
١٠٩. يقدرونها فقط لأنها قد كُتبت من قِبَل إنسان مريض متفوق
١١٠. حتى اهتمام مايا والدهابك لا يتعدى حدود الشفقة، لو كنت
١١١. لك لما صعدتُ المسرح». لكن كلام ملاك آنذاك في مكان آخر كان
١١٢. «أنا، كان أقوى وأكثر تأثيرًا: «أنت رائع وموهوب، لن أشجعك إن لم
١١٣. على يقين من هذا، وهذا أيضًا رأي عشرات الأساتذة فيما كتبت، من
١١٤. احضن أمك يا نعمة، من أجلي أنا قُدّم أفضل ما عندك»..

١١٥. كلام الاثنيين أصبح هو، نعمة، ذلك المريض المبدع.
١١٦. ثم أنا مرتاحٌ لتنظيم وقتي بهذه الطريقة، لكن قلقي يسبقُ راحتي،
١١٧. سنبداُ التدريبات الجماعية للحفلة القادمة، وسأضطر إلى العمل
١١٨. بالمجموعة، عليّ أن لا أستبق الأمور، عليّ تحطّي كل شيء لإنهاء

سيمفونيتي الجديدة، ساهديها إلى ذلك الآخر الذي يشاركني،
بالرغم من أننا لم نلتق سابقًا.

سارت الأمور ظاهريًا على ما يُرام وعادت أيامه إلى طبيعتها الدائمة
بات بقاءه في المعهد محصورًا في غرفة التسجيل، يُغرق نفسه في العمل
دون حساب ولا رادع رغم محاولات مازن الدائمة لإحباطه وعزيمته.

- أيها الموسيقِي العظيم، أسعدني أنك لم تسقط على المسرح،
اليوم، وأنتك عدت إلى هنا، يبدو أن غيابك منعك من تلقي رسالتي،
دائمًا أن حالتك هذه لن ترحمك من انتقامي.

أجابه بصوتٍ متقطع محاولاً وبصعوبة السيطرة على انفعال
جسده:

- لماذا تكرهني؟ أنا لم أتعمد أذيتك.

أجابه ضاحكًا والمكرُّ يتطاير من عينيه:

- أعلم ذلك، لكن مجرد وجودك هنا يزعجني وعليك الرحمة -
أذهب من هنا، هذا المكان لم يُخصَّص للمرضى والمجانين، أنت
أكثر ما أكرهه فيك إتقانك لدور الضحية كي تكسب مودة الجميع،
محتك.

بروحه المنكسرة ورأسه المنحني وجسده المتأرجح رجاءً قائلاً
- أقسم إنني لا أريد شيئًا، أرجوك اتركني بسلام، لقد وعدتُ أنني
أتابع عملي، لولا وَعدي هذا لبقيتُ حبيس غرفتي إلى أن أموت.

١٠. بعض الأصوات في الممر معلنة نهاية المواجهة، تشتت تركيز
النفت خلفه بقلق ثم أكمل كلامه بسرعة قبل أن يتركه وشأنه..

اعد رحمتك قدرتك مني مجددًا، لكن تذكر أنني لن أتركك بسلام قبل
هل من هنا، ارحل أيها المريض.

لمس على كُرسية، حاول فك توتر جسده المتأرجح تاركًا نفسه
١١. ما علق فيها من قسوة هذه اللحظات، حُيِّلَ له وجود شبيهه في
ذات حاضنًا إيَّاه واعدًا برعايته وحمايته، رفع رأسه عاليًا، ككف
١٢. من دموعه، التقط أنفاسه وعاد إلى العمل من جديد، يمزج الرعب
١٣. خوف والقلق مع الأمان والطمأنينة والأمل في موسيقى أقل ما يُقال
١٤. ها إنها معجزة.

١٥. ظل انهماكه لم يلاحظ أن باب الاستوديو قد أقفل بالفتاح، فبعد
١٦. من الجميع من المبني يفقد ارتباطه بالمكان ويصرف كل حواسه فيما
١٧. يديه من أنغام، وما هي إلا دقائق حتى علا طنينٌ ذبذباتٍ صوتية مريع،
١٨. الصوت الذي يقتله ويشير جنونه، يتجنب الجميع هناك إحدائه حتى
١٩. من أثناء عملهم في الغرف الأخرى، ما إن اخترق ذلك الطنين مسمعه
٢٠. من ثارت أعصابه وتوتر جسده الذي لم يهدأ بعد من صدمته السابقة،
٢١. من بعد قادرًا على لجم انفعالاته، سدَّ أذنيه بيديه علَّه يخنق تلك الموجات
٢٢. الصوتية قبل أن تخنقه لكن محاولاته باءت بالفشل، توجه مسرعًا إلى
٢٣. اب، حاول الخروج فاكشف أنه مُقفل، وقف على الشباك الزجاجي
٢٤. العازل الذي يفصل بين الاستوديو وغرفة أجهزة الصوت، ضرب عليه

بقبضتيه، صرّخَ وتوسّلَ أن يوقف أحدهم ذلك السمّ الذي يتسرب إلى عروقه ويقطع خلايا دماغه، حمّل الكرسيّ الحديديّ الصغير الموجه، هناك وحطّم المكان، حاولَ كسر الزجاج ولم يستطع، تحبّط في الأرض كسمكة خارج محيطها، كطائرٍ مصاب سقط من عليائه، أخفى رأسه بين يديه وركبتيه، ناجى أمه ملاك، وناجى خالقه الذي يعلم أنه يحبّه رغم حياديته حول موضوع وجوده وعدمه، وكان حياده ذلك نتيجة لكل ما عاناه ويعانيه، لكن قدره هذه المرّة لم يرحمه وكان أقوى منه.

توقّف عن الحراك والصراخ، راح يهذي بكلمات متقطعة غير واضحة، ثم أغمضت عيناه واستسلم للسكون والظلام ليدخلانه في عالمهما الآخر بعيدًا عن واقع أرضنا المؤلم.

19

«دَع شافي صديقتهُ الجميلة وقلبه الذي رافقها، عاد ليحتضن جرحه
«لم من جديد على وقع كلمات مايا عن ذاك الآخر، حمل الكتاب من
«بد، وبدأ الرحلة..»

«اليوم الثالث.. ما زالت تلك الخلايا تنقسم وتتكاثر بشكل منتظم
«في نسب مطابقة للأجنة ذات التخصص الطبيعي. أعتقد أن العملية قد
«محت، وبثَّ قاب قوسين أو أدنى من حصاد ثمار مجهودي، بعد عدّة
«ابيع سيُصبح عندي عددٌ كافٍ من الأجنة البشرية التي ستشكل هنا
«ام عيني، سأختار منها الأصلح، سأرعاه وأعدّل جيناته الوراثية ليكون
«أأريد.. كاملاً معافى! ولكن المشكلة الأهم والتي كانت تؤرقني
«من بليجاد رحم حاضن أزرع فيه جنيني المستنسخ هذا، لا يهمني من
«يون صاحبه فلن يؤثر هذا مطلقاً في تركيبته الجينية أو الوراثية، جُلَّ ما
«أخذ منها هو الغذاء والراحة.»

«أعياني تفكيري وانتابني حيرةٌ محبطة.. فإن قدر لي ووجدت تلك
«أمة التي أبحث عنها فهل ستقبل بعروضي، وهل ستحفظ سري؟ هل
«سترك لي الطفل بعد ولادته وترحل؟ عليّ أن أكون جاهزاً كي لا أفقد
«أصنعت.»

بعد تفكير طويل وتردد بين نعم ولا، وبين ذلك الجنين ومصير
 الذي سينقسم يوماً بعد يوم ويتشكّل ليصبح بذرة إنسان ملقحة، حين
 أمري وانطلقت مُحدّداً وجهة سيرتي نحو ذلك الفندق الراقي ومهدها
 الليلي الذي ترتأده نخبة النخبة من أهل المجتمع المخملي، حين
 تجلس السيدات الرقيقات لتبعن أنفسهن بألاف الدولارات، رواد ذلك
 المكان ينفقون الملايين على طاولاتهم وملذاتهم، مجتمع دعارة خمسين
 نجوم ورواده من الأمراء والشيوخ والسياسيين ورجال الأعمال، غير أن
 غالبيتهم ورغم بذخهم المفرط على طاولات المقامرة كانوا يفضّون
 مسامرة تلك السيدات فقط، واللهو معهن، ليعودوا بعدها إلى سيدات
 الشوارع حيث يحصلون على متعتهم بيضعة قروش، جلستُ على ذلك
 البار المُستعمل بالألوان الحمراء، سكّبتُ لي الساقى كأنسا من الويسكي،
 رحتُ أذيبُ ثلجه مراقبا المكان متفحصاً تلك الوجوه، جميلات بأثواب
 أنيقة يسامرن الساهرين ويتبادلن معهم الأحاديث والضحكات، وقعدت
 عيناى على مادلين ولم تبعدا أكثر منها، ربّما هي من أثارى فضولي
 بلباسها المحتشم نوعاً ما بالنسبة للأخريات، خلف عينيها الجميلات،
 يسكن بعض الخجل الذي يدلُّ نسيئاً على بعدها عن هذا المكان، لم
 يكن هذا ليلفت انتباه الكثير من رواد المقهى، عكسي تماماً، فهذا ما كنت
 أبحث عنه.

فتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين من العمر، جسدها ليس بنحوا
 كالأخريات، لكنه متناسق وجميل التضاريس ومتناسب مع طول قامتها
 لتشكل نموذجاً مغربياً ومثيراً، رغم هذا بقيت وحيدة طوال الوقت تبادل

١٠٠ مع الابتسامات من بعيد، ربما خجلها وتحفظها قد عزلاها عن
طها.

١٠١ خلال مراقبتي لها لاحظت أن أظافرها ليست كالأخرى،
١٠٢ أنها تعمل في مكان آخر في مهنة تبذل فيها مجهودا جسديا ما،
١٠٣ بشرتها تبدو طبيعية وليست هناك جراحات تجميلية، إنها لي أنا،
١٠٤ أول استدراجها وأعتقد أنها ستوافق، هيا يا كميل تشجع.. الجنين
١٠٥، وينادي أماله.

١٠٦ اسلُ لها ابتسامة ورفعتُ لها كأسي، بادلتنني بالمثل، دعوتها
١٠٧ أو س قربي فأقبلت.

١٠٨ بعد حديثٍ بسيطٍ دار بيننا، تأكّدت ظنوني، وتأكّدت أنها هي من
١٠٩ حث عنه.

هل تذهبين معي؟

١١٠ خمسة آلاف دولار، فإدارة المكان لها نسبةٌ مما نكسب، والدفع
١١١...فأ.

١١٢ أنت تستحقين أكثر من ذلك.

١١٣ انطلقنا بالسيارة نجوب أرجاء المدينة وتبادل الأحاديث، أخبرتني أنها
١١٤. هاجرت من بلدها إلى هنا تاركة خلفها عائلة كبيرة تعناش مما تجني،
١١٥ أنها تعمل في أثناء النهار في أحد المطاعم، وليلا في ذلك المقهى،
١١٦ الهد كنتُ أول من قبل أن يدفع مبلغا كهذا ثمنا لليلة متعة كانت تستعد

لها، وتساءلت مستفسرة عن عدم زهابنا إلى منزلي أو إلى أحد الفناء،
اختلقت لها أجوبة مختلفة قد ترضي فضولها قليلاً، ومع بزوغ الفجر
أوصلتها إلى منزلها، ودعنتني بابتسامة راضية وعينين ترجوان بفان.
تبادلنا أرقام الهاتف، انتظرتها حتى دخلت باب المبنى وانطلقت.

عدت إلى مختبري سعيداً راضياً، توجهت إلى مجهري أطمئن ما
ذلك الجنين، ها هو يحاول أن يبني ويشكل نفسه، هذا جيد، ما زال أمام
متسع من الوقت لأقنع تلك الفتاة وأكمل تلقيح المزيد من البويضات
شهر آخر مرّ بسلام حصلتُ خلاله على العديد من البويضات بنفسي.
الطريقة السابقة، قمتُ بعملية تلقيحها، ووضعتُ كل واحدة في وعاء
خاص عليه تاريخ الاستخراج والتلقيح وحفظتها جميعاً في تلك الثلاثة
الخاصة تحت برودة 196 درجة، هكذا كنا نحفظ حياة البويضات في
مختبراتنا في أمريكا ونعود لاستخدامها متى أردنا، حتى بعد عدة سنوات
اتصلتُ بمادلين وحددتُ معها موعد لقائنا الثاني، تقابلنا بعد ساعات،
قدمتُ لها باقة ورد لم تحلم يوماً بحملها، وبعض الهدايا الثمينة الأخرى،
اصطحبتها إلى أرقى مطاعم المدينة، جلسنا هناك وأكملنا حديثنا بعد أن
أخذ النادل طلباتنا..

- شكراً جزيلاً لك على دعوتك، وعلى هذه الزهور والهدايا، أعدت

إليّ إحساسي بكياني وإنساني.

- لا داعي للشكر، أنت تستحقين هذا.

١٥. انتهائنا من تناول العشاء وتبادل الأحاديث الروتينية، حان وقت
منا بالموضوع أساس اللقاء.

«مادلين.. سأكلّمك بصراحة، أريد منك خدمة جليّة ستذكرها
أبداً، أتمنى أن توافقني على مساعدتي وأنا مُستعدّ لكل ما تطلبين،
سأساعدتني؟»

«وكّد، قدر ما أستطيع.»

فبيل وفاة زوجتي منذ أشهر، قمنا بتلقيح بعض البويضات في أحد
مختبرات عليّ أن تُزرع إحداها في رحمها، لكن الله اختارها قبل ذلك،
سبح ذلك الطفل الذي لم يرّ النور بعد يتيمًا، لم يُعد هناك من رحم
أمه، كان هذا حلمها، وبدوري وعدتها وهي على فراش الموت أن
تولد لها ما أرادت، وأنا أعلم أن روحها لن ترتاح ولن أرتاح أنا قبل
ولادة هذا الطفل.

«ما قلته وما ذرّفته من دموع زائفة، بالإضافة إلى ذلك المبلغ الخيالي
الذي عرضته عليها جعلها توافق دون تردد.»

«وماذا عليّ أن أفعل؟»

«سأزرع الجنين في رحمك، وسأعتني أنا والعديد من الخدم بك،
إلا أن تلدي الطفل، سأعطيك نصف المبلغ الآن إن وافقت، والنصف
الأخر بعد الولادة.»

«أخرجتُ الشيك من جيبي ووضعتُه أمامها، نصف مليون دولار

أمريكي، لم تطل في الجواب بعد أن تسمرت نظراتها على ما أمامها.

- أنا موافقة.

- لكن هناك شرط أخير أتمنى أن تتفهميه وتوافقي عليه أيضًا.

- تفضل.

- بعد ولادة الطفل سوف تركبني معي وتغادرين البلاد نهائيًا، ستعودين إلى عائلتك بعد أن تكتبي لي تعهدًا بالتنازل عنه، وبأنك لن تعودي إلى هنا، النقود ستبقى معك، سأتكفل أنا بتكاليف السفر والانتقال، وسأشتري لك سيارة في بلدك ومنزلًا تسكنين فيه، لن تحتاجي إلى أي شيء بعد اليوم، ولكن عليك أن تنسي كل ما حدث وموضوع هذا الجنين نهائيًا بعد أن تلديه بالسلامة إن شاء الله.

ساد الصمت وظلّ صدى كلماتي يجوب المكان، كان عليّ أن أكمل هجومي وألا أترك لها فرصة لتسكن إلى نفسها، خاصة بعد الخوف الذي لم تستطع نظرات عينيها الهائمتين في الأرجاء أن تخفيه.

- ها.. ماذا قلت؟ أرجوكِ مادلين، حياتي وحياة طفلي بين يديك، اخترتُكِ أنتِ دون سواكِ لما تملكين من صفاء قلبٍ وحنان وجمال، لأنكِ تكافحين من أجل أسرتكِ، أنتِ أحقُّ من سواكِ بالحصول على ذلك المبلغ وتلك الامتيازات، اخترتِكِ أنتِ رغم وجود أخريات يقبلن بربح ما أعطيه لكِ، وأنتِ تعلمين أن باستطاعتي أن أجدهن متى أردت، أرجوكِ أن توافقي ولا تقلقي من شيء، سأجعلكِ تلدين عند أشهر

إطءاء في بلادنا، وإن أردتِ سأجعلهُ يرممُ لكِ غشاء البكارة، فتعودين
، عائلتكِ عذراء كما أتيتِ، تنزّوجين وتنجيين وتعيشين مع أطفالكِ
» دريمة تملؤها البهجة والسرور.

هسوتِ حزينة ومتقطّعة رجنتني أن أمنحها بعض الوقت لتدرس
، ض وتفكر في الموضوع، أصابتنني خيبة وقلّقتُ من أن ترفض عرضي
». التفكير، تداركتُ ذلك سريعاً..

حسناً أرجو منك يا مادلين أن تنسي ما قلته كثيراً، أتمنى لك حظاً موفقاً
، في هذه الظروف التي تعيشونها بين أحضان الرجال الذين سيصبحونك دُلاً
، إهانة وشذوذاً وأمراضاً، فأنا مضطر إن لم توافقي الآن للبحث عن رحم
، لطفلي، الموضوع فيه حياة أو موت، والوقتُ يداهمني».

20

بعد ساعات طويلة، فتحت نعمة عينيها، وتفقد مكان وجوده، إنه في المستشفى، وحقنة المصل تخترق وريده. ملاك جالسةً قربهُ تحتضن يديه، وتُمدد شعره بالأخرى وعيناها غارقتان بالدموع المتجمدة.

عندما شاهدت جفونه تقاوم الموت وتفتح نوافذها للحياة من جديد، تساقطت تلك الدموع الحبيسة فرحاً..

- الحمد لله يا نعمة، يا صغيري الغالي، لقد عدت لي أخيراً، عدت إلى قلب أمك.

سأل بصوتٍ منهك:

- ماذا حدث؟ لماذا أنا هنا؟

- لقد أغلق أحدهم باب الاستوديو، لا نعرف من، ربّما عامل النظافة، دون أن يلاحظ وجودك في الداخل، ويبدو أنه دون انتباه وخلال تنظيفه الجهاز، اصطدمت يده بأحد الأزرار التي أصدرت رنيناً لم يسمعه من الخارج. خلال جولة أستاذك في المكان قبل رحيله، وجدك ملقى على الأرض داخل الاستوديو، أحضرك إلى هنا، والحمد لله أنك بخير الآن هز رأسه ملقياً جاتباً ما تبقى فيه من تلك اللحظات والأصوات

اه با أمي، لقد دمّر ذلك الرنين أعصابي، كلّ مَنْ حولي يريد قتلي،
الك الوجوه، أبعديهم عني أرجوك.

اراعت أنفاسه، عادَ جسدهُ ليتنفّض من جديد، ضغطت على زرّ
المرتلّق هناك، أسرعَ إليه فريقٌ من الأطباء والمرضين، أسعفوه
مات مهدّنة إضافية جعلتهُ يغرق في سُبات عميق، ربّما يُعيد هذا
هرار إلى نفسه المتعبة.

رنته هناك وخرّجت لُطمين أستاذه الذي كان ينتظر أخباره بقلق.

ماذا حدث؟ هل أصابه مكره؟

كلا، مجرد نوبة عصبية أصابته حين استيقظ وتذكر ما حدث له، إنه
مهل الآن، أعطوه بعض المهدئات ونام مجدداً.

فرت ألمها ورحلتها الطويلة المليئة بالمعاناة وأكملت:

لقد عشقت معه الكثير من المواقف المشابهة في كل انتقال بين
مراحل الحياة، وفي كل مجتمع جديد يدخله، أنا أحاولُ جاهدةً أن
أض ما فقدته منذ أن أتى إلى هذه الحياة، حاولت دمجه بعائلي،
أصبح هذا الأمر زوجي وعرضني للعديد من المضايقات، ولكي أجتنبه
مات أملٍ جديدة أبقيته في مكانه، وأبقيتُ نفسي بين الاثنين، أولادي
يحزنونه كثيراً وهو أيضاً يحبهم، كذلك أصدقاء المركز، لكن لكلّ منهم

عالمه وحياته المختلفة عن عالم نعمة وحياته مهما تقاربوا.

- إنه مبدع يا سيدة ملاك، وجميع المبدعين يعانون من وحشة
ومزاجيتهم حتى وإن لم يكونوا مرضى، كان يجب أن أراعاه وأحميه إذ
أقلقها ما سمعت:

- هل حصل هذا عمدًا؟ هل تعرف الفاعل؟

صمتَ قليلاً محاولاً الهربَ من بعض الظنون التي اجتاحتها.

- لقد طلبتُ من الشرطة فتحَ تحقيقٍ بالحادث بعيدًا عنه، لقد
ما حدث وعلينا أن نعيده إلى المعهد بأي طريقة، لن أسمح لأحد
يعزله أو يوقفه عن إبداعه وتحذيه الشجاع للحياة ولظروف مرضه.
- شكرًا يا سيدي على هذه المشاعر النبيلة وعلى تفهمك الأبر
للموقف.

- سأطلبُ من مايا أيضًا أن تزوره، هي من أرجعه إلينا في المرة
السابقة، وهي الوحيدة القادرة على إعادته الآن، أنا متأكد من قدرها
على ذلك، ومتأكد أنه سيتخطى ردود الفعل التي ستصيبه بعدها،
النكسة المرعبة، وسيعود إلينا أقوى مما كان.

21

انفرت شمسُ الصباحِ على صخب الحياة بعد سكون الليل، أما
هذه المشغولاً بما بين يديه وكأنه قد غاب عن حركة الكون، يقتله
ول لمعرفة خطة هذا العالم المجنون وما يسعى إليه وما سيفعله
السيدة والبويضات الملقحة.

أبى أن يُنهي معجم الأسرار هذا قبل عودة والده، فعندها لن يتسنى
الاهتمام لأن يجلس طويلاً في المختبر، وماذا لو أخذ والده الكتاب
ملك الخزانة قبل أن يُنهي قراءته؟ عندها سيموتُ مؤكداً من الندم
المسرة على تلك الفرصة التي وضعت الحقيقة بين يديه، ولم يستغلها
أبى تعبهُ وأكمل تفحص ما في الصفحة التالية:

سحت ضغط ظروفها الصعبة لم يكن أمامها خيار آخر، لقد وافقت
أن يتبدد قلقها الجلي على ملامحها، حاولت طمأنتها أكثر، وتزيين
أدب المؤلم الذي ينتظرها، بصراحة لم يكن مؤلماً كثيراً، فستحقق ما
أتمنّى أن تحلم بأن تحقّقه يوماً لولا لقاءها بي، وماذا يعني أن تحمل جنيناً
لها وتركها بعد الولادة؟ إنها فتية والحياة أمامها خاصة مع محفظتها
الهامرة بالنقود.

حسنًا، سأخذ لك فيلاً صغيرة، بعيدة قليلاً عن ضوضاء المدينة،

سيكون عندك طبّاح وخادمة يسهران على رعايتك، سأشتري لك ١٥
تحتاجين، ستجزيين هذه السنة عيشة الملوك، وستكملينها في بلدك،
انتهاء الفحوصات الطّبية سأزرع الجنين في رحمك، وسأتابعك -ها-
بخطوة، لا تقلقي فأنا طبيب، وقد أقسمت يميني، عدا هذا فحسب.
تعينني، أنت من ستحمل ثمرة حبي في أحشائها، أرجوك لا تفتأ
أريدك أن تسترخي وتستمتعي بكل ما ستحصلين عليه من امتياز.
قلّقت هذا سيؤثر سلّبا على الجنين.

نظرت إلى عيني وهي ترجوني ألا يكون الجواب سلّيبًا:

- ماذا عن أهلي؟ هل أستطيع التواصل معهم؟

- طبّعا وبشكل عادي، لكن تجرّك في المدينة لن يكون مستحبا.
فأصدقاؤك هناك، وعليك إخبارهم أنك مسافرة، لا يجوز أن يعبء
أو أن يروك حاملا، من أجلي ومن أجلك أيضا.

أجابت بصوت مكسور:

- أنت محق، سأفعل ما تريد.

- ستدخلين المستشفى لمُدّة أسبوع، سيجرون لك فحوصات ط...
دقيقة وروتينية، بعدها بإمكانك أن تودّعي الجميع قبل أن تنتقلي إلى
بيتك الجديد.

سارت الأمور كما أردت وأسهل مما توقعت، آه كم أنت مبدع

يا كميل!

أنها وعدت سريعاً لأحضر ما يحتاجه للمرحلة المقبلة.

١٠٠. بداية أسبوعي مبشرة، الفحوصات الطبية ممتازة، موقع الشيفلا
سكنها في الوسط، بين مخبري وشقة المدينة حيث شافي، كل
١٠١. بهير بامتياز، أحضرت مادلين إلى سكنها الجديد بعد أن جلنا في
١٠٢. لساعات، اشترت لها الكثير من الملابس وأدوات التجميل
١٠٣. وجميع ما حلمت به وأكثر، كنت سعيداً بكل ذلك، وضعنا
١٠٤. الأمتعة في صالة البيت حيث جلست لأستريح، بينما راحت تجول
١٠٥. في مكان دون ملل أو كلل؛ قاعة الرياضة وغرفة النوم الملكية، مقاعد
١٠٦. بحف وستائر.. لم تصدق أنها قد أصبحت سيدة هذا المكان بما
١٠٧. وفعت قرب حوض السباحة وداعبت ماءه بيدها، ثم عادت أدراجها
١٠٨. حيث جلست، وقفت أمامي بأنوثتها الطاغية وشكرتني على كل
١٠٩. أعلمتها أن الطباخ والخادمة سيأتان يومياً ويجهزان كل ما تحتاج
١١٠. بعد أن يتأكد الحمل سيقمان معها.

١١١. لم نعلق على ما قلته، ولكن علامات الرضى كانت بادية على
١١٢. حها، طمأنني هذا، وأكدت لها أنني سأبذل أقصى ما في وسعي من
١١٣. لها وأجل الجنين..

١١٤. ..سكنها القلق من جديد، ولكنها هزت رأسها مستبعدة ما جال فيه من

١١٥.

١١٦. فاستدركت قائلاً:

١١٧. لا نقلقي يا مادلين فعلمية الزرع بسيطة ولن تستغرق أكثر من بضع
١١٨. أيام، ولن يكون هناك أي ألم، وستكملين بعدها نهارك بشكل عادي.

بعد أن عاد لها هدوؤها تركتها لتستمتع بمكانها الجديد ورحلت
 في اليوم التالي أحضرتُ معي تلك الشلاجة المخصصة لنقل الرحم
 والأعضاء البشرية، قمتُ بزرع البويضة الأولى في بطانة الرحم، نال
 الأرض الخصبة التي تنبت بين طياتها بذور البشر أجمعين، لم تسته
 العملية الكثير من الوقت، بعدها بقليل زالت عنها آثار التخدير، فتح
 عينيها ببطء وكأنها تستفيق من نوم عميق، أخبرتها أن كل شيء، فدا
 بشكل جيد وعلينا أن نتنظر، ونراقب انقسامات تلك البويضة معاً،
 يومنا الأول وهي ملقاة تحت الآلة التي زدتُ قدرة التقاطها عشرا
 المرات، لأنتمكن من متابعة تلك التطورات والانقسامات.

إنَّه اليوم الخامس، تحركت البويضة قليلاً، ثم غرست نفسها
 بطانة الرحم، راحت تنقسم أكثر، وبيات تزايد حجمها ظاهراً، كنت
 أن تنجح هذه التجربة، بل يجب أن تنجح وأن يولد الطفل سليماً،
 أريد، لقد عانيتُ كثيراً حتى تمكنت من تعديل نواة الخلية، أن الأ
 لأطف ثمرة مجهوداتي تلك.

- مَن أخذت الخلية؟

صرخ شافي سائلاً الفراغ، ثم أكمل القراءة والغضب يتطاير
 عينيه.

«اليوم السابع.. خمدت الحياة في تلك البويضة، صعقتُ عندما
 لاحظ انقسامها من جديد، أحبطني هذا رغم أنه متوقع الحدوث،
 النادر أن تنجح تجربة الاستنساخ من المرة الأولى.

أما هي، فكانت مطيعة هادئة، تراقب معي تلك التطورات، وتحاول
..مالك انفعالاتها التي حاولت أن أستوعبها ببعض الكلام المطمئن.
ها أنا أعيد المحاولة مرة أخرى، وها هو قلق المراقبة يعود إلينا من
..١٠٠٠

اليوم العاشر بعد الزرع، فقدت البويضة الجديدة الحياة أيضًا، هناك
الـ ما علي أن أتداركه، أعدتُ عملية الزرع من جديد..

الأسبوع الثاني بعد الزرع.. المحاولة تفشل من جديد، بات القلق
، اصحاح عليها وآثار التبرّم والملل لم تعد تخفى عليّ، فتررتُ أن أنجز
..ماي وما أريد دون علمها.

التجربة الخامسة عشرة.. أعطيتها المخدر في العصير، وزرعتُ
..بويضة وكلّي أمل أن أجتاز هذه المرحلة الحرجة.

إنه الأسبوع الخامس بعد العملية، الخلية تتشكل تحت تلك الآلة،
استطيع أن ألاحظ شيئًا ينبض داخل ذلك الكيس الصغير الذي يطوف
..الك.

بداية الشهر الثالث.. مادلين صحتها جيدة وأتمنى أن تنتهي قريبًا
..من مرحلة الانتظار هذه، لقد أعطيتها قليلًا من حرية الحركة، فمنذ بداية
الزرع وهي طريحة السرير.

الأسبوع السابع عشر.. ظهرت تحولات غريبة على ذلك الجنين، لم
بحن يشبه باقي الأجنة في مرحلة النمو المماثلة، تسارعت نبضات قلبي
، ازداد قلقي، ماذا أنت بفاعل يا كميل؟ هل تُنبتُ وحشًا أسطوريًا يتلعك

وأنتُ معاً؟ كلاً لن أسمح بذلك، سأتخلص منه سريعاً قبل أن تخرج الأمور عن السيطرة، ولكن دون علمها طبعاً.

أجل، هذه فرصة جيدة، سأسمح لها بأن تعوم في حوض السباحة، بعد أن طلبت ذلك مني عدة مرات، ليست لدي حيلة أخرى، قليل من المجهود إضافة إلى دواء يساعدها على الإجهاض سيكونان كفيين بالتخلص من ذلك المسخ المعدل جينياً.

صاح شافي من جديد:

- يا إلهي سيقتلها، لقد اجتازت شهرها الثالث، هل ماتت؟

الصدق عينيه في الصفحة وأكمل التهام الكلمات.

«لقد تم ما خططت له، عادت من حوض السباحة صارخة والدماء تسيل على ساقها، سارعتُ بها إلى مختبري، حيثُ قمتُ بتخديرها، وانتزاع ذلك المخلوق، بقيت بقربها إلى أن تجاوزت تلك الأزمة، لقد بكت كثيراً على فقدانه، أدركتُ حينها أنني سأواجه أزمة عصبية عندما سأنتزع منها الطفل بعد الولادة، إنها الأمومة! أحزنني هذا قليلاً، لكنه لم يؤثر على قراري بإعادة المحاولة.

أخذتُ الجنين إلى المختبر وحللتُ تلك التطورات التي ظهرت عليه، بعد انتهائي رميته مع كل ما استخرجته من رحمها في تلك المطحنة البشرية التي أحضرتها خصيصاً لهذا الغرض، فتحتُ الصنبور، فدفعت الماء المتدفق تلك الأشياء العالقة هناك إلى أن سار كل شيء إلى نهايته».

طر شافي بذعر إلى تلك الآلة الغريبة، ثم عاد إلى الصفحة ليكمل
«ول الجريمة».

«عاد بي هذا المشهد إلى اختباراتي في عملي السابق خلال
حارب الأولى للاستنساخ، حيث نمت في الأنابيب المخبرية العديد
المخلوقات الغريبة، كانت بشرية مشوهة مزدوجة الجذور، نتاج
هدات بشرية لقمحت بسوائل منوية أخذت من الحيوانات أو العكس...
وُفرجة، ومن خرج منهم عن السيطرة كنا نرمي به في مطحنة مشابهة
حامل أجزاءه دون أن تترك دليلاً على وجوده، ويدوب مع الماء، وكان
الم يكن».

بعدها كتبتُ على اللوح المعلق فوقها التاريخ وتفاصيل المخلوق
أي ذوب هناك، وعدتُ إليها، علي أن أحضرها نفسيًا وجسديًا للزراعة
«إدانة».

بعد أسبوعين من الانتظار اصطحبتها خلالهما في رحلة استجمامية
«بي بخني، زرنا خلالها إحدى الدول المجاورة، واشترتُ لها كل ما
«أحب، كنتُ ألاحظ اهتمامها بي وكأنها تحاول أن توقعني في حبها،
«ما قد راهنت على هذا، لكن بالنسبة لي لم تكن سوى فأر مختبر
«بوصلني إلى هدفي، قبل أن أعيدته إلى جحره، لا أنكر تعاطفي معها
«أحيانًا في بعض الأوقات القليلة، ولكن في عملي هذا ليس هناك مكان
««شاعر»».

- تبًا للشياطين الجحيم! كيف لك أن تكون بشريًا وأنت مجرد القلب؟!

عاد إلى صندوق الأسرار وأكمل.

«بعد عودتنا حضرتُ البويزة الجديدة وحققتها في الرحم من ١٤،
وعدنا للغوص في بحور الانتظار.

الشهر الرابع، كل المؤشرات تظهر أن هذه التجربة قد اجتازت مراحل
الخطر وبأنها ستكون الأخيرة.

بات انتفاخُ بطنها واضحا، صدرها أصبح أكثر بروزًا، وكذلك أردافها
وها هو الطفل وقد باتت ملامحه، وراحت تفاصيله تظهر تدريجيًا، وباتت
المراقبة أكثر دقة».

كاذ رأسٌ شافي يسقط أرضًا من شدة العاس والإرهاق.

- إنني أموت من التعب، لم تعد جفوني تقوى على مقاومة الإعياء،
الإعياء، فما قرأت قد أتلف أعصابي، تبًا لك يا والدي، كيف سألقاك بعد
عودتك؟ كيف سأسمح لك بتقبيلي؟ كيف سأرتمي في حضنك؟ كبه
سأتناسى ما عرفته وأتجاهل مشاعري؟

ترك كل هذا خلفه وجرَّ نفسه إلى الغرفة يحمل معه ما لا يستطع
التعبير عنه، ولا البوح به لأحد، حتى لنفسه.

22

دخلت مايا ووالدها صالة الانتظار في المستشفى، يحملان معهما
« من الورد الأبيض، وقد نُشِئَتْ بعناية تليقُ بفتانٍ مبدع، جارت عليه
« وة بني البشر، جلسا هناك مع ملاك بانتظار أن يسمح الممرضون لهم
« ا. حول.

أشكرك يا سيدي على هذه الزيارة، من المؤكد أن حضورك مع مايا
نمرح نعمة وبعيدُ الابتسامة إلى قلبه الحزين.

« لا داعي للشكر، هذا واجبنا، أخبريني كيف أصبح الآن؟ هل نام
مهدأ؟

« الحمد لله، لقد تناول الفطور بعد مجهود، لكنّه لم يسمح لي
« إساءة الغرفة ولا بفتح الستائر، ربّما تستطيع مايا مساعدته كما فعلت
في المرّة السابقة، لا تعلمين كم أنا سعيدة بحضورك يا بنتي.

« أنا أيضًا سعيدة يا ماما ملاك؛ لأنني قد ساهمتُ بإخراجه من فوقته
سابقًا، ولكن ما حدث معه مؤلم جدًا، لقد تسارعت عليه المفاجآت في
الأيام الأخيرة وكنْتُ قد شكرت الله أننا قد جعلناه يجتاز أزمته السابقة

تلك، أما الآن ربّما سيصُعب علينا إقناعه بالعودة إذا ما قرر ترك المهر،
فالمكان بات مرتبطًا باللم لن ينسأه بسهولة.

تدخل والدها مقاطعًا:

- لا يا مايا، لا تقولي هذا، العرض القادم لن يكون دون نعمة، أر
لا تعرفين كم اتصلاً تلقيتُ من كبار الموسيقيين، وكم أثنوا على ما أنجز ..
حتى إن معظم الجمهور الذي حضر هذا الحفل سيعود في العرض القادم
من أجله، الجميع متحمس لسماع عزفه وما سيكتب، علينا أن نقنعه، إن
مستقبله ولن نجعله يتراجع أمام أي نوع من العقبات.

علقت ملاك:

- أنت مُحقّ يا سيدي، ومايا أيضًا، أنا أعرفه جيدًا، متى أصرّ علم
قرار ما يصعب بعدها إقناعه وأخذه إلى احتمالات وحلول أخرى، فهنا
الاضطهاد الذي يمارسه المجتمع على أصحاب الاحتياجات الخاص،
أشدُّ قسوة من معاملتهم للحيوانات، ما يضطرهم إلى حماية أنفسهم
بأنفسهم.. تخيل يا سيدي أن أحد رفاق نعمة، والذي وجدنا له عملاً فر
ورش إحدى شركات تصنيع السيارات، وبعد أن أمضى سنوات طويلاً،
يُحارب مشكلته إلى أن أتمّ دراسته في هذا المجال، عادَ منذ أيام إلى
البيت، يعاني حالة نفسية صعبة وآثار المرض والإرهاق بادية عليه، عندها
نزعتُ قميصه وجددتُ جسده مليئًا بالحروق، صعقتني المشهد، لم يشأ أن
يخبرني في البداية ولكن بعد محاولات عديدة قال لي إن عمال المصنع
يضطهدونه ويسخرون منه رغم أن تحصيله العلمي أفضل منهم جميعًا،

بعد صمته حيال هذه المعاملة اللا أخلاقية خوفاً من خسارة فرصة
«امتل تلك، وتأكدهم من عدم قدرته على المواجهة، أو رفع الظلم عن
مسه، وظفوة خادماً لهم، حتى وصل بهم الأمر إلى حدّ تعذيبه، فراحوا
يطعنون السجائر في جسده ويحملونه مهام الأعمال الشاقة التي تفوق
قدراته على تحملها، التزم الصمت بسبب تهديدهم الدائم له، لكنّه حطّم
ما رآه خوفاً بعد أن حاول أحدهم اغتصابه، ففرّ منهم هارباً إلى المنزل.

أقفلت مايا فمها بيدها مانعة نفسها من الصراخ.

- يا إلهي! ما هذا؟! أسمع يا أبي؟ أيعقل أن يحدث هذا بعد ما
صلنا إليه من انفتاح؟

أجابها وهو يحل ربطة عنقه متأثراً مما سمع:

- أجل يا بنتي، للأسف ليس هناك من يحمي هؤلاء من سطوة
الجهلاء.

- هل اتصلتم بالشرطة؟

- طبعاً، لقد رفّع مركز التأهيل شكوى على الشركة، وعند التحقيق
أبكر الموظفون ما قاله، لكن عندما أفرغت الشرطة كاميرات المراقبة
المزروعة في المكان، وشاهدوا ما حصل، رأوه وهم وهم يتزوّنه،
بضحكون عليه، ويجبرونه على الرقص، وحمل المعدات الثقيلة،
كلما وقع تحت وطأتها ركلوه وأجبروه على حملها من جديد.

قاطعتها مايا والغضب يمتلكها:

- يجب أن يدخلوا السجن ليكونوا عبرة لغيرهم.

ضحكت ملاك بمرارة وأكملت:

- للأسف تلك الدعوة القضائية ضدّ المصنع وهؤلاء العمال «
توقفت بسبب نفوذ صاحب المصنع وعلاقاته برجال السياسة. أفلا
القضية وأمرت المحكمة بتعويض ماذي فقط، تخيل يا سيدي! و
ستميد له تلك النقود الثقة بالمجتمع وبمن حوله؟ هل تُسفي جراح «
الشاب المسكين الذي أخرج نفسه بعد مجهود من عزله إلى اله «
وفتح ذراعيه ليحتضن من حوله، فما كان منهم إلا أن وجهوا له الطعنا.
محاولين تلويثه بقذاراتهم؟! «

- وكيف هو الآن؟

- إننا نخضعه منذ ذلك الحين لعلاج مكثف ودورات تدريبية «
الممكن أن تؤهله لاستقبال الحياة من جديد، وتساعده كي يتخطى تلك.
الأزمة، الحقيقة. يا مايا المشكلة ليست بهؤلاء وتأهيلهم، المشكلة في
المجتمع.

- أجل يا سيّدة ملاك، لكن ماذا علينا أن نفعل؟ من الممكن أن نؤهل «
نعمة وصديقه وأمثالهما، لكن كيف لنا أن نؤهل أمة بأكملها؟ كيف.
نعلمهم أن يحترموا كل مختلف، وضعيف، ومريض؟ حتى حكومانا
لا تراهم ولا تحترم وجودهم، فشوارعنا مثلاً ليست مجهزة لهم،
ولا مقاهينا ولا دور السينما ولا حتى المباني الحكومية، كما في بلاد
العالم الأول، وكأننا نحكم عليهم بالموت قبل ولادتهم.

أبي ما يهمني الآن نعمة، فلن أسمح بأن يصيبه ما أصاب سواه،
أنا نجد حلًّا، لن ندخل لنقدم له الورد ونعتذر له ونعزيه ونرحل،
أنا نجد حلًّا بديلًا إذا ما رفض العودة إلى المعهد.

هل لديكما أي مقترحات لمساعدته؟

ها إلى بعضهما حائرتين، نهضت مايا من كرسيها مطلقة العنان
ها: ها:

اسمعا.. من الممكن أن نجعله يُكْمِل عمله في المنزل إلى حين
التدريبات العملية، هكذا لن تؤخذ منه فرصة تطوير نفسه ورسم
هنا وإظهار إبداعه، وأنا واثقة من أننا ستمكن مع الوقت من إخراجه
مالة الخوف التي ستختق موهبته وتشله نهائيًا إن لم نسانده.

فكرة جيدة يا بنتي، أرجوك يا سيدي أن توافق.

مر قليلًا ثم قال بهدوء وهو يبتسم:

فعلًا إنه الحل الأنسب في الوقت الحاضر، لقد فكّرتُ سابقًا
صوع، لكن ما أوقفتني عن تنفيذه رغبتني في إخراجه من أجواء
ل وجعله يحيا ظروف حياة طبيعية كأبي إنسانٍ آخر.

أجل يا أبي، لكنه قد خرج للترّ من محاولة قتل، أقله إلى أن يتهي
حقيق ونستطيع أن نحمله من الفاعل، ربّما حاول أذيتُهُ من جديد.

نسقرت عينا ملاك عندما سمعت ما قالته مايا.

- هل تأكدتم من أن الحادث مدبر؟ لم تقل لي هذا سابقًا يا -
عندما سألتك!

نظر إلى مايا مؤنبًا ثم توجه بحديثه إلى ملاك:

- حتى الآن لا يوجد دليل قاطع، كل المعطيات ما زالت م
الشرطة، كما قلت لك، وكل التوقعات واردة كالعادة في مثل
الظروف، دعونا لا نستبق الأمور، حسنًا يا مايا ستزفين له الخبر بنفس
- آه شكرًا يا أبي، وأعدك أن أجبره على الخروج من الع
يوميًا، سأأخذه معي إلى المدينة وأعرفه إلى أصدقائي، سأساعده
المستطاع.

قطع حديثهم صوت الممرض ليأذن لهم بالدخول، حملت مايا ال
ومشت أمامهما، وقلبهما يرقص فرحًا، لقد وجدت حلًا مؤقتًا سيريه،

صفحة جديدة

١٠٠ ان لا يُبدَأ أن أترك لها مَسْعَا من الحزنية، لتستمتع بما تريد، لكي يحظى
 ١٠١ السلام والسكينة، ولكن الحرية ما بين الجدران المغلقة على ما
 ١٠٢ لم تكن كافية لمن اعتادت على الانطلاق داخل حياة مفتوحة دون
 ١٠٣ فليس من السهل بعد استقلاليتها لسنوات وترك جسدها ورغباتها
 ١٠٤ الهَم أن تعاد حياة الانضباط وأن تكون تحت المراقبة باستمرار، إن
 ١٠٥ حفها الذي لا أنكره عليها، فجسدها وغريزتها بحاجة إلى متنفس
 ١٠٦ طهي وجنسي، وأفهم جيداً محاولتها لاستدراجي إلى علاقة حميمة
 ١٠٧ ولكن لم أكن مهياً لدخول هكذا متاهة، ورغم المجهود الذي
 ١٠٨ لكبت مشاعري وأنا أتفحص جسدها وهي شبه عارية أمامي، كنت
 ١٠٩ فيها حقاً، لكن خوفاً على الطفل منعني من مضاجعتها وامتلاك
 ١١٠ ها الذي أيقظ في رغبة الحياة من جديد، هذا التحدي كان يصارعني
 ١١١ دفيقة وأنا أراها أمامي على سجيبتها حيناً، وفي دور العاهرة الذي تتقن
 ١١٢ أحياناً، رحبت أراقبها لحظة بلحظة وكلني فضول، أريد أن أعرف
 ١١٣ إذا تفعل لتخمد رغباتها تلك، التي ويسبب هرمونات الحمل تصيح
 ١١٤ البعض أكثر تعرضاً للإثارة وأشد طلباً لها، كنت خائفاً أن تستغفني

رغم مراقبتي تلك وتقابل أحدهم سرًا، فممنوع عليها ممارسة الحب حتى أستعيد طفلي الذي تحمله، وبعد تتبع دقيق، عرفت أنها قد توجهت إلى سوق دعاة آخري، باستخدام ذلك الهاتف الذي كنت أراقبه أبدًا. لقد كان لديها العديد من الأصدقاء قبل مجيئها إلى هنا، وها هي تتهافت لتغازلهم وتضاجعهم على الهاتف، كنت أسمع مكالماتها فأود لو أقترب غرقتها وأفعل ما تريد وما تطلب من الآخرين أن يفعلوه، أسمع صوت تنهداتها فتشير جنوني، أرسم جسدها الذي تصفه لهم والذي ألمسه بيدي يوميًا فأفقد السيطرة على نفسي، فأعود لأنهي رغبتني تلك في مخيلتي ومع نفسي ومع صوتها ورائحة جسدها وملمسه، فكرت مرارًا أن أحدهم الموضوع وأرتبط بها، لكن كان هناك الكثير من العوائق والأسوار التي تحول بيننا، السن والمركز الاجتماعي، حتى مستوى التفكير والرغبة. فلن أستطيع أن أرضيها لوقت طويل، ومن وافقت على بيع جنين تغا، من روحها، مؤكد أنها ستبيع كل شيء من أجل النقود، لن أكون بهدأ أغلى من نبض أحشائها، حتى وإن لم يكن ابنها، لا، عليها أن تعطيني الطفل وتذهب من هنا.

وبالرغم قراري هذا، لم أستطع أن أكبح جماح تلك الغيرة التي اشتعلت في صدري، وخوفي من أن تسول لها نفسها أمرًا، وتقيم علاءه بأي مارق، يعشق سرقة الأجساد».

أخفى عينيه بيده وزفر بمرارة:

- مادلين، أي ذنب اقررت لتصبحي ضحية مسلوقة الإرادة دون ساء

أو رقيق؟!!

١٠٠: ذت تلك الأشهر بسلام، دون أحداث تُذكر، كنا نتابع يومياً نمو
 الجنين وحركته التي كانت تُضفي السعادة على وجهينا، أخذتها
 ١٠١: الأمومة إلى أبعد مما توقعت، فراحت تسألني أي الأسماء سأطلق
 ١٠٢: وابن سيعيش؟ ومن سيعتني به؟ كانت أسألها تلك تُثيرُ غضبي،
 ١٠٣: يعطي نفسها حقوقاً لا تملكها، ما دامت قد قبضت الثمن، لكن
 ١٠٤: ما أعود لاحتضانها ومداعبة مشاعرها تلك، كنتُ أُشفقُ عليها
 ١٠٥: عزلتها والأنظمة الصارمة التي وضعتها لها، من أوقات نومها إلى
 ١٠٦:ها وغذائها، كان للنظام الغذائي أهمية كبرى بالنسبة لي، علّة يُساعد
 ١٠٧: الجنين على تحطيط الخلل الذي في نواة خلتيه، والتي عملتُ كثيراً
 ١٠٨: تعديلهما من خلال اختراق الشفرات المرقمة في الـ (دي إن إيه)
 ١٠٩: (أز إن إيه)، لقد احترمت أوامري، ربما حرصاً على الجنين وليس
 ١١٠: ما مني، ما كان يهمني أن أسترد طفلي من أحشائها، فلستُ على
 مهداد لأن أخسر ذلك المجهود لأي سبب.

بدأ الشهرُ التاسع من الحمل، وازدادت القوانين صرامة ويات موعده
 ١١١: اق وشيكاً، كنت أجدها تحاول جاهدة استجداء عواطفني، فتسألني
 ١١٢: ماذهب إلى السوق، ونشترى ما يحتاجه المولود من ملابس والألعاب،
 ١١٣: مريض عليّ أن تساعدني في تجهيز غرفة نومه، كنت أحس حزنها
 ١١٤: وب المأساة المقبلة، لهذا أخذت أتجنب التحدث إليها كي لا أحبطها،
 ١١٥: امنحها الأمل بشيء لن أقوى على تنفيذه.

فأجدها تدخلُ خلصةً إلى غرفة نوم المولود الافتراضية، تجلس هناك
 ١١٦: ساعات، تداعبُ بطنها وتبكي مأساتها المقبلة، كنت قلقاً من تصرفاتها

هذه ومن عملية الولادة، من حصول أي مفاجأة في أثنائها، وأقسمتُ
وُلِدَ ذلك الجنين بعاهة ما، لم ألاحظها خلال الحمل، أن أرميه في نا
المطحنة البشرية، انتقامًا من القدر الذي لم يتركني يومًا بسلام.

توقف عن القراءة، رمتك تلك الآلة بدهشة وكأنها وحش يفتح
ليتلعه، ثم عاد بعد مجهود إلى تلك الأسطر التي يشتم بينها رائحة
الموت.

«يومًا بعد يوم، كانت تزداد مخاوفها وأسئلتها عن الولادة، خشية
من حدوث أي مكروه، جعلني أفكر في الأمر بشكل جدّي، ماذا لو ما
مثلاً، ماذا سأفعل حينها؟ ربما سأقطعها وأرميها في جوف أكتي السحب
تلك، إنه الحلّ الأنسب، ستبدد هناك، فلا شرطة ستحقق في س
اختفائها، ولا أهل أو أصدقاء سيسألون عنها، أجل إنه الحلّ الأنسب.
تنبأ لهذا الفكر، إنه يقودني إلى الجنون، ما أعرفه وما أنا واثق منه، أنه
سأنهي مهمتي دون أي حساباتٍ أخرى، ومهما كان الثمن.

أيام قليلة تفصلنا عن موعد الولادة، حضرتُ غرفة خاصة في المتنا
لهذا الغرض تحوي كل ما يلزم، مجهزة بأفضل المعدات والعقاقير،
تحتسبًا لأي طارئ، إن نسبة نجاح هذه العملية 90٪، كذلك هي نسبة
نجاهة الجنين».

رَنَّ الهاتف طويلاً قربه، قبل أن يتيقظ لرينه.

- يا إلهي، إنه أبي، لا أريد أن أجب، لا أقوى على سماع صوته.

١٠ هـ رنين الهاتف، لم يُكْمِلْ شافي التقاط أنفاسه، حتى عاود
١١ ال من جديد، عليه أن يُجيب، ربّما عادَ إلى المنزل، أو ربّما يتصل
١٢ بـ موعد عودته.

اهلاً يا أبي، كيف حالك؟

هـ. بزّي شافي أنا بخير، اشتقتُ إليك كثيرًا، كيف تسير أمورك؟

على ما يُرام، متى ستعود؟

اليوم مساءً، بعدَ ما يُقارب الثلاث ساعات، أريدُك أن تأتي لاستقبالي
١٣. طار، معي بعض الضيوف وأودُّ أن أعرفَكَ عليهم، سنتناول العشاء
١٤. الليلة في الفندق حيث يقيمون، قبل أن نعود إلى منزلنا.
١٥. لن أستطيع أن أُكْمِلَ القراءة، عليّ أن أنتظر إلى حين عودتنا
١٦. ده إلى النوم؟.

الو.. أين أنت يا شافي؟ هل تسمعني؟ لماذا لا تجيب؟

اسف يا أبي، أنا هنا أسمعك، لا تقلق سأكون بانتظارك.

حسنًا، أرجو أن تصل قبل الموعد، فضيو في أشخاص بارزون،
١٧. أريدُك أن تتأخّر علينا، إلى اللقاء.

افضل الهاتف دون أن يودّعه، ثم أقفلَ الكتاب وأعاد كل شيء إلى
١٨. صعدَ إلى غرفته، وقفَ طويلاً أمام المرأة، يتفحص جسده العاري
١٩. أمهائه، وكل ما فيه، قبل أن يرتدي ملبسه الرسمية وينطلق لمُلاقاة
٢٠. السفاح البشري.. لكن كيف سيكون اللقاء؟! كيف سينظر إلى

عينيه ويحتضنه ويُقبّله؟! لقد بات ما كُشف أمامه من حقائق أكبر،
 من أن ينساها أو يتجاهلها، يا لهذه المعرفة فثمنها سيكون باهظًا،
 إنها كالمطر الذي يبلّل البذور تحت التراب فيضعف حجمها،
 براعمها لتشقّ غلافها ومعهُ التراب الميت الذي يحاصرها، لتصل إلى
 النور.

استجمَع شجاعته ووقف هناك على بوابة الوصول، إلى أن ظهر،
 من بعيد يلوّح له.

- كم يبدو محترمًا! كيف سوّلت له نفسه أن يفعل ما فعل،
 سبب؟ ما أصعب العناق الآتي!

فتح ذراعيه واحتضنه وكان هذه الأيام القليلة التي سافر خلالها أعز
 قلبه بحرارة العاشق، بينما عناق شافي كان باردًا وقُبلاته وهمية، ذا
 قطعة جليد باردة، لقد اختفى من عينيه ذلك الحنين والشوق الجارح
 الذي اعتاد أن يقابله بهما، يصارع نفسه فيرخي جسده بين يديه به
 ويقبله، تم يعود ليتصلب من جديد محاولًا التملص من حضنه، سرعان
 ما أفلت منه وانتقل ليُلقي التحية على الضيوف معرّفًا بنفسه، سارَ الج
 إلى السيّارة وتوجهوا إلى الفندق.

- ما بك يا شافي، هل أنت بخير؟

- أجل، إنه مجرد إرهاق جسدي.

- هل تؤدُّ أن أقود بدلًا منك؟

دلا، لا داعي لذلك، أنا بخير.

هل انتهيت من أبحاثك؟

نفيًا.. لم يبقَ إلا القليل.

إذن سأساعدك كي تُنهيها سريعًا وسنبدأ بالعمل معًا.

أحابه بصراحة:

لا.. أقصد أنها تجربتي الأولى وعليّ أن أنهئها بنفسني، وإلا فلن
أستفيد من اكتشاف قدراتي الحقيقية، ولا أخطائي التي يجب أن أتعلّم
منها، كي لا تتكرر معي في تجاربي اللاحقة.

أنت على حقّ، إذن سأتركك على سجيّتك بينما أهتمُّ أنا بأصدقائي
الاهمّاء بعض الوقت معهم.

بينما كان الجميع يتلذذ بطعامه، ويستمتع في جلسته، كان شافي شارد
الذهن، يسترق النظر إلى والده من حين لآخر، متسائلًا عن مصير تلك
"أمة"؟ هل ماتت في أثناء الولادة؟ هل قتلها ورمى جسدها فعلًا في تلك
الآلة كما كتب، أين أصبح ذلك الطفل؟ هل قتلهُ أيضًا؟ هل وُلِدَ سليمًا؟
أليس هو الآن؟ ومن يكون؟

24

حضّرت نعمة نفسه، وقفَ أمام المرأة، مرّة غير كلّ المرّات، الـ
ستأتي مايا وتصطحبه إلى المدينة، رغم ذلك القلق الذي ما زال يـ
عند اختلاطه بالآخرين، باستثناء ملاك طبعًا ومايا والدها.
ربت ملاك كتفه بلطف بعد أن عدلت ياقة قميصه، ثم عقبته
حيرته وقلقه:

- متأكدة أنكما ستمضيان وقتًا رائعًا، سوف تستمتع برفقتها أكثر،
رفقتي، فهي إنسانة طيبة وحنون، تُدرك كيف تستوعب الآخرين، وكـ
تتعامل معهم، وسوف تعني بك.
ابتسم قائلاً:

- أنت محقّة يا أتي، عندما دخلت غرفتي في المستشفى، شعرتُ
بطاقة غريبة تملأ المكان، ولم ألحظ وجود أستاذي معها إلا لاحقًا.
- إنهم أناسٌ طيبون حقًا.

- أنا أحبّهم كثيرًا، لقد شعرتُ بدفء العائلة عندما اقتربتُ منهم،
مشاعر حُرمتُ منها ولا أعرف كيف تكون حقيقة، لكنني متأكّد أنها شيء
ما يشبه الطاقة، كذلك التي لامستني وتسوّيت إلى روحي فأسكنتها.

• رت دقائق من الصمت، راحت تراقب فيها تلك التعابير التي ارتسمت
• ملامحه، والتي لم تقرأها من قبل، إنه يُفصح عن نفسه بشكلٍ أوضح،
• بحث عن ذاته في الآخرين وعن العائلة في مشاعرهم.

• با صغيري أحس بوجعك ووجدتك، لكن تأكد أن هناك الكثير
• يعيشون ضمن أسر كبيرة ويفتقدون متعة تلك الروابط الأسرية،
• لك أشد وطأة من فراغك هذا.

• لا تقلقي عليّ، لقد اعتدْتُ على نمط حياتي هذا وأحبُّه أيضًا، حتى
• ما كنت تصطحبيني معكِ إلى بيتك، ورغم محبة إخوتي لي، كنتُ
• أهدأُ غرفتي، وأعدُّ الدقائق إلى أن أعود إليها، ربّما جعلني القدر وحيدًا
• أي أحبّ الوحدة، وربّما لو كان عندي عائلة كنتُ سأتركهم وأعيش
• حدي كما أنا الآن.

• لا أعتقد هذا، إنك لم ترّ ملامحك عندما دخلَ أستاذك ومايا معه
• إلى غرفتك في المستشفى.

• إنها مختلفة يا أمي، لقد فتحت الستائر دون أن تسألني ودون أن
• أستر حالتني أي اهتمام، لم تكثرِث إن كنتُ سأزعج من النور أم لا، إنها
• ملك قوّة الحياة وأشعة الشمس التي تفرض نفسها على الظلام.

• لقد حاولت أن تنقل لك هذا الإحساس، تتعمّد، أم تتصرّف بعفوية؟
• لا أعرف، لكن على ما يبدو أن تصرفها كان صحيحًا وقد انعكس عليك
• بشكلٍ إيجابي، لهذا يجب أن تكون مستعدًا للتغيير وأن تفتح قلبك
• وعقلك له ولها.

قطع حديثهما طرقاً خفيفاً على الباب، رمقت ابتسامته بنظرة مائتة،
قائلة بفرح:

- لقد وصلت صديقتك الحبيبة؟

مايا المفعمة بالحياة ستكون دليله في المدينة التي يقطنها، ولا يعبء
عنها إلا القليل، إنه مرتبك بعض الشيء، لاحظت ذلك، لذا لم نظر
عليه الأسئلة، ولم تُشعره بأن ارتياكه هذا من الممكن أن يؤثر على مسأله
جولتهما، جابا العديد من الشوارع وعبّرا العديد من الجسور والأنفاق
إلى أن وصلا إلى مقهى جميل، يقع على عوامة في وسط الماء.

- انظر يا نعمة، سنجلس على هذا المركب، نتناول غداءنا
وعندما تنتهي سنعود إلى البيت. كأنّ عليهما اجتياز جسر خشبي متحرك
للوصول إلى هناك، لاحظت تردده فسارت أمامه دون أن تُعير قلقه
أي اهتمام، كانت فكرة العودة إلى المنزل في هذه اللحظات تساوره،
يستطع أن يخبرها أنه خائف، ومن الممكن أن يفر هارباً، إن تحرك ذلك
الجسر تحت قدميه، ولكنه أبى أن يُظهر ضعفه هذا، وهو يعرف جيداً أنها
قد أحضرتة إلى هنا بالذات كي تجربه على تحدي نفسه، وتعلمه كيف
يقوى على مخاوفه، مدّت له يدها، وبلغت الأمر لا السؤال قالت:

- هيا تعالٍ نعبه معاً، أعطني يدك.

تردد قليلاً، فلم تلامس يده يداً أخرى طول حياته، باستثناء يد ملاك،
حتى إنه كان يتجنب المصافحة ولا يحنّذها، لكنه أمام تحدّي آخر، عليه أن
يجتاز الجسر، وأن يثبت لها أن رهانها عليه لن يخيب.

و احيزًا أمسكت يده، فانقسم خوفه وتركيزه بين الجسر واليد، فمرت
الخطوات دون أن يشعر بها.

جلسا على طاولة قرب الماء، كان بإمكانهما أن يشاهدا الأسماك
في نسيج هناك، أفرحهُ المشهد كثيرًا، عندما تجتمعوا قرب المركب
رمت لهم مايا بعض فئات الخبز، ضحكا كثيرًا، عندما حاولا ببراءة
إطعام لهُ إحصاء عدد تلك الأسماك، وتخصيص بعضها ببعض قطع الخبز
البرية، هذه الأجواء الممتعة أخرجته نهائيًا من حالته، وأنسته من يكون
الذي ما حصل معه، كان يُراقب تلك الأسماك وهي تتسابق للحصول
على الطعام تحت ناظرَيهما، طرَحَ هذا المشهد عليه عدَّة أسئلة راح
يحسب عنها بنفسه، إن كانت هذه الأسماك الصغيرة تُقاتل من أجل البقاء،
إن كانت هذه الأسماك الصغيرة لا تخشى تلك الأكبر منها وتُسابقها، إن
كانت هذه الأسماك لا تخشى عمقَ البحر وغموضه وخطورته، فما هو
و فمي أنا مما يدورُ حولي؟

لن أدع هذه المخلوقات الصغيرة تتفوق عليّ، لا بدّ أن أحاربَ مثلها
و الا أخشى شيئًا وأن أُثبتَ ذاتي للجميع وأن أكون أنا.

- أخبرني يا نعمة، كيف تسير أمور عملك في البيت؟

- جيّدة، أشعرُ بالراحة، وبأنّ الألحان تنساب كالجدول بين الصخور
دون أن تعوقها جبالٌ أو منحدرات.

نقلَ لسانها فرح قلبها:

- رائع يا نعمة، يبدو أنك ستُنَجِّب معزوفة جديدة أسطورية.
لا مثيل لها.

- أجل، سأسعى جاهداً لتكون كذلك.

- أنا سعيدة لأنك وللمرة الثانية استطعت معاندة الحياة والاستمرار.
رغم قسوة التجربة التي تعرّضتَ لها.

شحب وجُهِه من مرارة الذكرى، فعقبت على حديثها بهدوء:

- آسفة جداً يا نعمة، لم أكن أقصد تذكيرك بما حصل، لن ننأى
عن الموضوع مرة أخرى، ما مضى أصبح في سلة نفايات النسيان.
وغداً سيكون يوماً جديداً بكل المقاييس، قل لي هل أصبحت جاهزاً
للتدريبات؟

- لا، ما زال أمامي متسع من الوقت، ولكنني قلق من مواجهة زملائي
من جديد.

- أنت محق، عندما نبتعد عن شيء ما، يبني البعد بيننا سدوداً وهمية
من الصعب علينا لاحقاً هدمها، وبتراكم على مشاعرنا غبار الأيام، والنهي
نخاف أن نخفقنا إذا ما حاولنا إزالتها، ولكن، لكيلا تقع فريسة هذه
المشاعر، ولكيلا تفرض على نفسك مواجهة حتمية مفاجئة معها، عليك
أن تزور المعهد ولو لدقائق، لتكسر قلقك، قبل أن تبدأ التدريبات مع
المجموعة.

صمتت قليلاً وهي تلاحظ وقع كلماتها عليه، لم تعجبه الفكرة، أو ما
برأسه غير مبال.

• ما رأيك بما أن مزاجك جيد اليوم، ما رأيك لو زرنا المعهد معًا؟
• بن عملك وسوف تجلس معهم شئت هذا أم أبيت، وستعملون معًا
• أم آجلاً، من الممكن أن تكتب موسيقاك أينما شئت ولكن عليك
• حسم نواتك الموسيقية هذه على آلات خلفها موسيقيون، ولن
• نجاحكم إلا إذا كان أمامكم جمهور يرصد إبداعكم هذا والإبداع
• ن دون عمل جماعي.

لا أريد أن أذهب إلى هناك.

إنه مقر عملك، وستذهب إلى هناك شئت ذلك أم أبيت، فلن تحضر
• نه بأكملها إلى غرفتك.

إذن؟

سنذهب الآن معًا أنا وأنت.

مازن هناك وسيغضب مني عندما يرانا معًا.

لهذا سنذهب، أنت صديقي يا نعمة، وأنا من يختار أصدقائي،
• ان هذا ليس له أي حق في أن يسير حياتنا كما يريد، أنا صاحبة القرار،
• ان صديقي.

أكملت كلامها بنبرة متوترة تنبئ بهبوب العاصفة.

اسمع يا نعمة، لا تسمح لأحد أن يرسم عنك حدود حياتك، هو
• ار ف من العازفين الذين يعملون تحت إمرتك، أنت من يكتب هذه
• الالحان، جميعهم تلاميذك، كما أنك تلميذ لوالدي، وهكذا تراتبية
• العباة، لقد ميزك الله بهذه النعمة وعملت على تطوير نفسك لأعوام في

ظروف صعبة للغاية، درست واجتهدت ونجحت لتكون أنت، لا،
قائدًا، إذن يجب أن تكون بغض النظر عن أي ظروف أخرى، وعليه
يحترموا تميّزك عنهم، ومجهودك أيضًا.

كان يصغي إليها باهتمام محاولاً تلبس ثورتها تلك، صمت قلباً
أن يزف لها الخبر السعيد:

- أنت محققة، حسنًا هيا بنا، وسأحاول أن أتخطى مشاعري،
المستطاع.

وصلا إلى هناك، صعدا درج المبنى معًا، يدًا بيد، بُعيدَ المرور بها،
غرفة التسجيل استوقفته، فترك يدها، وعبر المسافة المتبقية بخطى مترددة
بين الإقدام والتخاذل، ثم رمق غرفة التسجيل بطرف عينه.

- تعالَ ندخل إلى هناك، إنه المكان الأحبّ إلى قلبك يا نعمة، الـ
تقل لي هذا سابقًا؟

دخل بعد تردد، فوجده وقد عاد إلى سابق عهده، بعد أن أصلحوا الـ
ما حطمه ذلك اليوم.

جلست على الأرض، وأشارت إليه بيدها، فجلس بقربها.

- هل رأيت يا نعمة؟ المشكلة ليست في المكان، المشكلة فينا نحن،
البشر.

ابتسم بهدوء وراح يراقبها وهي تتكلم.

أنا سعيدة لأنك تخطيت هذه العقبة بأمان، والآن سنذهب
إلى نحية على زملائك، قبل أن نغادر. من المؤكد أنهم قد افتقدوك،
• حون كثيرًا بعودتك.

• همهم وجهه من جديد، فموعد لقائه بمازن بات مؤكداً لا محالة.
لا تفكر كثيرًا، هيا تعال.

دخلوا صالة التدريب، وكانت المفاجأة، ما إن ألقى التحية
• هم حتى علت صيحات الترحيب، تعبر عن سعادتهم بوجوده
• هم من جديد، هو أيضًا تقبل هذا بفرح عارم كسر قلقه غير المبرر.
• هالت عليه مشاعرهم العطوفة من كل صوب كأمطار الصيف المنعشة.

أستاذ نعمة، حمدًا لله على سلامتكم.

• قلقنا عليك كثيرًا.

• اشتقنا إليك كثيرًا أيضًا.

• أحسنتِ عملًا يا آنسة مايا.

• هل ستبقى هنا أم أنها مجرد زيارة؟

• هل انتهيت من كتابة السيمفونية الثانية؟

• متى سنبدأ بالتدريبات النهائية؟

أعادت حفاوة اللقاء، نبض الحياة إلى قلبه، وزوّث ظمأ روحه،
صافحهم وقبل البعض منهم، وكان آخرهم مازن، الذي وقف يُراقب

الموقف عن بُعد، ومن عيني مايا الراقصتين فرحاً، عَلِمَ أن حربه مع .
خاسرة، اقترب منه ومدَّ له يده مطمئناً على صحته، فما كان من نعمة |
أن صافحه بعد تردد شاكرًا.

- الحمد لله على سلامتك يا نعمة.

بعد أن أحسَّ ملمس يده، تلاقى عيونهما للحظات عابرة، وقرأ |
منهما ما أراد الآخر قوله. رمق مايا بنظرته المتوترة، ليقول لها في سر .
«أعرف أنه الفاعل».

- أنا بخير يا مازن، ما زلت حيًا، شكرًا لك، وسأعود قريبًا لأد |
عملي معكم.

١٠٠. أما أخريين، وكان البروفيسور سالم قد استنفد طاقته بين السفر
والسهر.

١٠١. اسف يا شافي لن أستطيع أن أكمل سهرتي معك كما وعدت،
الآن إلى النوم، ليلة سعيدة.

١٠٢. لا بأس يا والدي، أنا أيضًا سأخلد إلى النوم، ليلة سعيدة.

١٠٣. منذ كلّ منهما إلى غرفته، بعد قليل خرج شافي من جديد، عبر
الهدوء، توقف أمام غرفة والده للحظات، ثم توجه إلى المختبر،
الك الكتاب الأسود، ليكمل قراءة أساطيره.

١٠٤. اعمل خلفه الباب متحرّقًا لمعرفة نهاية تلك المسكينة وابنها.

١٠٥. أت آلام المخاض، وعلا صُراخها بين أرجاء المنزل، حضرت كل
١٠٦. ناج إليه من عقاقير وأدوات ومعدّات طبية وكانت جميعها معقمة
١٠٧. بات المكان كغرفة عمليات في أهم مستشفيات المدينة.

١٠٨. وف الوضع لم تكن سهلة، إنها ولادتها الأولى، وتجربتي الأولى
١٠٩. ولكن هذه التفاصيل لم تكن تخيفني، فُجّل ما كنت أتمناه أن يخرج
١١٠. أهل إلى الحياة سليمًا معافى.

ساعاتٍ مرّت، لم تنقطع فيها عن الصراخ والبكاء والتوسل بأن اء
بابها.

- إنه طفلي.. أرجوك.. لا تدعه يموت!

هذه الكلمات شلّت تفكيري، إنه حقًا طفلها، وهي التي تتألم من اء
هي من حملته تسعة أشهر في أحشائها، هي من حرّمت النوم والء
والراحة كي يولد سليمًا، ربما ليس من أجله بل من أجل النقود، اء
حتى لو كان هذا صحيحًا، فكُلّ نقود الدنيا لن تشتري حياة أو تهء
ساعة ألم واحدة، كم كنتُ محظوظًا لأني وجدتُ امرأة مثلها لم تهء
الأمومة، كان من الصعب أن أقنع أخرى عاشت فرح التجربة وألمها
تؤجّر رحمها مهما كانت المغريات. قطع صراخها حبل تفكيرهءء
تنادي أمها وتتوسل إلى الله أن يسامحها، وتطلب من الأولياء والأءء
أن يُخلّصوا ابنها، لم يكن أمامي إلا أن أواسيها وأشدّ عزيمتها وأءء
على الصمود من أجلي وأجله.

ها هو بعد صراعٍ مريرٍ يُخرج رأسه بدفعٍ من الرحم الذي أءءء
الحياة، ويُخرجه إلى الحياة، برزّ كنفاه ثم انزلقت باقي أطرافه مع اءء
السائل اللزج الذي عاش في داخله تسعة أشهر حيث تغدّى وتكبّر عاءء
حملته إليه.

- هذني من روعك يا مادلين، لقد انتهى كلّ شيء، ها هو الطفل
يدي.

احت على السرير وأجهشت بالبكاء، كمن حُدِّدَ موعد إعدامه،
هت وجهها المبلل عرقاً ودموعاً، أمسكت يدي، قبّلتها وشكرتني،
انت إلي أن أعطيها الطفل قليلاً كي تراه.

هجب أن أنظف جسده أولاً، استريحني أنت الآن، نامي قليلاً
اصعه بقربك عندما أنتهي.

..سأقت دموعها بصمت، وهي تشدّ طرف سريرها عليها تخفف
ك الضغط ألم روحها الذي فاق بأضعاف ألم مخاضها، بعدها لم
ع لها صوتاً، وكان الحسرة قد خنقتها».

و فف عن القراءة، مسح دموعه، ثم أكمل.

«لا عليك مادلين سترينه بعد قليل، أعدك بذلك، دعيني أساعدك
٦٠ قبل أن أعطيك إياه».

أطفئت جسدها، ألبستها ثوباً نظيفاً وقدمت لها العصير دون أن أنسى
مع ذلك المنوم فيه، كانت هذه أفضل طريقة كي أحتفل بالطفل دون
عاج، أن أفرّج به، بعيداً عن نظراتها الحاقدة الحزينة، فمئذ سنين وأنا
..ل من أجله، ومن أجل هذه اللحظة.

حملته بين يدي بعد أن غسلت جسده، ولم تسعني فرحة الدنيا
١٠٠ها، لقد نجحت، إنه أول طفل مستنسخ يجتاز كل مراحل الحمل
١٠٠اللادة، ويصل إلى الحياة، إنه طفل البروفيسور كميل سالم، أين أنتم
١٠٠علماء العالم، هذا هو الطيب العربي الذي حاربتموه بسبب انتمائه

واسمه ولون بشرته، ها هو يثبت الآن أنه أفضل منكم جميعاً، وأه
من القدر ومن إرادة الله التي حرمتني من أن أرتبي طفلاً معافى، انط
جميعاً.. جسده كامل وحواسه، طفلاً ذكرٌ مُستنسخ من بويضة ونواة
معدلة وراثياً، ونتأج رحم حاضن.

تحسستُ وجهه، داعبتُ شفتيه فحاول التقاط إصبعي:

- آه، أنت جائع، سأطعمك الآن يا بطلي.

أعطيته بعض الماء الممزوج ببعض نقاط العسل، بعد ذلك أح
معني إلى غرفتي، وضعته على السرير هناك، دونتُ على دفتري ته
المعلومات السابقة، وزنه وطوله وساعة ولادته، اسم صاحبة البيه
مصدر الخلية، اسم صاحبة الرحم، سنّها، عدد البويضات المائة
المتبقية.

- لا أفهمه.. هل أعاد استنساخ البويضات الملقحة الأخرى؟

لا أصدق!

قلب الصفحة كالمجنون وأكمل قراءته.

«كان جميلاً جداً، نسخة طبق الأصل منه، هادئاً كملك، واستلق
على السرير قريبه، وعاد بي التفكير في واقعي، كيف سأنهي قصة ماد
الآن؟ كان هذا السؤال الأهم.

بعد ساعات قليلة أيقظني بكأوه من غفوتي، فأطعمته من جد
وبدلتُ له حفاضة، ثم عاد للنوم، تركتهُ وذهبت لأطمئن على والي.

١٠ فانت لاتزال تحت تأثير المنوم، رحّت أراقبها من جديد، وكأنني
١١ الأولى مرة، شعرها الطويل الأسود وبشرتها البيضاء، لم تكن
١٢ بأه البياض هكذا عندما التقينا، ولكن بعد سنة ونصف بين جدران
١٣ المنزل، تعيّرت ملامحها كثيا، سأفتقدُها طبعا بعد رحيلها سيتسلل
١٤ إلى حياتي دونها، فكثرت مجدداً أن أبقيا، لكن هذا مستحيل،
١٥ بها أن ترحل وسريعا، كي لا تسبب لي أي مشاكل.

١٦ لملمت في سريرها معلنة بدء جولة جديدة من المعاناة، فتحت
١٧ بها قليلا، وجالت بهما في أرجاء الغرفة، عادت لتنظر إلي، وبصوت
١٨ مب متقطع قالت:

١٩ شكرا لأنك هنا، وشكرا على كل شيء، لكن أين طفلي؟ أريد أن
٢٠ أارجوك.

٢١ انسل سؤالها النار في عروقي، ولكن فضلت أن ألتزم الصمت،
٢٢ ب أن تعافى وبسرعة كي ترحل، وتتركني معه بسلام، فتح صمتي
٢٣ أسود دموعها، وأعادها إلى نوبة البكاء التي لن تستكين إلا برؤية
٢٤ هبل، كترت توصلها.

٢٥ دعني أراه أارجوك، أعرف أنني قد عقدت معك صفقة مشؤومة
٢٦ أسي سأدفع الآن ثمن فقري ومعاناتي وربما طمعي، لكن كلّي أمل بأنك
٢٧ بحرمني رؤيته هذا الأسبوع على الأقل، قبل رحيلي، أارجوك، من
٢٨ أا، يجب أن يتغذى بشكل صحيح وينعم بحنان الأم وعطفها ودفء

أحضانها، أنت طيبٌ وتعلم أهمية ما أقول وصوابه، أريد أن أرها،
أن تجد له مربية، بعد ذلك سأغيبُ نهائياً عنكما وللأبد.

إنها على حق طبعاً، وبما أنها لا تمنع أو تعارض فكرة الرشد
فلا ضير من بقائها قربه ورعايته في أيامه الأولى هذه، سأبقيها نه
مراقبتي طيلة الوقت، ولن أدعها تنفرد به أبداً، ربما أخذته وهربت،
ربما قتلته انتقاماً مني، كلا.. لن تفعل ذلك، فهي أم حنون وتخاف
ربما أكثر مني.

ذهبتُ إلى الغرفة وأحضرتُه اليها، ضمتُه إلى صدرها وراحت نه
كالمجنونة، تتحب وتبكي بحرقة تفوق بكاء الأمهات اللاتي أفقاهن
الحياة أطفالهن، كم هي مسكينة، لم أتوقع أن تكون عاطفتها متاحة
على هذا النحو، يبدو أنها لم تحسب يوماً حسابَ هذه اللحظات الحزينة،
لقد راهنت ربّما على إيقاعي في غرامها.

إنني حزينٌ جداً، لقد كان المشهد جدّ مؤثراً، إنه أسوأ أسبوعٍ عندي،
في حياتي، رغم فرحي بنجاح تجربتي ونجاة الطفل، إلا أن مادلين،
تتوقف دقيقة واحدة طوال هذا الأسبوع عن البكاء، أرادت أن ترضع،
فمنعتها، كي لا يعتاد على حليبها، وحتى لا تتسمم خلاياه من مشاعره
المرة التي تسير في عروقها ودمايتها، رغم هذه القرارات الصعبة
والقاسية أحياناً، لم أبخل عليها باهتمامي الشخصي بغذائها والعناية بها،
وتنظيم فترات نومها من خلال الأقراص المنومة، لقد كان النوم هو الحل
الوحيد لإنقاذها من آلام هذه الأيام المأساوية، والمُساعد الأهم عار
استعادة عافيتها.

١٠ كل شيء جاهزًا كما وعدت، شققتها المفروشة، ومفاتيح
 ١١ التي ستجلبها باسمها، موعد مع أهم طبيب نسائي في بلادها،
 ١٢ النها بعد الوضع وليجري لها عملية الترميم التي وعدتها بها،
 ١٣ حرمت أمتعتها وكل ما تريد أن تأخذه معها، مجوهراتها وأشياءها
 ١٤ وكل ما أحضرته لها، جواز السفر وتذكرة الطائرة، دفتر التوفير
 ١٥ نصف مليون دولار، لقد حرصت على تجهيز كل ما تحتاجه غلّه
 ١٦ منها عبء لحظاتها المؤلم، لكن، لم يكن هناك من شيء ليخفف
 ١٧ها، وليطفى نار فؤادها المحترق، وليبعد عنها وطأة لحظات الفراق
 ١٨ (رحلة أشهر تسعة، سوف تحتاج إلى بعض الوقت لكي تُشفى من
 ١٩ الألام، لقد كان رحيلها أنسب الحلول، فوجودها بين عائلتها من
 ٢٠ آتة سيساعدها على النسيان.

٢١ فعنا هناك قرب الباب، وكان بين ذراعيها، تقبل غطاءه ويديه، وتأمله
 ٢٢ لتتمرر بعدها أصابعها على تفاصيل وجهه الصغير.

ماذا ستسميه؟

٢٣ أرجوك لا تطرحي الأسئلة، هيا عليك أن تذهبي وإلا ستفوتك
 ٢٤ الطائرة وستضطرين إلى حجز بطاقة أخرى والانتظار في زحمة المطار
 ٢٥، موعد الإقلاع.

٢٦ مينا دقائق على هذه الحال، أخذته منها وهي تحاول أن تحتضنه أكثر
 ٢٧، حتى لوضع ثوانٍ إضافية.

٢٨ اذهبي مادلين، أرجوك لا تصغي علينا الأمر.

جئت على قدمي وراحت تتحب.

- أرجوك دعني أبقى هنا، سأعمل خادمة لديك، سأفعل كل ما
وكل ما تطلبه مني، لن أبوح بشيء لأي أحد كان، وكل ما حصل ..
بيننا سرّاً دفيناً، تُخذ النقود أرجوك وكل ما أعطيتني إياه، تُخذ ما ..
ودعني أبقى معه.

طالما خشيتُ هذه اللحظة، عليّ أن أثبت على موقعي، ولا
دموعها تؤثر بي، أدركت لها ظهري وطلبتُ منها الرحيل فوراً.

- مادلين.. لن يغير ما فعلينه شيئاً، إن لم تذهبي الآن سوف ألفنا
قضية سرقة وسأنفيك مجبرة خارج البلاد، وستخسرين كل شيء،
لا تستطيعين البقاء هنا دون كفيل، وأنا سأندبر الأمور بنفوذتي، وأجاء
يرميك بعيداً دون رحمة، اذهبي ولا تجعليني أؤذيك.

تقاطعت أنفاس شافي وصاح بآلم:

- لم تعد أكام قميصي تستوعب المزيد من الدموع، أشك أنا
والدي، وإن كنت، فأنا من المؤكد بذرة شيطانية ستلعنها الحياة انعام،
لتلك المسكينة.

بأنامله المرتعشة قلب الصفحة وأكمل.

فزحقت قرب قدمي ترجوني، استدرتُ وصرختُ بها بصدا
وحزم:

- انهضي حالاً.

«ففت بصعوبة محاولة تهدئة جسدها المرتجف، ومسح دموعها
بـ حجب الرؤية عنها.

اسمعي، أمامك دقيقتان لتستقلي سيارة الأجرة وتنطلق من هنا
١٠ ستندمين، سوف أدخلك السجن بتهمة تأجير رحمتك مقابل النقود.

حيم اليأس على وجهها، وأدركت أنها قد فشلت بالتأثير عليّ، وليس
بها حل آخر إلا الرحيل، ونسيان ما حصل، قُبِلت يد الطفل وجبينه،
بـ مررت باتجاه سيارة الأجرة، ورحلت.

لنتُ حريصاً على أن أبلغ عنها السلطات بعد أن أقلمت الطائرة،
٢٠ ستُ عليها بتهمة السرقة والدعارة غير المرخصة، وهكذا سيُعَمَّم
مها على جميع مطارات ومرافق البلد، وإن هي فكّرت بالعودة فستعود
بـ السجن، ولن تتمكن من إزعاجي أبداً. بعد رحيلها جهزت أغراضني،
٣٠ سأعيد الفيلا إلى أصحابها، وأعود إلى بيتي حيث مختبري وحياتي
"هادئة".

- أيها المجرم الحقير، قتلتها ألف مرّة وتخشى إزعاجها لك؟ وماذا
الآن؟ ما الجريمة التالية؟ وماذا سيحلّ بذلك الطفل المسكين بين
بـ بك؟

انتقل إلى الصفحة التالية ليقرأ تتمة الجريمة، لم يابه بحلول الصباح
بـ لا بوالده الذي ينتظره على مائدة الفطور، أراد أن يقرأ الجزء الثاني من
الجريمة وما حلّ بذلك المخلوق البريء، إلا أن الصفحة كانت فارغة،

فتَح الثانية بعصية، فارغة أيضًا، الثالثة، الرابعة، العاشرة فارغة، الأخير،
انتهت القصة هنا!

صاح بمرار وألمٍ شديدين:

- ماذا؟ انتهت هنا؟ كلا.. أيها المُخْتَلِّ قل لي الآن ماذا فعلت بذا!
الطفل؟ لا يُمكنك أن تتوقف عن الكتابة هكذا.. من هو؟ أين هو؟
حقير.. سافل.

عادَ إلى غرفته مهزومًا محطّم الفؤاد يجرّ ذبول خيبته خلفه، أماه
الخدم الأليز عجوه، وأن يبلغوا والده اعتذاره عن عدم الانضمام إليه عام
القطور بسبب تأخره في العمل.

أقفل الستائر وجلس على سريره، تلحف غطاءه، وراح يجمع خيوط
هذه الرواية الدرامية منذ البداية حتى تلك الصفحة الأخيرة..

- ما زالت هناك بويضات ملقحة، لكن الثلجة فارغة، هل أنلهها
أم استنسخها أيضًا؟ ومادلين، أين هي الآن؟ لقد تعلّقت روجي بها
وبطفلها أيضًا، ومايا.. ماذا سأفعلُ معها؟ هل أخبرُها أم أبقى أسرارها،
هذه لنفسي؟

لم يلاحظ الوقت وكَم مرَّ مِنْهُ وهو جالسٌ مع صمته دون حراك،
استيقظ من غيبوته محاولاً استجماع قواه، أدرك أن ما ينتظره مريب،
وعليه أن يكون متيقظًا، متنبهاً، حذرًا، متكتمًا للوصول إلى أهدافه دون
عوائق.

بدايةً يجب أن أبحث عن سجلي الطبي لأدرك حقيقة مرضي،
وهلني المنسية ووجه أمي، البيت.. وغرفة النوم التي اخترتها واخترت
أناها بنفسني، لا بُدَّ من وجود سراديب وخزائن سرية أخرى، سأفتش
المكان على حدة، يجب أن أبعدُه عن المنزل لأطول مدة ممكنة حتى
أبني لي البحث بحرية، عليّ أن أتحدى بالحكمة والصبر! يجب ألا أظهر
أشعائي وكبري له، سيكون ذلك صعبًا، إنه فائق الذكاء وسيلاحظ أي
ألم في مشاعري تجاهه، وذلك الصندوق، وسأبحث فيه مجدداً، عليّ
أمد حلولاً لهذه الأحاجي.

حان وقتُ الغداء، أخذتُ حماماً بسرعة، ارتدى ملابسهُ ورسمتُ على
وجهي ابتسامة صفراء بلون دهاء والده، الذي لا شك أنه ورثه عنه، توجهتُ
إلى الصلاة وجلستُ معه على الطاولة بعد أن قبلهُ قبلَةَ الصباح التي تعيَّب
مها وكان شيئاً لم يكن.

- آسف يا أبي لعدم التحاقني بمائدة الفطور، لقد عملتُ في المساء
منى وقت متأخر وكان الإرهاق يغلبني. ابتسم قائلاً:

- لا عليك يا عزيزي، ما دام العملُ غريمي، ولكن لا تُجهِد نفسك
شيراً ولا تحمّلها ما يفوق قدرتها.

- لا تقلق، أعلم حرصك الدائم على صحتي، وأعلم أنك
لم تتوان يوماً عن تقديم الغالي والنفيس من أجلي، لكن ما
أسمى إليه الآن هو تقديم إنجاز ضخم للبشرية باسمك، كي
أقول لك شكراً بأسلوب، كل ما أحتاجه بعض الوقت فقط.
أجابه بعطف ومحبة:

- أيها الحبيب، أنت أعلى ما قدّمت لي الحياة، لا تقلق، لديك،
تريد من الوقت، لكن ليس لسنوات، ولا تنس أنني أنتظر، أريد أن أم
بإنجازك هذا قبل أن أموت.

- لا لن تموت يا أبي، لن يكون هناك موت بعد اليوم، ما عملت ما
أنت هو صناعة الحياة، أما ما أعمل عليه أنا فهو استمراريتها وأبدنها
وذلك من خلال تعديل الجينات وتطوير الخلايا وتزويدها بهرمون
خاص يغذيها ويجعلها قادرة على الانقسام والتجدد وإنتاج جزيئات
العوامل المسؤولة عن حياة الجسد وأعضائه، بغض النظر عن عمرك
السن، سوف أحارب الموت بالعلم، إكسبير باهظ الثمن لن يمتلكه إلا
الأثرياء والعلماء ورجال السياسة وكل من يمتلك النفوذ والقوة، أما عام
الشعب فلن يكون لهم نصيب في الخلود إلا في جنات السماء.

اشتعلت عيناه ببريق شيطاني غريب، عرف شافي كيف يخذل،
ويُسمع ما يتوق إلى سماعه، هذا ما يريده منه، «إكسبير الحياة»، ما كان
ينقصه ليكمل القصة، قصة الخلق والحياة التي لا تكتمل إلا بالانتصاف
على الموت، تقززت عيناه التي تناسى أن يُقفل جفونها من كثرة توارده
الأفكار التي تدور في رأسه المهووس..

- آه.. أنت حقاً ابنُ أهلك وتستحق كل ما قدمته لك.

- شكراً على هذا الإطراء، سأبذل جهدي، أعدك، قل لي كيف كان
رحلتك؟

تململ في مكانه وهو يلقي القوطة على الطاولة قبل أن يجيب
بهدهوء:

جيدة، التقيت بعض الأصدقاء، وكالعادة نهرب من العمل إلى
ل، أنهيت صفقة الأجهزة الطبية التي كنت أعمل عليها، وكل شيء
ثمار سميت له، فصناعة المال قد أصبحت مملة ولا تحرك في فرح
صار.

ملق قائلاً وقد شغل نظره بما وضع في الطبق أمامه:

إنك تسيّر الأمور دائماً بما تقتضي مصلحتك، أهنتك.

أحباب وهو يضحك بفخر وتعال:

وأنت أيضاً يجب أن تتعلم هذا وإلا فلن تكون ابني الذي يشبهني.

سأفعل، أعدك، ولكن اسمح لي، سأذهب الآن، عليّ أن أكمل

..أبي.

هل تحتاج أي مساعدة؟

أحابه بحزم مبطن بالهدوء والود:

لا، قلت لك سابقاً.. ارتح أنت، وإن احتجت، سأطلب منك

أأبدي، ألن تجتمع بأصدقائك اليوم؟

كلاً.. سنحدد موعداً لاحقاً للعمل في الأيام المقبلة.

انقطعت أنفاس شافي عند سماع هذا الخبر: «الأيام المقبلة! إذن

مر في المنزل إلى أن تأتي تلك الأيام، هذا سيعوقني كثيراً».

لم يبق أمامه سوى أن يستغل ساعات نومه، حمل كتبه وجلس في

الباقيفة، منتظراً حلول المساء بفارغ الصبر.

26

أوصلت نعمة إلى غرفته ثم وقفت على الباب مودعة، دعيتها 40،
التي كانت بانتظاره، لكنها اعتذرت لتأخر الوقت وانتظار والدها لها،
رحيلها انهمرت عليه الأسئلة دون توقف.

- قلقْتُ عليك عندما أتيتُ منذ قليل ولم أجدك، كيف ذا.
جولتكما؟ وما سرُّ هذه السعادة العارمة؟

أجابها والابتسامة تملو محياها:

- جولة ممتعة.

- هيا إذن أخبرني بالتفصيل فأنا أتوق لسماع أسراركَ.

بدأ نعمة يقصُّ ما جرى معه وسط دھول تام سيطر عليها وسهال،
أسرت كل حواسها، لم تقوَ على مقاطعته خوفاً من أن يفوتها أي شأ،
أو واردة من هذه الرواية المشوقة.

- هل أنت جاد يا نعمة؟ دخلت إلى هناك وقابلت زملاءك؟

- أجل.. لقد ذهبنا إلى المعهد، ألا تصدقيني؟

- بالتأكيد أصدِّقك، لكن ما تقوله فاجأني..

افتربت منه وحضته ودموع الفرح تغسل ابتسامتها. أطرق قائلاً
•.اه تطاردان الفراغ:

لم يكن هذا سهلاً، فالمكان كبير جداً عليّ، ووجودي هناك يربكني
•.ا، فكرة إنجاز عملي في المنزل تروق لي، وكنت سعيداً بمنحي هذه
•.صه، ولكن مايا أصرت، ولم أرد أن أخذلها.

لا عليك، عامل الوقت سيجعل الأمور تسير بشكل أفضل، قل لي:
•.ا فابلت زميلك الذي أخبرني عنه؟

سكن الحزن صوته من جديد، فتلك الصورة المؤلمة لم تفارقه بعد.
•.ا أجل، إنه يكرهني يا أمي، أحس هذا، لكنه كان منكسراً أمامي،
•.ا الرغم مما فعل لم يتمكن من إعاقتي، ولن يتمكن، فلقد قررت أن
•.ا استمر رغم ضعفي الذي يهاجمني أحياناً، فيكسر في لحظات ما بينته
•.ا في سنوات.

- مشوارك طويل يا نعمة وستصادف فيه الكثير من أمثاله، تجاهله
•.ا تجاهل مشاعره ومشاعرك تجاهه أيضاً، وتعامل معه وكأن شيئاً لم
•.ا.ش، وكأنك لا تراه، ففي الحياة الكثير من الأشياء التي لا تستسيغنا،
•.ا لكن علينا أن نقبلها ونقبلها وأن نتعامل معها، وما أكثر هذه الأشياء
•.ا التي تشبه مازن هذا.

- سأحاول، لقد كسرت زيارتي ذلك الخوف الذي يتباني كلما
•.ا اقرب موعد البروفات، استرخيت كثيراً عندما رأيت فرحتهم بقدومي،

كانوا صادقين، شعرت بذلك، أفكر جدياً بالعودة إلى هناك وإنهاء أعماله
كالمعتاد، مثل الآخرين، وكما كنت أفعل سابقاً.

لم تصدق ما سمعت.

- حقاً؟! يا إلهي! إنه خبر رائع، أنت تدهشني.

عقب بخجل:

- ما زلت أفكر، ولكن الفكرة باتت واردة، عندما استداهمني نوباً.
الشجاعة والقدرة على المواجهة، سأفتح هذا الباب من جديد، وأء.
الشارع، وأدخل مقر عملي دون خوف.

- لا تستعجل الأمور، من المؤكد أن هذه اللحظة ستأتي، أنا سعيد،
جداً وفخورة بك حقاً، أعتقد أن قرارك هذا سيفرح قلب أستاذك وماها
أيضاً.

- أجل.

تاهت عيناه في أرجاء الغرفة تطارد الفرح الذي شعّ منه ليملاً المكان.
ثم أكمل كلامه بعد استراحة فرضتها عليه تلك الضحكات المفعف،
بالحياة والتي زينت نبرة صوته الخافت:

- يا أمي.. لم أكن لأذهب إلى هناك لولا إصرارها، تعرفين، لها
قالت إنها ستأتي غداً إن استطاعت، وسنذهب معاً لزيارة صديقها،
ذلك الشاب الذي يشبهني، أتذكرين؟ لقد أخبرتك عنه سابقاً
ستأخذني إلى بيته، سنفاجئه بالزيارة، إنني متحمس جداً للقاءه، ولكن
أتمنى ألا يزعجه قدومنا دون موعد، فأنا أخشى خيبات الأمل.

لا تقلق، من المؤكد أنه لطيف، وإن زيارتكم سوف لن تزعجه،
أما أقدمت مايا على اصطحابك معها.

أنت محقة.

ادهشها حماسه غير المبرر فسألته مستفسرة:

هل ما زلت تخافه؟

أما ده سؤالها إلى أرض الواقع، فكر قليلاً ثم هز رأسه ناقيًا:

دلا يا أمي، أنا لا أخافه، لكن هناك شيء غريب أثار أعصابي عندما
سألته، كذلك الإحساس المُبهَم الذي يتتابني أمام المرأة، لو رأيتنا
...، وكذ سيصيكِ نفس ذهولي وأكثر.

لقد أثرت فضولي، في كل الأحوال جيد أنك ستقابله مرة أخرى،
... سيبدو قلق مشاعرك تلك، وربما سيؤكد لها، ولكن لماذا لا تدعه إلى
... الأعراف إليه؟

سأطلب منه هذا، ربما سيأتي، إنه لطيف، مايا أخبرتني الكثير عنه.
جميل أن يصبح لك أصدقاء، تُمضي معهم أوقات فراغك، إنها
... ورائعة.

سأذ الصممتُ لدقائق.. عادت خلالها مشاعر الحيرة والتردد إلى
... من جديد، استجمع شجاعته وأطلق ما كان يقلقه للعنان:

أمي، ألم يسأل أحدٌ عني طوال هذه السنين؟ أحد أقاربي أو أفراد
... نبي؟

أجابته وهي تحاول أن تخفي تأثرها وحزنها:

- لا أعتقد يا صغيري، ولو حدث شيء من هذا القبيل، لأخبرنا!
المستشفى بذلك، لكن لماذا تسأل الآن؟ لم يعنك هذا الموضوع،
ولم يُثر فضولك، ألم يعد يكفيك أن أكون أُمك، وأن تكون فردًا من أهلي
أسرتي؟

- لم أقصد ما فهمتِ، ولكن هذا الشاب، وبعيدًا عن ذلك الشبه الذي
يجمعنا، عندما تقابلت عينانا تلك اللحظات القليلة، انتابني إحساس
مختلف، أنت تعرفين قدرتي على قراءة البشر، أشعر بأن بيني وبينه
غريبتا ورباطًا ما، لكن لم أستطع حتى الآن تحديد ماهيته!

أقلقها ما سمعت وشاركتُه حيرته وتساؤلاته تلك:

- لا أعرف بماذا أجيب؟ ربّما هو الحنين إلى العائلة قد استيقظ مع
عند رؤيتك له.

- ربّما، لا أعرف!

- حسنًا أيها المايسترو، سأتركك الآن كي تستريح بعد نهارك العاثر
هذا.

ودّعها وعاد إلى حيثُ أوراقه المبعثرة على الأرض، ارتدى فريسه
وعيناه معلقتان بسقف الغرفة، يضحك حينًا ويغرق في الصمت أحيانًا.
ظلّ على هذه الحال، إلى أن سرقتُه أحلام نومه من أحلام يقطته.

27

١. «زاحل الظلام، بعد أن سكن البيت وتأكد من نوم والده سارع إلى
٢. ر. وأقفل عليه الباب، راحت يداؤه تعبتان بحذرٍ وتنقيباً في أرجاء
الخزانة ومقتنياتها عن أثر يكشف تلك الحلقة المفقودة بين الماضي
٣. «أصر».

٤. أبٌ داخلية، مجوهرات، ثياب طفل حديث الولادة، خصلة شعر
٥. «داه»، ملاقط ومقصات غريبة، وعلبة صغيرة فيها مفتاح صغير مختبئاً
٦. «بعض الأوراق».

٧. اعتقد أن هذا المفتاح يحمل خلفه صندوقاً آخر يحوي أسراراً
٨. «ي»، سأخذه معي وأصنع لنفسي نسخة، ثم أعيده كي لا يفتقدّه.
٩. «راوية الخزانة، كان هناك مغلف فيه رسالة».

١٠. أه إنه ليس خط والدي.

١١. نتبع السطور إلى أن رأى اسم الكاتب في نهايتها.

١٢. «مادلين»!

١٣. قطعت المفاجأة أنفاسه، دهشة وتوتر وفرح وحزن، مشاعر غريبة
١٤. «مناحته مجتمعة، أراد أن يحتضنها، أن يقبلها، أن يعتذر لها»!

- إنها من تلك المسكينة، يجب أن أقرأ ما كتبت، ربما تركت ١٠ ،
أو حلاً للغز من تلك الألغاز.

«سيدي البروفيسور

أيها المبجل العظيم، قبل رحيلي أخط لك رسالتي هذه، وأنت المبدع الذي تنحني له الرؤوس.

لا تعتقد أنني لم أكن مدركة تماماً لما تفعله، صحيح أنني لم أنه
لحل لغز هذه البويضات الملقحة الغربية، لكنني أدركت أن هناك ما،
قد طالك يوماً ما وبقسوة، فصنعت منك عالماً عملاقاً في عالم الله،
وصعلوكاً ذا قلب ميت في عالم الإنسانية.

يوم لقائنا الأول جذبني شخصك كثيراً، كنت أول من اهتم بي كإنسان،
لا كموميس، ونادراً ما نجد نحن سيدات الليل من يفعل هذا، كنت أول
من سألتني عن نفسي وأعطاني النقود دون أن يأخذ من جسدي شيئاً،
أخذته، صحيح أنني عرفت سير هذا الاهتمام بعد أن أخبرتني بما تها
لكن احترامك لزوجتك ورغبتك في تخليد ذكراها جعلاني أتقاضى ..
لؤمي لك وخوفي منك، نعم.. وافقتُ لأنني شعرتُ تجاهك بشيء ..
القبول والإعجاب، نعم لقد راهنتُ عليك وعلى عامل الوقت، ونعم،
حاولتُ أن أوقع بك، لكن عبقاً حاولتُ، لم تُسعنني دموعي التي انهمرت ..
على مرأى ومقربة من فؤادك وأنافسك ولم تُحرك فيهما نبضاً ولا روعاً،
ويُحك أنيها الجبائر كيف لم تُحرك بك ساكننا، كيف لصراخ ذاك الطغا
وبحشهُ عن نديتي لم يثر صمتك وحنوك، كيف لك أن تدع وحيدك يُرغم

١٠٠ الا بكيفيك أنك وبلا شك قتلت امرأة البويضة فأردت أن تقتل امرأة
٢٠٠

١٠١ اها السفاح البشري، كنت اعتقد إلى هذه اللحظة، وأنا اجلس في
١٠٢ ، وقبل أن اعطي الرسالة للسائق أنك ستصل بي، وتوقعت أنك
١٠٣ ، سترى طفلنا ستدرك قيمة ما فعلته من أجل مساعدتك، ولكنك
١٠٤ ، أفسى من القدر الذي رمى بي بين يديك، والذي أرغمني على
١٠٥ ، هذه، وعلى بيع جسدي أيضًا.

١٠٦ هل دموعي التي تساقطت ستعيد الحياة لقلبك الذي أماته الجفاف
١٠٧ ابية؟

١٠٨ بما تقرأ رسالتي هذه أكون في طريقي إلى بلادي منفتحةً قسرًا، يا سيد
١٠٩ ، اذهب إلى غرفة سجنني حيث مكثت ما يقارب الستين، ستجد
١١٠ ، لك كل ما قدمته لي من ملابس وهدايا ومجوهرات، كما ستجد مفاتيح
١١١ ، الكانتاك كافة التي أهديتها، بالإضافة إلى دفتر التوفير الخاص لا ينقص
١١٢ ، إلا سوى الخمسة آلاف ثمن تلك الليلة، أما باقي المبلغ المتفق عليه
١١٣ ، ما بيننا، فبقي كما هو، ما فعله ليس منةً عليك، إنما كي أعيد قليلًا مما
١١٤ ، سرت لشخصي ونفسي ولأن ما سلب مني لا يقدر بمال هذه الأرض.
١١٥ اعلم جيدًا أن ما بين يديك لن يوقف ضميرك، لكن إن حدثت وقفل
١١٦ ، فأنت تعرف أين تجدني، وإني لأرضى بأن أكون خادمة لكما
١١٧ ، سأنتظرك يا كميل، فلا تقتل قلبي مرة ثانية، أتوسل إليك، اهتم بطفلي
١١٨ ادراما لله الذي سلمه لك. مادلين».

- سامحيه يا مادلين.. لا.. لا تسامحيه! مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا لَا يَسْمَعُ الشَّفَقَةَ وَلَا الْغَفْرَانَ، لَا أَعْرِفُ مَاذَا أَقُولُ! لَكِنْ أَعِدْكَ أَنِّي سَأَحَاوِلُ الْعَمَلِ عِنْدِكَ وَعَنْ ابْنِكَ، سَأَجِدُهُ وَأَعِيدُهُ إِلَيْكَ حَتَّى لَوْ اضْطَرَّنِي هَذَا إِلَى أَجُوبِ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ.
- لَمَلَّمْ بِقَايَاهُ وَمَخْتَبِرُهُ الْمُبْعَثُ وَعَادَ أُدْرَاجُهُ إِلَى غُرْفَتِهِ يَجِزُّ أَذْيَالَهُ وَالْأَمَهُ وَأَحْقَادَهُ الْمَتْرَاكِمَةَ عَلَى مَنْ يُدْعَى وَالِدَهُ، ارْتَمَى عَلَى سُرْبِرِهِ، جَدِيدٍ مَحْمَلًا بِثِقَلِ هَدْفِهِ الْجَدِيدِ، وَذَلِكَ الْمَفْتَاحِ الصَّغِيرِ الَّذِي تَمَنَّى أَنْ يَفْتَحَ لَهُ أَبْوَابًا جَدِيدَةً حَوْلَ مَا خَفِيَ مِنْ أَسْرَارِ وَجَرَائِمِهِ.
- بعد غفوة قصيرة، على رنين الهاتف، فتح جفنيه بصعوبة، قرأ... المتصل.
- أهلاً مايا.. أسعدني سماع صوتك.
- صباح الخير، أما زلتَ نائمًا أيها الكسول؟
- لا، إنها غفوة صغيرة بعد عمل طويل.
- إذن ركز معي، وتحضر لجرعة ثانية من السعادة قال ضاحكًا:
- أنا جاهز، فهذا أكثر ما أحتاجه في الوقت الحاضر.
- سأزورك اليوم مع نعمة، فهلا استقبلتنا أرجوك؟
- صمت قليلاً، فبادرت بالكلام من جديد، وقصت عليه ما حصل معه، وكيف أنها منذ ذلك الحين تحاول أن تساعد ليتخطى أزمته تلك.

يا الهي.. ألم تجدوا الفاعل؟ ما هذا الظلم! ما هذا المجتمع
هس؟

ما حدث قد حدث يا صديقي، أريدك الآن أن تساعدني لكي نمكنه
محمل نفسه خارج تلك الأزمات دون مساعدة، أعتقد أن لقاءه بك
، ف يريحه، فمنذ أن رأك وهو مرتبك من هذا الشبه الذي يجمعكما،
، افررت أن نلتقي من جديد بعيدًا عن الرسميات والأماكن العامة،
ر في داخله أي مشاعر من الممكن أن تحدّ من إبداعه وتقيده،
، ضا وهو يتحضر للحفل الموسيقي السنوي الكبير، والذي سترسم
، كنه فيه خطوط مستقبله، يجب أن تساعدني أرجوك.

أجاب بسرعة ودون تردد:

طبعا يا مايا، أنا لا أحمل له أي مشاعر سلبية، على العكس لقد
، ست أن أتقرب منه أكثر، في داخلي شعور غريب تجاهه، وكأنه أحد
، لراد أسرتي.

سكن الفرح صوتها، ونطق لسانها بما صرح به قلبها:

- أه يا شافي أنت رائع، كنت أعرف أنك ستتصرف بهذا الأسلوب
الراقي، لهذا رتبت الزيارة دون أن أعود إليك، فظني لم يخب.

تابعت:

- حسنًا.. سأدعك لتنام بضع ساعات أخرى استعدادًا لزيارة ما بعد

الظهر.

- كيف لي أن أنام بعد هذا الخبر؟

- آه.. شكراً أيها العالم اللطيف على رحابة صدرك.. إلى اللغا.

وضخّ الهاتف جانباً وحاولَ الخلود إلى النوم، لكن ملامح القادم لم تُفارق مخيلته، ترك سريره ووقف أمام المرأة، محاولاً إبعاد فارق ولو بسيط بينهما، فلم تسعفه مخيلته، ضاقت أنفاسه فتركه الآخر خلفه معلقاً على اللوح الزجاجي البارد وخرج إلى الشارع، استرخى على كرسيه منتظراً مرور تلك الساعات التي تفصله عن نفسه من جديد.

هزرت نفسها بسرعة، ثم اصطحبت نعمة من بيته، وتوجَّها إلى

من الطريق، لم تشغلها ثمرات الأحاديث كالعادة، فكل منهما كان
مول الذهن بوقع اللقاء على الآخر، ما إن عبرا بوابة القَيْلَا الرئيسية،
نسَّرت نعمة على نافذة السيارة يراقب بتمعن كلَّ ما يقع تحت ناظريه
هشمة، وشفته ترسمان ابتسامة حنينٍ إلى ماضٍ بات حاضراً في ثوان.

أوفت السيارة أمام باب القَيْلَا الداخلي حيثُ كان شافي بانتظارهما،
ملت من السيارة بسرعة، وألقت عليه التحيّة بحرارة، بينما وقف
همة أمامها مشدوهاً بأنفاسه المتصاعدة يتأمله للحظات بنظراته الهاربة،
م يعود ليلاحظ المكان بكل تفاصيله ملتقاً حول نفسه. راحا يراقبانه
سغربين، ابتسم لهُ شافي مرحباً، فلم يعره أي اهتمام، وأكمل دورانه.

همست قائلة:

- تريت قليلاً، ربما بهره جمال المكان، أرجوك تعامل مع انفعالاته
بشكل طبيعي.

- لا تقلقي يا مايا، إنه في أيدي أمينة وأنتِ أيضاً.

بعد دقائق كسر شافي حاجز الصمت:

- أهلاً بكما.. سُررتُ بزيارتكما، سعيدٌ برويتك يا نعمة.

توقف عن الدوران وراح يحدق في وجهه وتفصيله، تهرب منه في أرجاء المكان فيعيدها إلى ذلك الوجه والعينين اللتين عرفناهما في تأمله بكل ما فيه، لم يكن انعكاس مرآة فقط، بل غوصاً في وجدور وأعماق.

تدخلت مايا لتنهى جلسة التأمل تلك.

- هل سبقى هنا طيلة الوقت؟ أنا منهكةٌ من القيادة.

- لا طبعاً فأنت ضيفتنا اليوم، أليس كذلك يا نعمة؟ هذا به شخصٌ واحد.

ابتسم نعمة بخجل وعيناه تشقان ببريق غريب ربما اسمه السعادة

- دعونا نجلس في الصالة، إلى أن تخفت وطأة الشمس قليلاً، نذهب بعدها إلى الحديقة.

سأل نعمة مستفسراً:

- هل سنذهب إلى إسطنبول الخيول الخلفي؟

نظر شافي ومايا إلى بعضهما مستغربين سؤال نعمة، ثم أجاب شامٍ وهو يومئ برأسه:

- أجل بكل تأكيد، سنذهب إلى حيث تُريد.

كانت مايا لا تزال تحت تأثير الصدمة، حين سألتها شافي عما يشغلها.

يا نسيء، لكتي أفكر كيف عرفَ نعمة بإسطنبول الخيول؟ أنا لم أخبره
بالخصوص.

١٠ ملامح الحَيرة وجهيها من جديد.

لا أعرف، ظننت أنك قد فعلتِ، أعتقد أن حواس المتوحدين تعمل
بشكل خارق عن المعتاد، تناسى الأمر، وستكلم عنه لاحقًا.

١١. أسوا في الصلاة وراحوا يتسامرون، كان نعمة يراقب بفرح ما يدور
١٢. يتجاذب مع أسئلتهما، إلى أن وقفَ دون سابق إنذار وتوجَّه إلى
الأبواب فسأله شافي مستفسرًا:

هل أساعدك بشيء يا نعمة؟

كلًا.. سأذهب إلى المطبخ لأحضر كوب ماء.

حاول شافي أن يتمالك ردود فعله، لقد سار في الاتجاه الصحيح
١٣. أن يسأله، نظَّر إلى مايا التي أصابها الدهول مما حصل أمامها، بعد
١٤. طار وغياب غير مبرر، ذهب خلفه، بحثا عنه، كان واقفًا أمام صورة كبيرة
١٥. إحدى زوايا الممر، عندما رأهما قادمين والقلق يبدو عليهما، بادرهما
العول:

- إنها ماما!

أجاب شافي وهو يبتسم له:

- أجل.. إنها أمتي يا نعمة.

غرقت عيناه الدامعتان وملامحه في حزن غريب، أخرجه منه صوت

شبيهه.

- هيا يا نعمة، ألا تريد الذهاب إلى إسطنبول الخيول؟
- ترك الصورة خلفه وحزنه أيضا، رغم ابتسامته التي لم تفارقه، وسامهما إلى هناك كمن حفظ المكان عن ظهر قلب، تبعاه بجسديهما، وعقليهما المخدّرين.
- انظري يا مايا، هذا منزل الحصان روكي وزوجته قال هذا وقلبه يتراقص من الفرح الذي أطلّ من عينيه.
- فسأله شافي مستفسرا:
- كيف عرفت المكان يا نعمة؟
- صمت قليلا مفكرا ثم أجاب بدهشة امتلكته هو أيضا عندما سأله:
- لا أعرف، أشعر وكأنني أنتمي إليه، وكأنني زرته سابقا، ربما مر خيالي، لا أعرف!
- لا عليك يا نعمة، أنا سعيد بهذا، هل ستأتي لزيارتي مرة أخرى؟
- قال والفرحة تمتلئه:
- هل ستستقبلني؟
- بكل تأكيد، تُسعدني جدا هذه العلاقة وهذه الصداقة.
- مد شافي يده مصافحا، وعلى غير العادة صافحه دون تردد.
- حسنا سأزورك مرة أخرى، وعدة مرّات إذا ما وعدتني بزيارتي مرة منزلي.
- طبعا سأفعل.

29

لك الأحداث المتسارعة أثارَت فيهِ ظنونًا من نوعٍ آخر، لقد قلبت
نعمة الأمورَ رأسًا على عقب، معرفته لتفاصيل المكان، وقوفه أمام
الذئب، اكتشافه لمكان الإسطبل واسم الحصان الذي نطقَ به،
ألم تلك الأمور أتونًا آخر من الشكِّ والريبة.

مهلاً. ماذا قال؟ منزل روكي وعائلته؟ ليس لدينا حصان بهذا
اسم، لكن الأفضل أن أتأكد من الأمر.

«هب سريعًا إلى سائس الإسطبل، ربّما استطاع مساعدته.

باسيدي، عندما أتيت إلى هنا لم يكن هناك خيل، لكن كان هناك
خيل ولجام طبع عليهما هذا الاسم، وكان مكتوبًا أيضًا على باب إحدى
الإسطبل قبل أن نضع اسم الحصان الجديد، ربما باعهُ سيدي قبل
سنة، أو ربّما مات.

أخذت ظنونه أن نعمة مرتبط بالمكان، وبه أيضًا، صعدَ سيارته
بإلى المدينة، عندَ عودته توجه إلى المختبر، وأعاد المفتاح إلى
المرآة، واحتفظ بالنسخة الأخرى، لقد قرّر أن يبدأ البحث رغم صعوبة
همة، فالبيت واسع الأرجاء، وأسراره وخفائيه كثيرة، عدا ذلك فوجود

البروفيسور في المنزل سوف يعوق عمله، لكن لم يكن أمامه خيار.
فالانتظار وتجاهل الأمور باتا كالسم القاتل الذي يشل فكره يوماً
يوماً، عليه توخّي الحذر كي لا يُلاحظ بذكائه الخارق ما يدور حوله،
مرّت الأيام طويلة مملّة وهو يحاول إيجاد الملف الطبي الخامس
أو أي شيء آخر يخصّ مادلين، كانت المهمة شبه مستحيلة، لهذا
يبدأ من مكانٍ آخر.

أخذ هاتفه باحثاً عنها، تلك الصديقة الحبيبة التي لم يستطع
الآن أن يبوح لها بمشاعره، وربما بات الأمر مستحيلًا بعد هذه الأ-
المتسارعة.

- شافي وأخيرًا، وللمرة الأولى!

ضحك معقبًا:

- ليست المرة الأولى ربما الثانية.

- المهم أنك اتصلت.

وكالعادة زرع صوتها وروحها المفعمة بالحياة بذور الأمل في نه
المتعبة.

- مايا هل لي أن أطلب منك خدمة صغيرة تسعدني.

- تفضل أنا أسمعك.

قال راجيا:

هل لنا أن نزور نعمة معًا؟

دخل تأكيد، ولكنه يقيم في مسكن خاص تابع لمركز التأهيل، من
. أن نلتقي به في مكان آخر.

لا أرجوك، أريد أن أزوره في غرفته.

حسنًا سأسأله وأردّ عليك.

لو أمكن أن نزوره اليوم سيكون هذا رائعًا، لأنني سأتجه بكل
ال بعد الظهر إلى المدينة.

حسنًا سأخبرك برّده.

لم يكن صعبًا عليها ترتيب الأمور، فهي تسعى في الأصل إلى توطيد
العلاقة بينهما.

جمّع نعمة أوراقه من على أرض الغرفة، وزفّ الخبز السعيد إلى
اللاك، التي وعدته أن تكون موجودة خلال الزيارة، وأن تعدّ لهم عشاء
ابداً، حلوى وعصائر، قبلها شاكراً ثم توجه إلى خزانة الملابس، وراح
، مفد ما فيها على غير العادة.

لم يصدق شافي ما رأت عيناه عندما دخل تلك الشقة الصغيرة، فكلُّ
ما فيها بنفسجيّ اللون، نفس درجة البنفسجي الذي في غرفته، وقد رُتبت
بمس الترتيب، السرير في زاوية الغرفة، الستائر السميكة المُزركشة
منشابهة، حتى رسوم السجادة المفروشة بجانب السرير!

سألته مايا مستفسرة ممازحة:

- ما بك يا شافي؟ هل ستقف عند كل ما تراه كما فعل نعمة، من منزلك؟

ابتسمَ ظاهرياً وأجاب:

- لا يا صديقتي، لكن شقته جميلة، وتُشبه إلى حد ما غرفتي، ويميزها طبعاً تلك اللوحات الفنية، الآلات الموسيقية، دفاتر النوا، الأسطوانات والمكتبة الصغيرة المنمقة، كم تمنيتُ أن أمتلك مثل هذه المقننات، إنها الحياة التي أعشق فعلاً، لكن للأسف والدي وعام سرقا متي هذه المتعة، جميل هذا يا نعمة، إن مكانك الصغير أكثر ده من بيتي الكبير الفارغ.

- تعال واسكن معي إن أردت، هذا المنزل يسعنا نحن الاثنين، ويُمكن أن نتدبر مكاناً لهما أيضاً إن أرادت.

علا صوت ضحكاتهم فتراقص قلب ملاك فرحاً لسماعها نالاً القهقهات من خلف الباب، فعادة نعمة هم حياتها الأول بعد عائلتها، رمت التحية وتوجهت نحو الطاولة لتضع عليها ما تحمل، وإذ بها تقف مذهولة دون حراك، بالكاد تلتقط أنفاسها، إنه صديق نعمة الذي يشبهه..

- يا إلهي! هذا لا يُصدّق!

نظرت إلى شافي ومن ثم إلى نعمة فمايا التي كانت تضحك دهشتها.

مأصدقك عندما وصفته لي، وحتى الآن لا أستطيع ذلك، لم أستطع
ما إلا من خلال ملايسك وحتى ذلك أتى بعد حين.

بسم نعمة محاولاً تبديد حالة الدهشة تلك بينهما.

شافي.. هذه أمي، ملاك.. صحيح أنها لا تُشبه صورة أُمي التي في
الكنها أروع أم يُمكن أن تمنحك إياها الحياة.

دخل شافي ونعمة بالحديث، بينما أعدت السيدتان الطعام. بعد أن
من تناول العشاء انشغلت مايا بإحدى الآلات الموسيقية، وراح
يساعدها لتتمكن من إيجاد إيقاعاتها الصحيحة، أما شافي فاستغل
الهما علّه يصل من خلال حديثه مع ملاك إلى ما كان يشغله.

نعمة فعلاً محظوظ بأم مثلك، أنا تربيتُ دون أم أيضاً، كان أبي هو
هر على رعايتي والعناية بي.

لقد وصل إلى دار الرعاية طفلاً صغيراً، تولى رعايته منذ ذلك
الوقت، إنه طفلي الحبيب المُدلل، لا بل إنه فتاني العظيم المُبدع.

أحب نعمة من مكانه رغم انشغاله:

كلّ ما أنا عليه ثمار زرعك.

نسر شافي بالاختناق، فلقد افتقد هذه المشاعر منذ الطفولة، ولم
أف مثل هذه العواطف الصادقة يوماً.. حاول تجاوز حالته بسؤالها:

أخبريني يا سيدتي، كيف اكتشفت موهبتك هذه؟

- كان وضعه النفسي والصحي سيئاً جداً عندما وصل إلى هنا، فالموسيقى دواءه الوحيد، لاحظتُ تعلقه اللافت بها، ومع تقدّمه في الألبا بدأ يميّز بين الآلات ويتعرّف إلى صوت كلّ واحدة منها واسمها، ولعب أحد العازفين نوتة إضافية، أو تجاهل أخرى، أو ارتكب خطأ، أو بإمكانه أن يلاحظ ذلك، حتى في المعزوفات السيمفونية وحيث يوجد عشرات الموسيقيين. أرسلته بعد ذلك إلى صف الموسيقى، فأظهر له أدهش الجميع، بالطبع ساعده هذا كثيراً على الانضباط والتركيز، أو منه انفعالاته السلبية، كانت نعمة الموهبة هي الإرث الذي خصّه الله، والدواء الذي أكرّمته به الحياة، بعد ذلك الظلم الذي ألحقه به الله. بعدها تابع تلك الدروس بجانب دراسته، إلى أن تخرّج.

سألها بصوتٍ منخفض:

- ألا تعلمون شيئاً عن أهله أو عائلته؟ أي شيء؟

- كلا.. لكن ما سمعته أن هناك مبلغاً شهرياً يُرسل إلى المراد، حساب سري ليغطي مصاريفه، مبلغ ضخم، يكفي لإعالة خمسة أفراد مثل نعمة.

- ولم يحاولوا أن يعرفوا من هو صاحب هذا الحساب؟

- لا أعلم، هذه الأمور متعلقة بإدارة المركز، وأنت تعرف أن هذا سرّية تامة حول هذه المواضيع.

- وماذا عنه؟ ألا يتذكّر شيئاً من ماضيه؟

كلا، لا يتذكر أي شيء أو أي اسم، كان يُنادي فقط ماما وبابا،
أحياناً بأشياء غير واضحة عن الخيول، بصراحة كان وضعه
والجسدي مُقلِّقاً للغاية، وكأنه قد عُزِلَ عن العالم منذ ولادته،
ملح الكلام إلا بعد أعوام من دخوله المركز، لهذا لم نحاول العودة
إلى الماضي، وعملنا بكل تركيز على تطويره وتعليمه.

أماقتها أسئلته الكثيرة تلك، سكَّت قليلاً، تجهمَّ وجهها، نظرت إلى
أفقت بمخاوفها:

أريدُ أن أسألك، وأرجو أن تجيبني بصراحة أيضاً، هل هناك أي
ما بينكما؟

هل أن يُجيب، نظر إلى مايا ونعمة، فوجدهما منغمسين فيما يفعلان،
أها بصوتٍ منخفض:

الحقيقة يا سيديتي أن هناك شكوكاً تساورني حيال هذا الأمر،
أعرف إن كنت سأجد في قلبك ملجأً وبداً تساعدني كي أصل إلى
هنا، وإن لم يكن لديك مانع يُسعدني لقاءك ثانية على انفراد، لتتحدث
نعم، ربما أمكننا مساعدته.

مؤكد يا شافني، فأنا أكثر من يعاني من وحدته الطويلة، وأعلم توقعه
معرفة جذوره أو إيجاد عائلته.

وأنا أيضاً مثله، أبحث عن عائلة، فبعد والدي ليس لي أحد في هذه
السا، ولقائتي بنعمة من المؤكد أن خلفه سرّاً ما.

- لا عليك، احفظ رقمي واتصل بي متى شئت، ربما نجد مفا
سعيدة لكما أنتما الاثنان، أو أنتما الواحد!

عاد ليكلّم نعمة بمحبّة ظاهرة جعلت عيني ملاك تشعان بما
غريبة، فهي أمّ ومساعدة اجتماعية وتلاحظ ما لا يلاحظه الآخرون

- وأنا يا نعمة، ألن تعلّمني العزف؟

- أجل طبعًا، لكن بشرط واحد.

- ما هو؟

- أن تُحضّر لي صورة أُمّي المعلّقة في بيتك.

- تقصد صورة أُمّي التي وقفت أمامها.

- أجل.

- حسنًا، سأحضرها معي في المرّة المقبلة.

بعد أن تأخر الوقت وقرّرا الذهاب، مدّ نعمة يدهُ ليصافحه،
الأخير لم يستطع أن يمنع نفسه من احتضانه، تلملم قليلاً قبل أن
نفسه بين يديه ليعود ويلفّه هو أيضًا بذراعيه تحت أنظار السيّدتين
غمرتهما بهجة تلك المشاعر.

بعد عدّة أيام التقى شافي وملاك من جديد، وكلّه أمل أن يجد
تلك الحلقة المفقودة التي يبحث عنها.

- آسف على إزعاجك سيّدة ملاك، أعرف أن لديك عائلة والدة
من العمل.

فاطمته مبتسمة:

أولا أرجوك أن تناديني ماما، كما يفعل نعمة ومايا، ثانيًا.. من أجل
١١٠. نعمة سأجد دائمًا الوقت والقوة، ومن أجلك أيضًا.

١١١. الامها هذا جعله يشعر بالاطمئنان، فقرر أن يصارحها بمخاوفه،
١١٢. أريده منها، دون مراوغة..

بصراحة تامة.. أريد الوصول إلى رقم الحساب الذي تصل من
١١٣. له النقود إلى مركز الرعاية.

فاجأها طلبه هذا.. فسارعت إلى سؤاله:

لماذا؟ أرجوك إن كانت عندك أي ظنون أخبرني وسنفكر معًا.

لقد كان لوالدي طفل مريض، وبعد وفاة والدتي، أعتقد أنه قد
١١٤. ائس منه.

طلعت إليه بدهشة وسألته مستفسرة:

هل بنيت ظنونك هذه فقط على وهمٍ تشابهكما أم لديك أدلة؟

لقد وجدت رسالة لوالدي كتب فيها عن طفله المريض والمصاب
١١٥. ا. في الجهاز العصبي، ولكن لا أعرف أين هو الآن، وماذا حل به،
١١٦. الرسالة سرّية لا أستطيع أن أواجه بها، أريد أن أؤكد ظنوني قبل
١١٧. ا. لقد تعرّف نعمة خلال زيارته لمنزلي على المكان، وجمال فيه
١١٨. دليل، حتى إنه تعرّف على اسم الحصان الذي كان عندنا سابقًا،

ولا أعلم إن كان قد نادى صورة أمي بما ما لآنها أمي، أم لأنه يعتقد أو بد،
آنها أمه؟

صُعِقْتِ ملاك مما تسمع:

- آه، هذا طبعًا يؤكد ظنونك، لكن ألم تسأل أحدًا من عائلتك
هذا الموضوع؟

- كما أخبرتُكِ سابقًا، ليس لي أي أقارب أو عائلة سوى أير
فركت يديها بحيرة قائلة:

- إنه أمرٌ محيرٌ فعلاً، وقصة مثيرة للظنون.

- أريد رقم حساب ذلك المتبرع يا ماما، إنه المفتاح الوحيد الذي
سيحدد ظنوننا.

- سأحاول، لكن لا أستطيع أن أعدك بشيء، فهذا قد يكسر
مستحيلًا.

أرجوكِ حاولي من أجل نعمة ومن أجلي، من أجلنا جميعًا، يجب أن
أعرف إن كان أخي أم لا، إن كانت ظنوننا واقعة، فمن الظلم أن يقع لنا
متأ بعيدًا عن الآخر.

ابتلعت دموعها ومرار روحها ثم قالت بحزم:

- سأحاول المستحيل.

- لكن أرجوكِ أن يبقى هذا سرًّا بيننا، إلى أن نكتشف الحقيقة، -
مايا لا أريدها أن تعرف بالأمور.

امسكت يديه وهي تبسم:

إنه سرُّنا، لا تقلق.

، حلت ملاك وبقي هو مع قلقة في ذلك المقهى.. لقد هرم مرة
، مدة، وكأنه قد تجاوز المئة عام، من وطأة ما يحمله من وجع داهم
، انه كخلايا سرطانة نائمة منذ عصور.

تُبالك يا أبي! ما هذا الغموض الذي أورتني إياه؟!

30

بعد دخوله حياة نعمة بكل تفاصيلها، ولقائه بملك، تلك السيِّدة ذا.
الابتسامة العطوف، التي كثيرًا ما تمتنى أن يرتمي في حضنها، أن يضر.
خِيَمَهُ وَيُلْقِي حمله ويطعم جماله الجائعة من خضرة ربوعها ويسقبه.
من عذب ماء واحاتها، رغم ما حمله ذلك اللقاء من شقاء وسعادة، إلا
أنه لم يُنْسِه شيئًا من تفاصيل كابوسه المرعب. بدايةً من مادلين، لقد فدا.
كثيرًا في الذهاب إلى ذلك المقهى الليلي حيث التقاهما والده أول مرة.
لكنه لم يفعل، فلقد مر على القصة ما يقرب من العشرين عامًا، وهو علم.
يقين أنه لن يجد من يُساعده أو يجيب عن أسئلته.

مستكملاً رحلة عنائه مع ذلك المفتاح، فحتى الآن لم يجد له ماوى.
إضافة إلى مايا، فتعلقه بها يزداد يومًا بعد يوم، غير أن صراعه الداخلي.
بين إخبارها بتلك التفاصيل من عدمه، كان يُقلِّقه ويمنعُه من البوح لها
بأي شيء من مشاعره خشية أن يخسرها، لقد عاش بالفعل أوقاتاً عصيبة،
أسابيع مرّت لم يغادر خلالها سور الفيلا الخارجي، فالأمور قد تداخلت.
في دماغه وباتت أكثر تعقيدًا، حتى وإن انتهى من موضوع نعمة وقرر أن
يبحث عن مادلين، فمن أين سيبدأ؟ وأين سيجدها؟ وهو لا يعرف سوى

مها وتاريخ سفرها الذي دونته على الرسالة، تراجمت أفكاره وأزقته
«الألغاز التي لا حل لها»

هكذا مرَّ أسبوعه منتظرًا ما ستصل إليه ملاك من معلومات، ينتقل
من غرف المنزل يتفقد الجدران علَّه يجد خلف أحدها بابًا لأسراره،
حث في الأدراج وبين الكتب والأوراق والملفات، يعود إلى الحديقة،
«عها ذهابًا وإيابًا، يزور مهره الصغير شافي، ثم يعود إلى غرفته، إلى أن
«أنصالحها الذي ينتظر.

واعدا على أن يلتقيا في أحد المقاهي قرب المركز، وصلَ باكراً جدًّا
«اح ينتظر قدومها بفارغ الصبر.

عندما دخلت باذرها بالسؤال:

«ماما، أهلاً بك، وأخيرًا وصلتِ، أخبريني هل نجحت مهتمك؟

«مهلاً يا عزيزي، دعني أستريح قليلاً.

«آه.. أنا آسف.

«كيف حالك؟ تبدو متعبًا يا شافي.

«أجل، قليلاً، لكنني بخير، لا تقلقي، كيف حالُ نعمة؟

«إنه بخير أيضًا، لكنه يرهق نفسه في العمل على سيمفونيته
«الحديدة.

«بالتأكيد ستكون رائعة بعد هذا المجهود، والآن أخبريني.. هل
«مصلتِ على رقم الحساب؟

- كانت مهمة شبه مستحيلة يا شافي، كدت أخسر عملي بسببه
اعتصره الندم فأطرق قبل أن يقول:

- أنا أسف، لم أكن أقصد أذيتك أو إحراجك، أرجوك توفّر
عن هذا البحث وسنحاول اكتشاف الحقيقة عبر طريقة أخرى،
- لا عليك، لم تكن رحلة حياتي ممتعة يملؤها المرح واللهو، له،
كانت هذه المغامرة أسهل ما فيها، أما أنت فلا يجب أن تستسلم بها،
السهولة.

- أخيريني إذن ماذا حصل؟

- بعد لقائنا ذهبْتُ إلى الإدارة وطلبتُ منها السماح لي بالاطّلاع
على ملفّ نعمة بذريعة حاجتي إلى بعض المعلومات المفصلة،
وضعه الصحي، منذ يوم وصوله إلى اليوم، لأعدّ دراسة عن تطور حاله،
في ظل الظروف النفسية المستقرّة التي عاشها وكيف دخل إلى عالم
الإبداع، وأوضحْتُ لهم أن البحث سيساهم في تقديم المساعدة له،
يعتني بالمتوحدين، حصلتُ بعد جهدٍ على شريحة إلكترونية تحوي
جميع المعلومات الخاصة بنعمة، كما حصلتُ على توقيع يتيح لي
إجراء البحث وإتمام العمل، بالإضافة إلى تسهيل وتوفير جميع الأوامر
المتعلّقة به، عدتُ إلى المنزل أبحث في الملف الإلكتروني عن ذا
الرقم، فلم أجده، كل ما سجل على الشريحة لم يتعدّ التقارير الطويلة
ونتائج الاختبارات وأشياء أخرى تخص وضعه الصحي والنفسي، أما
باقي المعلومات فمن المؤكد أنها في ملفات المستشفى، وبما أنها قديمة،

المحتمل أن أجدها في قسم الأرشيف، حيث يحتفظون بالنسخ
لمدة لتلك الملفات، والتي تنزل لاحقًا على الشرائح الإلكترونية،
ما ساعدني بهذه الشريحة أنني قد وصلت من خلالها إلى رقم
الصفحة، فهذا طبعًا سيخفف عني بعض التوتر، والبحث غير المجدي
العرف من اكتشاف أمري. يوم الخميس بعد انتهاء دوام العمل، ذهبت
إلى هناك، كان رئيس قسم الأرشيف يهتم بالرحيل، استوقفته سائلة رغم
العاص الذي ظهر على وجهه:

أرجوك سيدي أنا أعمل على إنهاء بحث مهم طلبوه مني
في المستشفى، ويجب أن أسلمه يوم السبت، وغدًا إجازة، أريد
المعلومات، لكن مكتب الإدارة أقفل، وقد طلبوا مني
أن أمغادرهم أن آخذ ما أريد من معلومات من قسم الأرشيف.
أجاب بصرامة والغضب يتطاير من عينيه:

ما هذا؟ يذهبون قبل نهاية الدوام إلى بيوتهم، وعلينا أن ننجز
أعمالهم أيضًا، أنا آسف، عليّ أن أذهب، لقد انتهى الدوام، ولا أستطيع
أن أدخلك دون إذن مسبق.

أخرجت له الإذن الذي تحصلت عليه من الإدارة.

- تفضل يا سيدي هذا هو الإذن، أرجوك لن أعطلك، فالموضوع
الذي يتطلب سوى دقائق، أعدك، سأصور الملف بسرعة بالهاتف، وأعود
سريرًا.

- حسنًا خمس دقائق فقط.

دخلت الغرفة التي رصت الملفات فيها من الأرض إلى السقف. وخلف كل ملف هناك حالة ووجع وإعاقة، أطفال مرضى، وآخرون. جارت عليهم الحياة، وباتوا مظلومين كنعمة الذي ظلمه قدره ومجتمعه. أيضًا، تابعت تسلسل الأرقام وأنا أراقب الباب، خوفًا من إعلان ذلك الرجل، انتهاء الوقت الذي منحني إياه لأنجز مهمتي، وبعد مجه، وبحث لم يظل كثيرًا وجدته.

صاح بفرح يسكنه التوتر:

- حقًا؟ لقد أقلقنتي كثيرًا وأتلفت ما تبقى لي من أعصاب.

- أجل أيها البروفيسور، إنه معي.

- يا للسماه! هذا رائع لقد وضعت قدمي على أول الطريق بعد هذه الدوامة التي كنت غارقا فيها، ولكن لماذا هذا الحزن في عينيك، ألسب سعيدة مثلي؟ هل حصل شيء آخر سيئ، أخبريني.

- لا يا شافي، لا شيء يذكر، ما أحزنني أنهم يملكون هذه المعلومات منذ دخوله، رقم الحساب هذا كان من الممكن أن يقودهم إلى عائلته، كان بإمكانهم أن يحاسبوهم، أن يعيدوه إليهم، وأقل ما يمكن، إلزامهم بزيارته ورعايته حتى ولو من بعيد، لكن رغم هذا اكتفوا بتلك النقرود التي يتلقونها، ولم يهتموا بالبحث عن جذوره، وتركوه ليحيا وحيدًا كل هذه السنوات، ولتبرسي كاللقيط، كان بإمكانهم أن يعطوه اسمًا

« ذنبه ما، أو ربما اسمه الحقيقي، تركوه هكذا كحيوان مريض، يتنظر الموت، والمركز أسعده هذا طالما هناك نقود يجنيها تساعده وتساعدهم... تساعد الآخرين، وكأنهم قد نسوا أن هؤلاء بحاجة إلى أكثر من رغيغ... رير! »

« أنت محققة تمامًا، لهذا أنا هنا اليوم، لهذا فعلنا ما فعلناه، ليستيقظ... مير من رمي نعمة وسواه هكذا دون رادع، إن نعمة الآن موسيقي رائع، مرج من الموت وتحدى نفسه ووصل إلى هذه المكانة دون والد يرعاه،... سألوا ترعرع في كنف والده وعائلته، لأصبح شريزًا مثلهم، وربما لم... الفه الحظ ليصل إلى ما هو عليه اليوم. »

فجأة صمت عن الكلام، وأجهش بالبكاء دون إرادة، أمسكت ملاك... ورفعت له رأسه عاليًا:

- ما بك يا شافي؟ لِمَ هذا البكاء؟

- إنني متعب يا أمي، وأكاد أموت من الحزن، كيف يفعلون هذا بنا... ونحن جزء من أجسادهم وجيلة من دمانهم وخلاياهم؟ كيف ينسون... نعمة الإنسان؟ أليست الإنسانية في جدول حساباتهم؟

اقتربت منه فاتحة ذراعيها..

- تعال يا حبيبي إلى قلبي، لا تبك أرجوك..

في حضنها هناك، حيث نعمة والعشرات ممن حرمتهم الحياة... من الدفء والحنان، غرس نفسه، كنبته ضعيفة تنوق إلى حائط تسند... حذورها عليه.

- لو تعلمين ما الذي يُبكيك لكفرتِ بالبشرية وبالأرض وما عليها!
 - يا طفلي ما يبكيك قد أبكاني وما زال لسنين طويلة، لكننا
 نستطيع أن نفعل شيئاً، ففي كلّ زمان ومكان، سيكون هناك نعمة وشام
 ومايا وملاك، وهؤلاء الأهل الذين يرمون أولادهم والأهل الذين قاموا
 بتربيتك وتربية نعمة واحتضانه، سيبقى المجتمع يحضن ويُدِين، سنمو
 ونحيا وستستمر الحياة وتعيد القصة نفسها للأبد.

خَفَّف احتضانها وكلامها القليل من حزنه، ووضحت صورة نانا،
 الخيبة التي اعترته منذ أن انكشفت أمامه هذه الأنفاق المظلمة.

- هيا يا صغيري، انفض عن أجنتك صقيع الآلام، دعنا نشرب
 العصير ونحتفل بنجاح خطوتنا الأولى هذه.

فتحت الحقيبة وأعطته ورقة كُتِبَ عليها اسم البنك ورقم الحساب
 والمبلغ الذي يحوّل شهرياً..

- ماذا؟ هذا المبلغ كفيلاً لبناء مركز رعاية خاص بالواهب.

- أعرف، وهذا ما أحزنني، دجاجة مسكينة تبيض ذهباً.. لكن المهم
 الآن الخطوة التالية؟ ماذا ستفعل؟

- سأذهب إلى البنك للاستعلام عن صاحب هذا الحساب.

- اسمع سأفدك قليلاً من خبرتي، ويبعض مما لا تعرفه عن
 الحياة، في المؤسسات المالية الجميع مستعد للمساعدة، لكن بحذر،
 عملهم في المادة، تجد أن لا قيمة لديهم لسواها، أن تدخل إلى هناك

طالب المساعدة فهذا سيعقد الأمور، وربما تبثوا صاحب الحساب
و من يسأل عنه، عليك أن تتوخى الحذر، عداك عن السرية
صرفية التي سيتذرعون بها، ولكن إن كان ما استدفعه لهم يستحق
ممارسة، فمن المؤكد أنك ستجد من يساعدك، هذا هو المفتاح،
إن ذكي وسُحسِن التصرف فلا تدخل إلى هناك صفر اليدين.
مع إلى كلامها بإمعان.

أنتِ محقّة يا أمي، سأرسم خطتي قبل أن أتحرّك، صحيح أن
سي في الحياة ما زالت محدودة، لكنني قد تلقيت منذ حين طعنة
مطلت الهالة الرائعة عن أقرب المقرّبين إليّ، وما زال جرحي ينزف
الآن، لقد جعلني هذا أقف حائرًا متسائلًا، إن كان هؤلاء الراقون
العلمون يفترسون بعضهم، فيكف الحال بمن هم أقل منهم علمًا،
والأرؤف؟ واكتشفت بعد تفكير أنه ليس هناك فارق بين الغابات، في
الأولى يستعملون الشوك والسكين، يتحينون الظلام والفرص ويتخفون
والأقنعة الزائفة، أما في الغابة الأخرى فينهشون بعضهم نهشًا، وفي
صبح النهار!

عفت قائلة وهي تبسم له بلطفها المعهود:

يبدو أن هذه التجربة التي اختبرتها قد أدمتكَ، أريد أن أقول لك
شاهمًا، لا تخف يا شافي فإن الله موجود، انظر إليه، إنه حولك، توكل
عليه، إنه يسمعك، وهو نصير المظلومين والمساكين والحائرين..
- أنتِ محقّة يا أمي.

- حسنًا يجب أن أذهب الآن، أعلمني بأي خطوة تنوي القيام به
لنناقشها سوياً قبل التنفيذ، ولا تتردد في طلبني إذا احتجت إلى
مساعدة، أرجوك فهذا يفرحني.

- بكل تأكيد سأفعل، إلى اللقاء، أرسلني تحياتي الحارة إلى به،
ودعته ورحلت، بعد ذهابها تفحص تلك الورقة التي في يده ملياً، ثم
نظره إلى السماء، انتابه شعور غريب، وكلمات ملاك تتردد في مسمه،
- يا الله هل أنت موجود حقاً؟ إذن لماذا؟ ألسنت مستحقاً لعطفا
وكرمك ورعايتك كالأخرين؟ ألسنت أنت من خلقتني؟ ساعدني أرجو
فإني أضعف من أن أحتمل ما وجدت نفسي فيه.

31

« مسح أوراقه في الحقيقية، ثبتها على ظهره، فتح الباب ثم أقفله خلفه،
دون أن يعير ما يختلجه أي اهتمام، رغم ذلك الخوف والقلق اللذين
« هيرانٍ سريرته، لقد قرر بإرادته الصلبة أن يتخطاهما، فلم يعد وحيداً
اليوم، يجب أن يكون قوياً، عليه مواجهة العوائق وتذليلها من أجل
... ذاته وإنجاح عمله الذي يحملُ على رأس أولوياته سلمه الموسيقي
- درة شافي وذاكرة طفولة ترتدي رداء الحاضر وحلم الغد.

اجتاز الشارع وسار على الرصيف الآخر عبر الإشارة، وصورة مايا
الله بوجهها الباسم وصوت أمه أيضاً يمسك يده، ليوصله بسلام إلى
الك.

لا تخف يا نعمة سوف تنجح، ستخطى أسوار روحك بشجاعتك
في عهدتها فيك.

وها هو يدخل إلى هناك مرة أخرى، دون مرافقة أو رقيب، وها هم
الآن يهللون لعودته للعمل معهم في نفس المكان من جديد.

مسح جبينه من حبات العرق التي بللته، ونظر إلى أعينهم المحببة
نورهم المبتسمة، وقال لهم بخجل وهو يبادلهم فرحتهم تلك:

« هيا إلى العمل، إنكم مبدعون في تضييع الوقت.

أخذ مكانه بينهم من جديد، حاول جاهداً أن يتجاهل وجوهه، ليستعيد تركيزه، ولكن، لم يكن هذا بالأمر السهل، فقد اعتاد الـ «في السكون»، أما استعماله للأستوديو، فكان شبه مستحيل، فالباب الممكن أن يقفل من جديد، وذلك الصوت إن عاد فربما سيموت به هذه المرة، إذن عليه أن يعتاد العمل في هذه الأجواء شبه الصاخبة، الآخرين.

عند استراحة الظهيرة، دخل عليهم أستاذه باحثاً عنه.

- أين نعمة؟ قالوا لي إنه هنا.

لاحظه جالساً بين المجموعة، فأشار له بيده مرحباً، ثم تابع قائلاً

- آه الحمد لله على سلامتكم يا نعمة وأخيراً عدت إلينا.

أجاب بتردد وهو يتسم:

- أجل، سأعمل هنا بين زملائي.

- قرار صائب، كنت واثقاً من هذا، ففنان مثلك لا يجوز له أن يـ «

في الظلام.

أحضر كرسيًا وجلس بقربه:

- أخبرني عن السيمفونية الجديدة، اسمها جميل جدًا؟

ركز نظراته المتوترة على أوراقه وأجابه برضى:

- انتهيتُ من «أنا»، وقرينًا سأُنجز «الآخر»، واعتقد أن هذا سينتـ

وقتنا إضافيًا.

اسم بفرح وإعجاب وهو يقرأ اسم العمل على الأوراق، وسأله
ميرًا:

لماذا؟ هل هذا «الأخر» صعبٌ عليكَ ترجمتهُ إلى أنغام؟

كلا، لكن المكان هنا مليء بالوجوه والأصوات ويفتقر إلى
نور، وهذا يعوق عملي قليلاً لأنَّه يتطلب تركيزًا إضافيًا لأعزل نفسي
هم وأنا معهم. لقد كان الاستوديو ملاذي الوحيد أما الآن فأصبح اسمه
ن القلق في داخلي.

انرفيه ما سمعه، غاب قليلاً مع أفكاره ثم وضع الأوراق على الطاولة،
و إلى الباب مكتملاً حديثه معه:

سأذهب الآن يا نعمة، أراك لاحقًا.

عاد إلى أوراقه، ولكنه لم يقوَ على إعادة تركيزه عليها، هاتان العينان
ان كانتا تراقبانه بخبثهما المعتاد، أثارنا قلقه من جديد، فمازن يتربص
ولن يدعه وشأنه. إن لم يكن هو الفاعل فمن المؤكد أنه قد ساهم
برتيب ما حصل في الاستديو ذلك اليوم، لقد أكد عامل التنظيف في
حقيق أنه قد سأله أن يقفل الباب، هذه المشاعر التي تصله من انعكاس
اعر الآخرين لم تكن يومًا لتخطي، ولكن كما قالت له أمه:

ستقابل الكثير من هؤلاء وعليك أن تعتاد على مواجهتهم وتقبل
هالانهم.

- أنتِ محقة يا أمي لن تكون حياتي يومًا بالسهولة التي أتمناها.

عاد أستاذه ليوقظه من رحلته بين أمواج أفكاره:

- يا نعمة أين أنت؟

أجاب بذهول كمن استفاق لتوه من النوم:

- هنا يا أستاذ.

- حسناً تعالَ معي فلقد حضّرت لك مفاجأة أتمنى أن تعجبك.

سار خلفه والحيرة تأكل ملامحه، أما مازن فكان مندهشاً من ساء أستاذهم الذي لم يستطع تفسيره، ماذا يريد منه؟ إلى أين سيأخذه؟
يكن راغباً بذهابه رغم انزعاجه منه، فهنا بإمكانه أن يشير انفعالاته،
شاء وأن يؤثر على مزاجه دون أن يلاحظ أحد هذا.

سارَ إلى جانبه بصمت، صعدا عبر الدرج الداخلي إلى الطابق العلوي
حيث مكاتب الإداريين، فتح باب الغرفة المجاورة لمكتبه وطلب،
نعمة أن يدخلها معه، لم تكن تلك الغرفة واسعة ولكن أجواءها مريحة،
وقد جهزت بمكتب خشبي وكرسي من الجلد الفاخر، ومكتبية صغيرة،
ملئية بالكتب والدفاتر الموسيقية، ونافذة تُطلُّ على ساحة المدينة علف
عليها ستائر سميكة ملوّنة، وقد غطيت الأرضية بسجادة كتلك الموجم
في الاستديو، نظر إلى نعمة مبتسماً ثم سأله:

- ما رأيك؟

- مكتبٌ متواضعٌ جميل.

هنا إذن ضع أوراقك على مكتبك، فلن تكون لديك أي ذريعة بعد
في كتابة ذلك الآخر المستعصي عليك..

ماذا؟ لا.. لا يمكنني أن أقبل، فقد يؤلّد هذا بعض المشاكل مع
الفرقة الآخرين.

صله ما أراد أن يقوله وأحس بخوفه فطمأنه قائلاً:

عمّة، أنا صاحب القرار، أرجو أن تثق بي، سأجد حلاً عادلاً لهذه
حلة، انصرف إلى إبداعك ولا تدع القلق يعيقك.

لا أعرف ماذا أقول وكيف أشكرك على كلّ ما تفعله من أجلي.

لا نقل شيئاً، أنت تستحقّ هذا، أنت موسيقي عبقرى، وجودك
اعك سيعطيان اسمًا وتوجّهًا آخر للفرقة بأكملها، إننا بحاجة
إليك بمقدار حاجتك إلينا، اسمع يا عمّة.. نحن لا نعمل هنا من أجل
.. بل فقط، بل لنوصل رسالتنا إلى المجتمع، رسالتنا التي تقول:
ليس هناك معاق أو مريض أو متخلف، كل ما في الأمر أن هؤلاء
الأساس المميزين لهم طريقتهم الخاصة في حبّهم وتعاملهم وفي نظرتهم
الحياة، طريقتنا لا تشبه طرق الآخرين الذين عليهم احترام خياراتهم
السلوب حياتهم وترك الأبواب مفتوحة أمامهم وإطلاق سراحهم من
عن المفروض واللازم والعيب والخطأ، ليُخرّجوا ما عندهم من كنوز
.. أحب أو حتى مشاعر دفينّة لا يملكونها هم أنفسهم، من يعتبرون
الهم أصحاب، وأنت يا عمّة ظاهرة من بين هؤلاء، تحدّيك لصعاب
الحياة منفردًا سيساعد البقيّة أيضًا، أرجو أن لا تتراجع، الكثير منهم

ومن عائلاتهم وأقاربهم يتظنون ما ستتج وبماذا ستبهرهم وأي شيء
ستخرج لهم من خزائن فكرك، إنني لا أقدم لك الخدمات الم
لتشكرني، إنك لا تستعطي، وأنا لم أعطك حتى الآن إلا أقل مما ت
لأن ما تكتبه لن يستطيع أحد سواك كتابته ولا حتى أنا، هيا أ
حقيبتك وتعال لتكمل نهار عملك هنا بقربي، وغداً سنحضر أنا، ا
مفاجأة لمابا، قل لي هل أخبرتها بأنك قد عدت إلى العمل؟

- لا.

قال بفرح وحماس:

- هذا جيد، إذن لا تخبرها، سوف تصعقها المفاجأة غداً عندما
هنا في هذا المكتب بالذات.

أعجبت الفكرة. ابتسم بفرح وهو يومي برأسه موافقاً:

- كما تريد يا أستاذ.

عاد إلى قاعة العمل المشتركة، جمع أغراضه وأعادها إلى الحف
كان مازن يراقبه بدهشة كما الآخرين، سأله أحدهم مستفسراً:

- هل أنت عائد إلى البيت يا نعمة؟ أنت بخير، هل أزعجك
متاً؟

- لا أنا بخير، لكن الأستاذ قرر نقل عملي إلى أحد مكاتب ال
العلوي.

- أيعني هذا أنك ستركنا من جديد؟

دلا، سأكون معكم، لكن في أوقات العمل والتركيز سأكون هناك،
أسلوا، سنبدأ التدريبات الجماعية قريباً.

سأله التوفيق ورافقه كلماتهم الحميمة ونظراتهم
حارة وابتساماتهم الدافئة إلى الباب، أما مازن فقد بدت عليه ملامح
الغضب والانزعاج، التي لم يستطع إخفاءها، لقد ضاعت عليه فرصة
واحدة ولكن لن يتعثر كي يجد سبيلاً لذلك بين هذه الحقول المزروعة
التي وميولهم، حبهم وحقدهم، كرههم وغيرتهم، عطفهم وحنوهم،
عليه أن يسير وأن يجد طريقاً ومكاناً يزرع فيه نفسه بينهم، بين لسعات
وك وعطر الورد، جليد الخوف ودفء الرحمة، غريبة حديقتك هذه
الله، وغريباً ما زرعت فيها، هل نحنُ فعلاً علي صورتك ومثالك؟
الإنسان حقيقاً أقرب مخلوقاتك إليك؟ هل من يختلفون عن النماذج
التي تكررة ومن ميزتهم بضعفهم هم أحب خلقك إليك؟ لأنهم متوحدون
والله وفي روحهم الغريبة التي يعجز الكثير عن فهمها وإدراكها.

وضَعَ أغراضه على مكتبه الصغير، ثم فرشَ نواته على الأرض
وملس قربها متأملاً.

الآن سأبدأ العمل معك أيها الآخر.

بعد تفكير طويل أدرك أن ذهابه إلى المصرف والسؤال ، صاحب الحساب السري لن يكون مجدياً كما قالت له ملاك ، عمل غير مدروس سيفتح الأعين على تحركاته وخاصة إذا ما واصل الخبر لصاحب الحساب الذي حرص كل الحرص على أن يبقى مظلماً كل هذه الأعوام . ها هو يذرع أرجاء المنزل ذهاباً وإياباً ، في أن يكشف له ذلك السرّ المدفون داخل من يقاسمه حياته ، من ياتشرب وينام معه في نفس المنزل ، ويحمل معه نفس الدم والسماء ضاقت به الأرض وأطبق الحزن على أنفاسه ولم يعد أمامه ملجأ سوى مايا ، اتصل بها علّه يجد برفتها بعض الراحة والأمل .

- مرحباً يا صديقتي ، كيف حالك؟

- أهلاً بك شافي ، أنا بخير ، ماذا عنك؟

- بخير ، هل نستطيع أن نلتقي اليوم؟

- ما بك يا شافي؟ هل كل شيء على ما يُرام؟ هل أنت مريض؟

- لا لست مريضاً ، لكنني متعب بعض الشيء ولا أجد راحتي !

معك .

وأنا أيضًا يا صديقي الغالي.

إذن ماذا بخصوص اللقاء؟

حسنًا، سأمر على والدي، لقد دعاني إلى مكتبه، بعدها سيكون
أمنع من الوقت، هل سنلتقي في الراية؟

لا، سأنتظرك في المقهى في المكان المعتاد، أريد أن أستشيرك في
سوء هام بعيدًا عن المنزل، أبي هناك ولن نستطيع أن نتكلم بحرية.

حسنًا كما تريد، إذن عند السادسة في مقهى المدينة.

أفضل الهاتف وعادًا ليتأمل تلك الورقة التي أحضرتها ملاك، لم يصادف
حد في أوراقهم الخاصة أن والده قد تعامل مع هذا المصرف سابقًا،
كان حسابًا سرّيًا باسم مستعار.

أه كم أنا خائف أن يحملني هذا الرقم إلى طريق مسدود، أو إلى سرّ
مهد وباب مقفل آخر، آه.. لقد ضاقت بي السبيل، ساعدني يا الله..

لقد كان اسم الله معروفًا لديه ولكنه لم يتكل عليه يومًا، أحبه كثيرًا عندما
معه من فم ملاك وعندما أخبرته أنه نصير كل مظلوم، فولده لم يعترف
بإفدرته تفوق قدرة العقل وما عدا ذلك كان يعتبره ترهات فارغة.

«العقل هو الإله الوحيد للإنسان، وليس من قوّة توازيه».

ربّما هو مُحِقّ، فما أفعله الآن يُثبت أن العقل هو المتحكم بمصير
الإنسان، لكن جذور العقل الخير هي جزء من قوّة الإله الخالق للكون
وقدرته أيضًا.

بقي على هذه الحال يتخبط في مستنقع النقاش العقيم مع الذات،
أن حان الموعد فانطلق مسرعاً للقائها.

لقد انتقلت علاقتهما في الأيام الأخيرة إلى مراحل متقدمة ونهـ
عوانق كثيرة كالخجل والتردد والمجاملة الاجتماعية، لكنهما إلى الـ
لم يعبر أحدهما للآخر عن مشاعره التي يمكن قراءتها بألف طريقة.
سلمت عليه وفي عينها الكثير من الأسئلة التي لم تعرف من أـ
ستبدأها وإلى أين ستأخذها..

- لقد أفلقتني عليك، ما بك يا شافي، هل أنت بخير؟

قال مبتسماً:

- لا تقلقي، لقد اجتزتُ مرحلة الطفولة منذ أعوام، طمئيني علـ
كيف هو والدك، ماذا فعلت هناك؟

اتسعت عيناها وأطل منهما شعاع غريب امتزج بصوت ابتسـ
وبهجة روحها:

- إنه بخير، كم أسعدني هذا اللقاء، ألم أخبرك أن نعمة قد عاد ليـ
عمله من المعهد؟

أصابته سعادتها تلك بالعدوى فأجابها متفاجئاً:

- حقاً؟ هذا خيرٌ رائع.

- أجل، وقد أعطاه والدي مكتباً خاصاً قرب مكتبه لكي يـ
عمله فيه.

ممتاز، وكيف هو الآن، هل هو سعيد بهذا؟

طلبًا ولقد اتفق مع أبي عليّ، بعد وصولي اصطحبني أبي من يدي
و على باب الغرفة المجاورة وطلب مني أن أدخل وإذ بنعمة يجلس
على مكتبه يرسم ألحانه على الورق.

صحكت بصوت عالٍ والدموع تتلألأ في عينيها ثم أكملت قائلة:
لم أصدق يا شافي رحنا ندور معًا كالأطفال حتى أبي لم يستطع أن
يؤثره عنا.

هذا رائع، كم أنا فخور وسعيد به أسكتت الغصة صوته ولوّن
ن وجهه فجأة بلونٍ آخر..

شافي أنت لست على ما يُرام، تبدو حزينا رغم فرحك هذا، أخبرني
موك..

حقيقة نعم، لكن ما يحزنني موضوع آخر، إلا أنه ليس بعيد عن
همة أيضًا.

ارتداها قناع الدهول والصمت، أما هو فبلغ حزنه وأكمل قائلاً:
- هناك أمرٌ يقلقني يا ماما، كيف لعائلته أن يرموه هكذا ويتركوه منسيًا
طوال هذه السنين؟ وكيف تغاضى مركز التأهيل أيضًا عن البحث عن
مدوره رغم إمكانية ذلك؟

- أجل هذا مؤلم ولكن ماذا عساهم بفاعلين وهم لا يعلمون شيئًا عنه؟
أحبها بغضب:

- لا.. إنهم يعلمون، لقد سألتُ ملاك عن هذا الموضوع وأخبرني
إنه منذ يوم وصوله إلى المركز، هناك مبلغ شهري يُرسل إليهم من
حساب سرّي خاص، مبلغ كبير يكفيه ويفيض عنه ليُصرف ما تبقى..
يحتاجه كتبرُّع للمركز.

سألته مستغربة:

- ماذا؟ هذا يعني أن هناك أحدًا من عائلته الميسورة يعرف
وجوده، ويعرف من وأين هو؟ أحد ما لديه الكثير من النقود ليتكفل
هذه السنين بمصاريفه، غريب هذا يا شافي، ماذا عسانا نفعل؟ إنه مسدود
ولا يستحق أن يعيش وحيدًا، يجب أن يعرفوا أنه قد أصبح شابًا وموسرًا
ناجحًا، يجب أن يُعاقبوا على ما فعلوه به.

سالت دموعها دون أن تتمكن من ردعها..

- لا تبكِ يا مايا، قلبي يتقطع، لو تدرकिन شعوري الآن، لكن أعاد
أنا سنحاول المستحيل من أجله، ولهذا أردتُ أن أراك اليوم.

مسحت دموعها وسألته مستفسرة:

- أخبرني إذن؟

- سَبَقَ وطلبتُ من ملاك أن تُحضر لي رقم الحساب الذي تُرسل
خلاله النقود وفعلت ذلك بمعجزة.

- ماذا؟ هل هذا صحيح أم أنك تختلق هذا لتُخفف عني؟

أجل صحيح، لكننا لم نتوصل حتى الآن إلى معرفة ذلك
مهم.

ولماذا لم تخبرني سابقاً؟

لم أتوقع أنها ستمكن من إيجاد الملف، ولم أريد أن أشغلك بأمر
اليس له أساس، لكن، عندما أحضرت لي الرقم وجدت أنه من
وري أن تعرفي وأن تفكر معاً لنجد حلاً لهذه المعضلة، لا سيما
أنك المتبرع يُحيط نفسه بسرية تامة، وإن وصل إليه خبر بحثنا خلف
ربما سيؤذي هذا نعمة بدلاً أن يساعده. اجتازت حزنها مما أخفاه
ها، وأكملت بحثها معه عن الحلول:

إذن المشكلة الآن هي كيف سنجد صاحب هذا الحساب؟

أجل، ولا أعرف حتى الآن كيف، يجب أن نفكر جيداً.

لدي قريب وهو صديق مميّز أيضاً، إنه عبقرى في مجال الكمبيوتر
المعلوماتية والقرصنة، ربما استطاع مساعدتنا من خلال اختراق شبكة
معلومات السرية للمصرف.

وهل تعتقدين أنه سيساعدنا؟

أعتقد هذا، خاصة لو أخبرناه بقصة نعمة، دعني أحاول، سأتصل به
الآن وأطلب منه أن ينضم إلينا.

طلبت الرقم، وبعد قليل سمعته يرحّب بها بمودة كالعادة:

مايا.. أين أنت أيتها الخائنة؟

- أنا لست بخاتمة.. إنما هي مشاغل الحياة فمنذ تخرجي وأنا أبعث
عن عمل وأحاول أن أرتب حياتي بشكل يتلاءم مع فراغ ما بعد الدراسة
والامتحانات ولا تنس أنني من اتصل ولست أنت.. من يكون الحاضر
إذن أيها القرصان؟

- آه، لا تقلقي لقد مررنا جميعًا بهذه المرحلة، أراهن بأنك ستجدين
عما قريب ما تبحثين عنه وأكثر، فعندما تريدن شيئًا تنحني أمامه
الأقدار، إنما قولني لسي الآن ما قصة القرصان؟! يبدو أن لديك
مستحيلة، هيا قولني ماذا هناك خلف هذا الاتصال؟
ضحكا معًا، ثم قالت بجديّة:

- هناك شيء هام، ولكن اسمع، لا أستطيع أن أخبرك على الهاتف
أنا وصديقي شافي في مقهى المدينة، هل تستطيع أن تلحق بنا الآن؟
- الآن؟

- أجل، أرجوك الموضوع هام جدًا ونحن بحاجة إلى مساعدتك
صمت قليلاً ثم قال:

- أنا في المدينة أيضًا ولكن مع أصدقائي، أعطيني نصف ساعة
سأودعهم وأذهب إليكما.
- ممتاز إننا بانتظارك.

أقفلت الهاتف ونظرت إلى شافي الذي كان يراقبها بإعجاب تام،
بيتسم:

أنت حقًا مُبدِعة، ما الذي دهاك لتدرسي علم هندسة الجينات
، انبة، أنت شخصية اجتماعية فذة.

اجابته وهي تبسم بمكر:

لا يتعارض ما درستُ مع ما أتقن، حتى عالم الخلايا والجينات
، احاة إلى حنكة ودهاء.

نابعا حديثهما الهادئ إلى أن قاطعه صوت ذلك الصديق مناديا إياها
، بعيد ملوِّحًا بيده.

سام! كيف حالك؟ هذا شافي زميلي وصديقي، من المدرسة ثم
الجامعة إلى الآن، شافي.. هذا سام، أخي الحبيب وقريبي، الوحيد من
الاربي الذي أسميه صديقًا وأخًا، أنا من أولئك الذين يؤمنون بالصدقة
اثر من الروابط العائلية.

صافحهما وجلسوا يتحدثون عن الجامعة والدراسة، الخيل
والسيارات وبعد أن تأكدت أن الوقت بات مناسبًا لطرح الموضوع
ادرت بشكل جذي:

- حسنًا يا سام الوقت يدهمنا، وقبل أن تقرّر الرحيل دعني أخبرك
من الموضوع الذي نريدك أن تشاركنا في إيجاد حلّ له.

- أجل صحيح، كدتُ أنسى، هيا أخبريني، وأتمنى أن أستطيع
مساعدتكما.

رَوَتْ له قِصَّةَ نعمة وظروفه وإبداعه ومحاولة قتله، وكل التفام الأخرى إلى أن وصلت إلى رقم الحساب.

- والآن يا صديقي أنا وشافي نقف أمام عقبة مهمة سوف تحل أ حياتاه وربما تعيده إلى أهله، أو ربّما ستعيد له حقًا مسلوبًا منه، أو الأقل ستعطيه اسمًا وكنية وتُسَقِّط عنه صفة اللقيط.

- إنها حقًا قِصَّةَ محزنة، ليس أماننا إلا أن نصل إلى سجلّات المصرف - وهل تستطيع أن تخترق سجلّاتهم تلك؟

- صعبٌ جدًّا أن نقوم بهذا من خارج المؤسسة، المصارف مجهزة ببرامج حماية فائقة الدقة.

قالت بيأس:

- إذن ليس هناك حلّ.

- نستطيع أن نخترقهم فقط من خلال دخولنا عبر جهاز من أجهزة المصرف.

قال شافي مستفسرًا:

- وكيف لنا أن نصل إلى هناك؟ هل سنقتحم المبنى مثلًا؟

- بالتأكيد لا يا شافي، هناك حلٌّ آخر، مايا فتاة ذكية وجميلة، وبإمكاننا أن نرسم خطّةً نستفيد بها من مؤهلاتها هذه، أمّا أنا فبحاجة إلى عشر دقائق على أي جهاز من أجهزة المصرف لأخترق النظام، وأستخرج

١٠٠. اجونه من معلومات، لكن عليكما أن تفكرا كيف ستوصلاني إلى
١١. وكيف سنخرج بعدها بأمان دون مشاكل، وإلا سيتهيئ بنا الأمر في
من بتهمة السرقة.

طر شافي إلى مايا فأومات له برأسها كمن عجز عن إيجاد حل لهذه
هيلة، الوقت قد بات متأخرا والمقهى أصبح شبه فارغ، بادر شافي
١١م بعد صمت طويل:

حسنا دعونا نعود الآن إلى بيوتنا، عندما تستريح أعصابنا قليلا
١١ ف نجد حلا لهذا الموضوع، نحن بحاجة إلى بعض الوقت كي
١١م باخطاء من الممكن أن نندم عليها.

١١م ذعوا بعضهم وعاد كل منهم إلى عالمه وذاته باحثا عن حل ما
١١م طريقة آمنة توصلهم إلى رأس الخيط المفقود.

33

أيامَ مرّت وهم غارقون في متاهات لا أبواب لها، يتشاورون
ويجمعون المعلومات، يحاولون الحصول على اسم صاحب الح-
بشتى الطرق دون جدوى، لم يبقَ أمامهم سوى دخول المصرف و...
فرصة مناسبة لسام لاختراق الملفات، إنه الحل الوحيد وعليه
يجربوه رغم خطورته، في حال افتضح أمرهم سوف يعلنون الفم
على الرأي العام، وإن مرت الأمور بسلام سيبحثون عن عائلته إلى
يصلوا إلى ذلك المجرم الذي رمى به وحيداً على أبواب الحياة، وعاء
سيكون القضاء صاحب الكلمة الأخيرة، إن السكوت عن أي جريمة
جريمة أيضاً، لكن عليهم أن يقطعوا الشك باليقين أولاً.

جلسَ شافي في المقهى يحارب القلق الذي نبّه أعصابه و...
أنفاسه، لقد أبلغته مايا خلال اتصالها الأخير بأنهم على وشك الد-
إلى المكان، صحيح أن وجود سام معها قد خفف بعضاً من توتره لكن
لم يُنهِه.

- عليّ أن أهدأ قليلاً، ما فعله ليس خلفه جريمة أو جنحة، إ-
نحاول إنقاذ إنسان لا ذنب له سوى أنه وُلِدَ من أبوين مجرمين، أو أ-

مقطع، لال أنسرع في إصدار أحكامي، علي أن أنتظر ما ستحملة
هامة المصروف هذه.

أثلبت ثقته بالله - سنده الجديد - وصدق نيته قلبه المتعب
جلس يتضرع بالدعاء لحب عمره وصديقتها، وصديقه وربما أخيه
انحرسهم يد الله من كل أذى.

ت الدقائق ثقيلة بطيئة وخانقة، عادت الظنون لتسكنه من جديد،
لاحظ ذلك الموظف المسؤول في قسم الإيداع تلك اللعبة التي
ها مايا عليه؟ هز رأسه محاولاً إبعاد تلك الأفكار السلبية تماماً من
أ.

لا، أنا أثق بقدرتها في التأثير على الآخرين، وكما أخبرتني أن
قد سارت بينهم على أفضل حال، فلقد اتصل بها هو شخصياً عدة
بعد أن أخبرته بأنها ابنة أحد الأثرياء العرب وقد ورثت ثروة أخرى
ألمها الألمانية المتوفاة وتريد أن تنتقل من أوربا وتستقر نهائياً في بلد
ها وتؤسس عملاً لها هناك.

طلباً ما كان لهذا الموظف أن يفوت عليه فرصة كهذه، لجوؤها إليه
طلبها المساعدة، وتلك الصور التي أرسلتها له والتي تبرز جمالها،
الإضافة إلى تلك الثروة التي تملكها والتي كانت بالنسبة له العنصر الأهم
الذي جعله يتوّد لها، ويساهم بكسر أي حواجز بينهما، وهذا الموعد
السرير بعد أسبوع من تعارفاهما أهم دليل على وقوعه في فخ مطامعه.
قد ادعت أن أباها الصغير سام سيرافقها لتفتح الحساب باسمها معاً

كونه شريكها بالميراث، لم يُقلق وجود سام السيد المسؤول، مادام الأسيكونان تحت رحمة استشاراته. إلى اللحظة التي أنهى فيها الأسم مع مايا كانت الأمور تسيير على ما يرام ولكن ما يحدث الآن ١٠٠ لا يعرفه أحد سواهما، لقد اتصل بها ذلك الموظف عدّة مرّات من ١٠٠ في المصرف من خلال كاميرا الحاسوب وأراها المكان حيث به، وبعث لها أيضًا العديد من الصور، المكان ليس مجهولًا كليًا بالذات لها، وقد جعلها هذا تتأكد من خلق مكتبه من كاميرات المراقبة الداهة. أقلّه أثناء دوام العمل، فهم لا يسمحون لأحد بالدخول إلى هناك إلا على موعد مسبق، لهذا لا يستعملون الكاميرات الداخلية إلا بعد ١٠٠ الموظفين.

- أعرف أنني أبالغ في تصوّراتي هذه، لكن قلقي مبرّر رغم كلِّ شيء. التطمينات، لا أحد يعرف ماذا يمكن أن يحدث من تطورات، ولن به. شكّ رجال الأمن ومسؤوليتهم من التدخل وتفحص الأوراق الشخصيّة للزوار.

شرب الكثير من القهوة، اتصل بنعمة واطمأن على حاله، نظر إلى ساعته للمرة الألف، لقد مرّ على دخولهما المكتب ما يقارب الساعة. من المفترض أن يكونا الآن قد أنهيا المهمة، لم يتصلا بعد؟ لقد ترجّاه أن يتصل به فورَ خروجهما من هناك.

هاتف سائق سيارة الأجرة، ليس هناك من جديد، مازال بانتظار. أمام المصرف، لقد أدرك مسبقًا أن لحظات الانتظار هذه سوف تقاها.

ان يرافقهما لكنهما أصراً أن يبقياه بعيداً ليتمكن من الاهتمام بهما في
مثل الخطة وإدخالهما السجن. رغم هذه المخاطر التي تحاصرهم،
. يستطيع أحد أن يجزم، إن كانوا سيخرجون بنتيجة مرضية أم لا، إن
. اسيجدون مخرجاً يكشف الأسرار ويريح الجميع، أم سيظلون
. في دوائر الشك والحيرة التي يتخطون فيها الآن.

ربما التقطت لهما كاميرات المراقبة الصور عند دخولهما؟ وربما
مرفون على شخصيتيهما لاحقاً حتى وإن نجحت المهمة، لا،
. أم، إن هذا مستحيل.. عندما التقينا قبيل ذهابهما إلى هناك لم
. هلع أن أتعرف عليهما فذلك الشعر الأصفر والعدسات الملونة
. "سباب الأنيقة التي ارتدتها مايا غيرت ملامحها كلياً، وتلك القبعة
. المحية قد مسحتا شخصية سام تماماً، لا.. إن هذا غير محتمل إلا إذا
. هس عليهما الأمن متلبسين.

أشعلته تلك الفكرة وكادت تفقده أعصابه، إلا أن القدر رحمةً قليلاً
. اعاده رنين الهاتف إلى أرض الواقع..

أه أمي، جيتد أنك اتصلت.

كنت أود أن أطمئن عليك، هل أنت بخير؟

أخوض امتحاناً صعباً يا أمي صلي من أجلي أرجوك.

حسناً سأكلمك لاحقاً.. فلتحرسك يد الله وترعاك أينما كنت.

أقفل الهاتف وعاد لينظر إلى الساعة..

- يد الله معنا، من أجلك يا نعمة ومن أجلي.

رَنُّ الهاتف من جديد، هللت روحه وارتجفت مفاصله، إنها..
أخيرًا.

- مايا هل أنتما بخير؟

- أجل، لقد خرجنا الآن، إننا في السيارة سأكلمك لاحقًا، رن،
يتعقبنا أحد.

أقفلت الخط بسرعة وتركته في نصف حاله، زال نصف خوفه ونصه
آخر عاد لينمو في داخله من جديد كاشتعال النار في الهشيم.
شرب كوب الماء الذي أمامه إلى آخر قطرة دفعة واحدة وكأنه اجاب.
الصحراء وشمسها الحارقة سيرًا على الأقدام.

- ربّما يلاحقونهما الآن، هذا ما قالته، ماذا تقصد؟ هل تعرفوا عليهما؟
هل افترض الأمر؟ كلا.. لا أعتقد، لقد اتصلت من سيارة الأجرة، يعرف
أنهما قد خرجا من هناك.

حاول الاتصال بها، أو بسام، أو بسائق السيارة، لكن لم يجبه أحد.
عليه أن يتحلى بالصبر قليلًا، وبعد طول انتظار اتصلت مايا مجددًا فصار
في وجهها فاقداً أعصابه:

- مايا أين أنتما؟

- نحن هنا خلفك عند باب المقهى، لقد وصلنا..

أفضل الهاتف وفتح ذراعيه، غمرها مُفرغاً خوفه عليها وفرحه بها دون
١٠٠. ثم عاد وأخذ سام في حضنه أيضاً ولم يجد كلاماً يقوله، هما هنا
١٠١. كل ما يهتمه الآن، التقط أنفاسه وتمتم باستسلام.

الحمد لله، لقد أفلقتُماني عليكما، أخبراني هل حصلت أي
١٠٢. هل كشف أحد أمركما؟

ارتشفت مايا قليلاً من الماء ثم قالت:

١٠٣. إلى الآن الأمور سارت كما رسمنا لها، لا داعي للقلق.

١٠٤. أخبريني إذن بالتفصيل عما حدث.

١٠٥. دخلنا إلى المصرف، وكان ذلك الوصولي في انتظارنا عند الباب
الحارجي بكامل أناقته، ورائحة عطره الأخاذ تسبقه إلينا، لم يسألنا أحد
أبي سؤال ولم يعرف أحد من نكون، دعانا إلى مكتبه وجلسنا هناك، بعد
حديث وسلام وكلام وعشرات الأسئلة والأجوبة، حلّ على الجلسة جوّ
من الودّ والألفة، ضحكنا وتسلينا، قدّمَتْ له ذلك القلم الثمين كهدية
مفززت عيناه، ثم فتحت علبة الشوكولاتة الفاخرة التي حملتها له معي
من فرنسا وأصررتُ عليه أن يتذوق تلك القطعة التي اخترتها له، لم يكن
ليرفض، أخذها من بين أناملتي والتهمها بشراهة وعيناه معلقتان في عينيّ
وهو يمثل دور العاشق، لم تمضِ إلا دقائق قليلة حتى دخل في سبات
عميق ملقياً نصف جسده على طاولة المكتب، عندها بدأ سام مهمته
بينما أضاءت أنا النور الأحمر كي لا يدخل أحد علينا كما رفعتُ سماعة
الهاتف..

تابع سام قائلاً:

- كم كنتُ متوتراً، وظننتُ لدقائق أنني نسييتُ كيف أشغل تلك الأ
وكيف أدخل إلى خباياها، بعد وصولي إلى ملف العملاء لم تعد ال
صعبة، وضعتُ الرقم الذي أعطيتني فأدخلني إلى الحساب وساء
مباشرة، بعدها قمتُ بطباعة تلك الأوراق وتأكدت أنها سليمة، أه
الملفُ وأعدت الجهاز إلى ما كان عليه ومسحتُ ما مرَّ من إجراءات
لا يعيدوا البحث ويصلوا إلى ما أردنا الوصول إليه، يا إلهي! لم أصد
أنا ستمكن من إنهاء المهمة.

تنفس الصعداء وتراخت أعصابه، ابتسم لهُما مهتناً.

- أجل يا سام، الشكر لله على رعايته لكما، أخبراني ماذا حدث
بعدها.

أكملت مايا الحديث:

- أخذنا الأوراق وخرجنا من هناك بهدوء إلى أن اجتزنا صا
المصرف، عبّرنا الباب تحت أعين رجال الأمن، صعدنا سيارة الأ
وعاد بنا إلى الموقف حيث تركتُ سيارتي، كانت مفاصلي ترتجف ودا
أن يُغمي عليّ من شدة التوتر، نزعتنا عن تلك الأشياء، ولولا وجود سام
معي وتوليّه مهمة القيادة لبقيتُ إلى الآن في السيارة.

انفجرت أساريه رغم أن ضربات قلبه ما زالت تسابق بعضها بعضاً
بانظار المفاجأة الثانية.

١١، شكرًا لكما يا صديقي، أتمنى أن نستطيع مساعدة نعمة بما
عليه من معلومات.

١٢، عليك يا شافي، لا يجب أن نشكرنا، إنه واجبنا ومسؤوليتنا
١٣، لكن علينا أن نتابع الأخبار، رُبما حصل مكرهه لذلك المدير،
سُت وكأنه قد مات.

١٤، ما بهتة مايا بثقة وهي تبتسم بمكر:

١٥، لا تخف عليه، فدوام العمل قد انتهى قبل خروجنا بقليل، أعتقد
١٦، صباح هناك إلى أن يوقظه عمال النظافة في الصباح، وأعتقد أيضًا أن
١٧، احته ومركزه سيمنعانه عن فضح ما حصل، فليس هناك مفقودات
١٨، بصمات ولا أي أثر لأي عمل تخريبي أو سرقة، حتى شريحة الهاتف
١٩، وكلمته منها قد أتلقتها، وأسمائنا مستعارة، أمّا اسم والدنا الذي
٢٠، عملناه وانتحلنا صفة أبنائه إن هو حاول الاتصال به والسؤال عن
٢١، فلن يكون لمساء صباح.

٢٢، بدلها سام الابتسامة بعد أن أزال كلامها قلقة..

٢٣، أتمنى فعلاً أن تنتهي الأمور عند هذا الحد يا مايا.

٢٤، قاطعهما شافي قائلاً:

٢٥، - أنا أيضًا أوافق مايا الرأي، لكن أين هي تلك الورقة التي متنا من
٢٦، املها؟ أريد أن أعرف من هو صاحب الحساب، وأتمنى ألا يدخلنا اسمه
٢٧، بمعناه ثانية..

تَسَمَّرَتِ أعين سام ومايا في نقطة متوازية ونظرا إلى بعضهما ..
فاقدتِ القدرة على الكلام ..

ابتسم شافي مستفسراً:

- ماذا هناك يا مايا؟

أطرقت رأسها بحزن وآثرت الصمت ..

- تكلم أنت يا سام .. ماذا تُخفيان؟

استجمعت مايا شجاعتها من جديد واستخرجت الورقة من الحة
وأعطته إياها، تبدد لون الحياة في عينيه وشلَّ جسده.

خرجت الكلمات من فمه متقطعة باردة:

- هل الاسم الذي قرأته صحيح يا مايا؟

- أجل .. للأسف إنه والدك البروفيسور كميل سالم.

بعد أن أحرقت دموعه مقلتيه دون أن تجد مجراها، شد سام على يديه
الباردة بعطف ..

- لقد أخبرني مايا بقصة الشبه الذي يجمعكما بعد أن تلقتِ الصاء ..
مثلك، لكن يجب أن نفرح الآن يا شافي فلقد وجدتِ أخاً يساندك في
هذه الحياة، أخاً لم تحسب لوجوده يوماً أي حساب، أرسله لك الفاء
كهدية من السماء.

مسح دمع تآثره بحزن وأكمل:

- كم هو جميل أن نجد لنا إخوة نتنعم بحبهم وحنانهم وأمانهم.

وما زالت الصدمة تخرس لسانه وتوقف مشاعره عن البوح بنفسها،
ر. حدها من بإمكانها أن تداوي وجعه وهي من تستطيع أن تستشعر
م الألم الذي يعانیه.

لا بأس يا شافي هون عليك، نحنُ معكُ وإلى جانبك، هل ستبقى
..نا الآن؟ لم نفعل كل ما فعلناه حتى نراك على هذه الحال، فمنذ
اعات ونحن نرزح تحت وطأة الخطر من أجلك وأجله، من أجل أن
مه بأهل كنا سنبحث عنهم، فكنت أنت أهله وعائلته، إنه شقيقك
..ل توأمك، ها قد أصبحتما عائلة واحدة كما تمنيت وكما أحسست،
..أ أحببته وحرابت من أجله قبل أن تعرف الحقيقة، وبعد أن عرفت
مه صامتًا؟ ألن تفعل شيئًا حيال هذا الأمر؟ اليس هذا ما أثار ظنونك
..أ تمنيت وحرابت من أجله؟

بصوت تقطعه الحسرة نطق بضع كلمات كانت تؤلم صدره رافضة
الخرج:

- لكن لماذا رماء هناك وحرمني منه طوال هذه السنين؟ إنه أخي!
..ماذا حرمني من أن أناديه يا أخي؟ كيف هان عليه أن أبقى وحيدًا وأن
..ربي هو بعيدًا حتى دون اسم يحمله؟

وأخيرًا انهمرت دموعه على كتفها وامتزجت بخصل شعرها..

- أريد أن أذهب إليه الآن، خذوني إلى أخي، خذوني إليه..
ماطعه سام متوسلًا:

- لا يا شافي أرجوك، دعنا نذهب كل إلى منزله لنستريح من عناء
هذا اليوم ومجهود الأيام التي مرّت، وغدًا نذهب سويًا إلى نعمة، أريد

أن أتعرّف عليهِ أنا أيضاً، لقد أصبحنا الآن أسرة واحدة يجمعنا الـ
والفرح، أريد أن أخبره كم هو محظوظ بكما وبمحبتكما.

- سام محقّ، إن رآك نعمة على هذه الحال سوف يصاب بنوبة عم
ستؤذيه، يجب عليك أن ترتاح وأن تفكّر بهدوء قبل أن تتخذ أي
خاطي من الممكن أن يدمر كل ما بيننا.

- لا أريد العودة إلى البيت، لن أستطيع النظر إلى عينيهِ، سأذهب إلى
أي فندق إلى أن تهدأ أعصابي.

مسكت مايا يديه محاولة إقناعه بالعدول عن فكرته تلك:

- إن والدك لم يعتد على غيابك يا شافي وقد يشير هذا شكوكه...
رمي نعمة وهو صغير سوف لن يتردد عن أذيته اليوم إذا ما عرف أنك
وصلت إلى الحقيقة.

رفع رأسه إلى السماء..

- آه، ما هذا الامتحان المميت؟ كيف لي أن أحتمل هذا؟

- يجب أن تحتمل، يجب أن نحمي نعمة قبل أن تنكشف الأمور.
وربما يجب أن تحمي نفسك أنت أيضاً.

كلامها عن والده زاد ألمه، إنها محقة، إنه فعلاً مجرم وعلينا جميعاً
توخي الحذر.

- أنت محقة، لنذهب الآن وسأجد لنفسي مخرجاً من هذا العقاد.

الحنمي القاتل.

وزت الأيام وشافي معتكف في غرفته، يبرز غيابه بأبحاثه التي وعدت
 وانها، ما يعرفه والده أنه قد قلبَ خارطة يومه، وبأنه يستيقظ عند
 الساعة مساءً لينام في التاسعة صباحاً، لقد رحمة هذا النظام الجديد
 إمكانية مجالسته أو لقاته، أما ما يدور في داخله فكان أقسى من
 بوصف، صدمة الاستنساخ البشري، قصة مادلين، وذلك الطفل
 المستنسخ الذي لا يعرف حتى الآن ماذا حلَّ به، حقيقة نعمة، كل هذه
 الأمور وأكثر رفعت الأسوار بينه وبين كلِّ من حوله حتى مايا وسام،
 الذين حاولوا إخراجه من عزلته، وتلك الزيارة لنعمة التي اتفقوا عليها،
 هذه بات بالنسبة له غير قابل للتفويض أو النقاش وهو في أزمته هذه.
 فاعمة ما يكفيه من المشاكل مع ذاته ومع هذا المجتمع الذي يحاربه
 أو حده، وتراه يحاول جاهداً أن يمدَّ له جذوراً في أرض لم تتسع له يوماً،
 أما سؤاله الأهم الذي يتمحور حول وضعه الجديد، «مايا» وكيف تراه
 الآن وهو ابن الوالد الذي رمى طفله المريض؟ كيف تراه وهو جزء من
 جرم مجرد من الإنسانية؟ ماذا لو عرفت ما فعله بمادلين وذلك الطفل
 الذي لا يعرف أحد أين هو الآن؟ جميع هذه التساؤلات أكدت حتمية
 بلقاءه بين جدرانها الأربعة.

علا رنين الهاتف حاملاً له مفاجأة جديدة، كان قد عزّم على إبعاده.
فلن يستطيع أن يتحمل المزيد من الصدمات.. إنها ملاك.

- أهلاً ماما كيف حالك؟

أجابته والقلق يسكن صوتها:

- أنا بخير. لكن أردتُ أن أسألك عن نعمة، هل رأيته؟ هل هو
عندك؟

- لا يا أمي لم نتقابل منذ كنا معاً، لماذا تسألين؟

- كان من المفترض أن يعود عند الخامسة، والساعة الآن تقارب
التاسعة ولا نعرف شيئاً عنه حتى الآن، اتصلتُ بمايا وسألتها، قالت إن
والدها شاهده عندما ترك مكتبه عند الرابعة والنصف.

صرخ متعجباً:

- ماذا؟ الرابعة والنصف ولم يُعد إلى الآن؟ أين اختفى؟ أين ذهب؟
كانت هي الأخرى شبه منهارة لا تعرف ماذا تقول، لكن خوفها عا،
جعلها تتدارك الأمور فطمأنته قائلة:

- لا أعرف، لقد أبلغنا الشرطة، وإدارة المركز تبحث عنه أيضاً.

- سأتي إليك حالاً..

اتصل بمايا وإذ بها في الطريق إلى هناك.

سألها والخوف يعتصر قلبه:

أعتقدين يا ماما أنه قد عرف بما وصلنا إليه من معلومات فاخطفه
عاش عتاً؟

أما به باستغراب:

هذا تحليل مخيف يا شافي، لا، لا أعتقد ذلك، لكن، ربما، دعنا
نأخذ هذه الاحتمالات، سنلتقي بملاك ونعرف منها حقيقة ما حصل.
مد وصولهما حاولت أن تردع دموعها حين رأت خوفهما وقلقهما

...

أخبرينا يا ماما ماذا حدث؟

ألمت مرارة حلقها قائلة:

اتصل مسؤول قسم السكن في المركز، ليسأل عنه بعد مرور
أعنين على موعد وصوله، كانوا يعتقدون أنه عندي، رغم أنني لم
أرطجه معي يوماً دون علم الإدارة، أتيتُ مسرعة إلى هنا أبحث عنه
أمن أي دليل على مكان وجوده لكن دون جدوى، اتصلت إدارة مركز
أهبل بالمعهد فأخبروهم بأنه قد خرج من هناك وهذا ما أكده والدك،
أما بعدها الشرطة وها هم مع موظفي الأمن في المركز يبحثون عنه في
أحاء المدينة.

أخفى وجهه بيديه كي لا تقرأ ما كتب عليه، إنه أخوه، أبعدُه عنه ذلك
الأب القاتل بسبب مرضه، وبعد أن وجدته، كيف له أن يضيع منه من
مديد؟ هل أتتج والده تلك الجريمة بأخرى؟ سألتها وهو شبه منهار:

- ماذا سنفعل الآن؟

- لا أعرف.. هل نبقى هنا وننتظر ربّما عاد، أم نذهب مع الأ..

إلى المدينة لنبحث عنه؟

صمتت قليلاً ثم أكملت وهي تمسح دموعها:

- عندما ضاع متي في المرّة السابق، كان صغيراً، بحثت و
كالمجنونة في كل مكان، إلى أن وجدته حارس الحديقة العامة نا.
تحت إحدى أشجارها، يومها قرّرتُ أن لا أتركه من جديد، لكن عاد.
اعتاد الخروج وحده إلى المعهد، قرّرتُ أن أضبط مشاعري وأد.
يعتمد على نفسه، لم أتوقع أن يضيع ثانية، ما كان عليّ أن أترد.
من المؤكد أن شيئاً ما قد شتت تركيزه، لقد اجتاز هذه المرحلة منذ ز.
واعتاد أن يذهب إلى هناك يوميّاً بدون مشاكل تُذكر.

أمسكت مايا يديها علّها تخفف عنها وطأة جلد النفس تلك

بعد صمتٍ وتفكيرٍ سألتها شافي مستفسراً:

- هل تذكرين أين وجدته؟ في أي حديقة من حدائق المدينة؟

- أجل، لقد كان في حديقة البرج، هناك عند الشجرة المعترّة النر.

حولت جذورها إلى مقاعد..

قال شافي بتعجب محاولاً جمع شتات أفكاره من جديد:

- أجل أعرفها وأعرف المكان جيّداً، كنتُ أسكن في الجوار طوا.

فترة دراستي.

سـ من قليلاً واستغرقَ بالتفكير وكأنَّهُ قد سافر إلى ما وراء ذاته وعاد،
مـ فائلاً:

هيا معي.. أعتقد أننا سنجدُهُ هناك.

اـ اطلقوا مسرعين، عبروا دروباً مختصرة وممرات ضيقة إلى أن
. اه، اترك شافي سيارته في الشارع وركض مسرعاً إلى هناك، توقّف
. اه ثم راح يسير ببطء عندما رآه، كان جالساً بين أحضان تلك الأم
و. اه التي تُسمى شجرة الحياة.

سـ نزل المدينة الذي سكنوه يقع في الشارع المقابل للحديقة، لقد اعتاد
. اه أيضاً الجلوس في أحضانها عندما تتباه نوبات الشوق إلى أمه أو حين
. اهمه قسوة الحياة.

جـ جلسَ قربه وطوق كفيه بذراعيه، نظرَ إليه نعمة باستغراب لكنه أثر
اصمت، حملَ شافي إحدى أوراق الشجرة المتساقطة وقسمها نصفين
م اعطى نعمة نصفها واحتفظ بالنصف الآخر..

هـ هذا نحنُ يا نعمة، رأيت كيف حزنت عندما رأيتني أقسم هذه الورقة،
هـ. اه هذا هو حالنا، لقد تألمنا جدًّا عندما تركتنا، لا تذهب من جديد كي
لا نحزن تلك القلوب التي تحبك، ملاك ومايا هنا بانتظارنا، دعنا نذهب
الآن، وأعدك بأن نأتي إلى هنا مرة أخرى.

علت البسمة وجهه من جديد..

- لو حدثنا؟ أتعدُّني؟

- لوحدنا، أعدك.

نهض الاثنان وسارا بمواكبة مايا وملاك نحو السيارة ثم اعادتا عائدتين، وصلوا إلى المركز وأعلموا الشرطي ورجال الأمن به. هاهو في غرفته الدافئة من جديد وهاهي ملاك تعتني به وبه للنوم، وشافي يحمل لها ما تحتاج. كانت مايا تراقب ما يحدث باه واستغراب، شافي إنسان آخر، يفيض حناناً لم تعرفه فيه سابقاً. مستفسرة، بعد أن ساعد ملاك بإدخال نعمة إلى الحمام، وجلس ليستريح:

- كيف عرفت مكانه يا شافي؟

- تذكيرين عندما زارني كيف تعرّف على الفيلا، تفاصيلها وممراتها لذلك، وحين أخبرتني ملاك أنهم وجدوه في تلك الحديقة سابقاً، تقع بالقرب من منزلنا، توقعت أن يكون قد أمضى هو أيضاً مرحلة. مراحل طفولته في تلك الشقة، وكان خارطة الأماكن قد طبعت في دون أن يدري، لا يذكر الأسماء والوجوه لأنها تتغير ولا يحفظها، يعرف أين وجد وتربى وعاش، إنها طبيعتنا نحن البشر، أرواحنا تأمل عندما نتوه، وعند حزننا وضياعنا، إلى حضن ماضينا، إلى جذورنا، إلى حيث كنا وكبرنا وترعرعنا، إنها قصة حنين إلى نحن الذي لا نند، ولا نعرف ماهيته ولماذا تحملنا أقدامنا إلى أماكن لا نعرف ارتباطنا به أجابته بحزن كالذي سيطر عليه:

- أشعر بوجعك، وأحسدك على تماسكك، وعلى هذا الإنسان الساكن فيك، وأقدر سبب عزلتك يا صديقي الغالي، لكن لا تعلم

أرى إنسان تافه أحكم على الأمور بما ظهر منها، أنا أعرفك جيّدًا
أرى، ولهذا اخترتك صديقًا لي، لا أخفي إعجابي باسم والدك، لكن
أرى هذا يومًا ما جمعني بك، يجب أن تخرُج مما أنت فيه، نحنُ معك،
أرى أصبح عندك كل ما تفتقد، وما هو القدر يكشف ما أخفّته الأرض
أرى وبالتحديد الآن، الآن هو الوقت المناسب لتعرف الحقيقة،
أرى علمك لخير البشر، ولتحتضن من هو بحاجة إليك، ولتبعد عنك
مودة إلى الدمار، علينا أن نحترم إرادة الله ومشيتته وما رسمه لنا
أرى من الذي كتبه علينا ليمنحنا فيه رحمته.

أرى لك يدها بحنان وهو يبتسم ثم قبلها..

سأحاول يا مايا من أجلك أنت.. أعدك.

أرى قليل خرج من الحَمَام وهو أكثر استرخاءً، وقد عادت الابتسامة
أرى وجهه ملاك أيضًا، فنادت شافي قائلة:

شافي حضّر له الشاي لو سمحت، كل ما تحتاجه موجود أمامك،
أرى يا مايا، شغلي تلك الأسطوانة في المسجل.

لقد أعاد وجودهم الابتسامة إلى شفثيه والطمأنينة إلى روحه.

عفت ملاك بحنان:

لا تتركنا ثانية يا نعمة، لقد خفنا عليك كثيرًا. هل رأيت؟ لقد
أدمنهما، وأستاذك أيضًا لم يتوقف عن السؤال عنك، كيف لك أن تفعل
أرى هذا؟

أجاب بحزن ممزوج بالغضب:

- لقد أثار مازن جنوني، كان بانتظاري أمام المدخل، راح يدهم لعبور الشارع المزدهم بالسيارات، وعندما تجاهلته صرخ بي وقال: كلامًا غريبًا وضحك عاليًا، هربت منه إلى البعيد، أردت العودة إلى بيتي، لا أريد الذهاب إلى هناك، لا أريد أن ألتقي بمازن مرة أخرى، يكرهني.

قالت مايا بغضب:

- إذن مازن الحقيير من جديد، لا تقلق يا نعمة سيكون حساب عسيرًا.

خنقت الدموع صوتها، فمسحت أصابع شافي جباتها المتساقطة.

- هذا يؤلمني كثيرًا يا شافي، كيف سنحميهم؟ إلى أين سنأخذهم، ظلم هؤلاء الأموات الأحياء.

أعاد كلام مايا مشاعره إلى ما قبل هذه الأزمات التي عصفت بهم، إنها مختلفة، راقية ومرتفعة عن تنمق المجتمع الزائف وتعلقه بالقشور
 الأسماء والمراكز، كان سعيدًا بتلك الحقائق التي يلمسها واقعًا لا يقبل
 ك، فلقد ظنَّ ولُبَّهةً ليست بقصيرة أن إعجابها به سببُ اسم والده
 هرنه، أو نقوده وربما مركزه العلمي، هكذا تعلّم، وهكذا كلامُ والده
 «نفسه! كل من حولك طامعون أو حاسدون أو ربما يتفنون مصالح
 حصية تستتر خلف الأسماء الرنانة كالصداقة والأخوة وغيرها، ليس
 إلا من يستحق أن نُهدر مشاعرنا من أجلهم».

لكنَّ ما حدث بالأمس كان واقعًا آخر لم يسمعه ولم يعشه، لقد أعطته
 ما أطفها تلك دوافع جديدة لمواجهة الحياة بأسلوب مختلف عمّا تعلّمه،
 كانت هذه المرحلة مكثفة الصدمات ذات جرعة عالية من الضغوط
 المشاكل، أشياء كثيرة تغيرت في حياته كمن اجتاز عشرات الأعوام
 مرة واحدة، لقد خففت تلك العواطف عن كاهله ثقل هذه الأيام دون
 ما بلغني إحساسه بالمسؤولية تجاه ذلك الأخ المختلف، هدية القدر، لقد
 أهده بالأمس ولأول مرة وهو ضعيف منهزم أمام أثقال نفسه المتعبة،
 مد أن عرفه عازقًا مبدعًا يواجه مجتمعه وضعفه مواجهة الشجعان.

كسرتُه معاناته، و صفعت إنسانيته بقساوة غير أنها زادتُه إصرارًا، لإخراجه من وحدته وعزله التي يعيشها، رغم وجود ملاك في ورغم حبها ورعايتها له التي تفوق حب ورعاية الأمهات، لكن إنسان مسؤول أيضًا ولديها أسرتها وأولادها وعالمها، وهو وحيدًا في تلك الشقة الصغيرة معظم الأوقات رغم متابعة المراد لكنهُ وحيد ومن الممكن أن يُنهي حياته في لحظة يأس، أو أن أو يحترق ويحرق المكان معه دون أن يدري، ومن الممكن أن نفسه أثناء تحضيره طعامه، واحتمالات مخيفة أخرى..

- لا يجب أن يكون وحيدًا، حتى ما حدث في الأمس ما كان له لو أحسن أن هناك من ينتظر عودته، لما خرج هكذا دون هدف، تاه في الشوارع، لو وجد من يرعاه ويتابعه في عمله لما وقع عليه زميله دون رادع، يجب أن يبقى تحت مراقبة اجتماعية وأسرية دائمة، ضرب طاولة المكتب حيث كان جالسًا بقبضته ثم نهض وراح إلى الغرفة ذهابًا وإيابًا.

- علي أن أهدأ، يجب أن أثبت وجوده قانونيًا، نعمة يجب أن يكون وليس في مركز التأهيل، يجب أن يحمل كنيته الحقيقية، إنه نعمة - يجب أن يرث مثلي شاء أبي ذلك أم أبى، وإن لم يقبله بيننا سيخون نحن الاثنين وسأخذُه معي وأرحل.. ما زال هناك الكثير لإنهائه مع الرجل، موضوع مادلين أيضًا ما زال يؤرقني وطفلها المستنسخ الذي ربما كان أخي أيضًا بطريقة ما، ومن يدري؟ ربما كان له أطفال أيضًا ونساء أخريات كمادلين ويحتاجون أيضًا لمساعدتي، آه! هذا مدمر أستطيع أن أعلن حربي عليه الآن، أحتاج إلى بعض الوقت..

١٥. هذا الحوار الطويل مع ذاته قرَّرَ أن يتبع أسلوبًا آخر، عليه أن يكسر
انه والأسوار القائمة بينهما ربّما استطاع الوصول إلى ما يريد، ربما
١٦. من إدخال نعمة إلى حياتهم دون حروب، دون هزيمة وانتصار،
١٧. أسلوب الأفضل، أسلوب العقل بعيدًا عن الانفعالات العاطفية التي
١٨. هذا الأمر بدل أن تحلّها، فأبي تصرّف أخرق من الممكن أن يعرّض
١٩. حياة نعمة وربّما مادلين وكل من حولهم أيضًا للخطر.

٢٠. احم حتامه، ارتدى ملابسُه ونزلَ مسرعًا ليلحق بوالده على الفطار،
٢١. حالسُه منذ زمن، هناك الكثير من الأمور التي يرغب في مناقشتها معه
٢٢. أن يغادر المنزل كما اعتادا سابقًا أن يفعلا في جلسة الصباح.

٢٣. فان هناك كعادته على نفس الكرسي يستمتع بما وُضِعَ في طبقه..

صباح الخير يا والدي.

٢٤. ذ الصباح بفرح وشوقٍ ظهرا على مُحتَياه..

٢٥. أخيرًا عُدت من رحلتك أيها الابن المشاكس، هل هناك من جديد؟
٢٦. امرني.. هل تحمل لي بشارة نهاية الأبحاث؟ أم أنك اشتقت لوالدك
٢٧. المحروز؟

٢٨. قال بأسف وهو يبتسم:

٢٩. لا لم أنته، إنني مُنتَهك وأريد أن أستريح قليلاً، فلم أر ضوء الشمس
٣٠. أسابيع، سأخرج اليوم إلى المدينة لألتقي بعض الأصدقاء، وأنت

يا أبي، ما هو برنامجك لليوم؟ هل توافيني في المساء على اله
هناك؟

- لا أستطيع.. أرجو أن تخرجني من دائرة اهتماماتك، إنني أ
موضوعًا مهمًا هذه الأيام وعليّ أن أنجزه.

تبقّلت حواسه فسأله مستفسرًا:

- ماذا هناك؟ هل تخفي عني أمرًا ما؟

أجاب وهو يهز رأسه نافيًا:

- لا، مؤكّد لا، لكن هناك بعض الأعمال العالقة سأخبرك عنها
انتهى من إنجازها، سأخرج الآن إلى موعدي، أراك لاحقًا.

- حسنًا، اعتنِ بنفسك وحظًا سعيدًا.

هزّ القلق كيانه من جديد، شعرَ بأن والده يحضر لشيء ما، لقد
شكّه وخوفه منه يحاصرانه كما تحاصر الماء الجُرُور، وكأنّه يُقارب بر
قديمًا ذا فوهة باردة، لا يعرف أحد ماذا يخفي في جوفه ومتى سينفج

بعد خروج البروفيسور توجّه نحو صورة والدته المعلقة في الس
نزعها عن الحائط، وضعها في ركن مضيء، قام بتصويرها بدقة فانه
فالיום سيحمل لنعمة نسخة منها، وستكون أفضل هدية تُدخل السعا
إلى قلبه. عندما انتهى رفعها من جديد ليعيدها إلى مكانها، فأوه
المفاجأة مذهولًا، عاد ووضعها جانبًا، نظرَ حولهٌ بحذر ثمّ تقدّم ب
متحفصًا الحائط مكان اللوحة، راح يتحسّسه بأنامله المرتعشة.

« هذا؟ إنها خزانة! هل هي تلك التي أبحث عنها؟ هل ستُفتح
الأمم... أم الخبايا والأسرار جمعاء، أم ستُفتح أبواب أسرار أخرى؟
أما... أين المفتاح؟

« أمم اللوحة إلى مكانها، صعد إلى غرفته وعادَ مسرعًا، نزعها من
اليد، ثم اقترب بمفتاحه من ذلك القفل ويداها ترتجفان، نظرَ إلى أعلى
اللوحة... أدخل المفتاح فأخذ مكانه بسهولة تامة، أغمض عينيه وأداره،
« فمع ما سمعَ صاخبًا جدًا في أذنيه كخفقٍ ما في صدره، فتح عينيه
« باب الخزانة يُفتح أمام ناظره، لم يكن هناك سوى ملف أزرق
« وعلبة مجوهرات، التقط أنفاسه ثم تناول الملف بحرص وقرأ ما
« عليه: «خاص.. مادلين حامد»..

« يا الهي! مادلين، أخيرًا عرفتُ كُنيتك.

« منح الملف وراح يقرأ عناوين تلك الأوراق، ثم تفحص ما في العلبة.
« إنها هدايا والدي، تلك المجوهرات التي رفضت أخذها.

« انابه شعور غريب أشعل الصراع في داخله بعد أن ظن بأنه قد
«... وكان روح تلك المرأة تطارده وتطالبه بإنقاذها من ألم ينحر
« ابنها بسكين الذكرى.

« لا تقلقي سأعيد لك ما سلب منك، بات لدي ما يساعدي في رحلة
« البحث عنك، صحيح أن كُنيتك واسم بلدك، لن يحلًا الأحجية وربما
« يدخلاني بمناهات أخرى، ولكن تأكدي أنني سأفعل المستحيل من
« الملك أيتها الأم الثكلى، وسنعتز سويا على ابنك الضال كما عثرت على
« سفيقي، هذا إن لم يكن من يُسمى أبي قد قتله أو تسب له بأذى. سنصل

إلى الحقيقة معاً مهما كان مصيره، بعاطفة الأمومة التي في قلبك،
أنا سنجده معاً.

أعاد كل شيء إلى مكانه، ثم حمل الملف إلى مختبره وأقبل إلى
خلفه بإحكام، أخرج محتواه على طاولة وراح يلتقط الصور
الأوراق الواحدة تلو الأخرى (إذن عملها السابق، المحضر الذي حرره
والده ضدها بتهمة السرقة لمنعها من دخول البلاد، عقد شراء شقة
سكنية، عقد شراء سيارة، فحوصات طبية، فواتير المجوهرات) به
بين محتوياته بشغف عن شيء آخر، تمنى أن يجده، صورة لها، هذا
كان يريد، لقد رسمها في مختلته، كان يتوق ليتأكد مما رسم، كأنها
وأمه وأسرتها التي رحلت دون أن توذعه، حمل ما بين يديه إلى مختبره
حيث حفظ صوتها على تلك الأوراق وهي تكتب رسالتها الأخيرة،
صراخها عندما وضعت طفلها ونحيبها عندما تأبطت قدمه وقبالتها راء
منه أن يدعها تعمل كخادمة في بيته، أصابعها وهي تداعب وجه طفلها،
وأشياء أخرى أحسها تجاهها لم يكتبها والده في دفتره ولكنه قرأها بشي
ما في داخله، أظنقت هذه الضغوط على نفسه، أعاد ترتيب الأوراق كما
كانت، أعاد بعد ذلك الملف إلى الخزانة، توجه إلى الحديقة، جلس على
المقعد الخشبي، أرخى جسده عليه وأغمض عينيه.

- ما زالت تلك الصراعات تؤرقني، بين النسيان والمواجهة.. يج
أن أخبر مايا بكل هذه التفاصيل، هي الآن تعرف نصف حقيقة والدي
وأعتقد أن ما سستمعه لن يكون ببساطة ما عرفته، إنني بحاجة إلى دعه
ومساندتها، ربما أجد عندها قرأاً أخيراً وحازماً يخرجني من دائرة الفراغ
التي أنخبط بها وحيداً.

36

هيب نعمة من جديد عن الحضور وفرغ مكانه دون أن يترك فراغاً،
إذ استتمر حضر أم غاب، ففي هذه الغابة لا مكان للضعفاء،
كل من فيها أن يحمي نفسه ونسله بنفسه، وإلا فيكون مصيره
الضعف.

إذ أستاذة، وكذلك فعلت مايا، التي راحت تحته بشكل غير
إشر على المواجهة وتحدي الصعاب بأسلوبها الأنثوي الرقيق،
مماسها بالذنب بعدما حدث بات متعباً وخوفها عليه أرق مضجعا،
هي من شجعت على العودة إلى العمل وضمت حمايته، لقد أدركت
أهراً أن تلك الحماية غير ممكنة وأن هذه الأسوار القائمة بينه وأمثاله
بين المجتمع عامة، أسوار صلبة أساس حجارها عدم تقبل الآخرين
لإدماجهم بينهم.

إن غاب مازن سيأتي مكانه آخرون، بما أنه متفوق ومميز وضعيف
سجد دائماً من لا يردعه ضميره عن استغلاله والسيطرة عليه وإن لم
يمكن من حماية نفسه فمؤكد أنه سيسحقه بضعفه الذي يراه جلياً عندما
يمارن نفسه به، هذا كان رأي والد مايا الذي رد على طلبها بفصل مازن
من العمل بالرفض.

قالت بامتناع:

- لكنه حاول أذيتة كثيرًا ولقد تأكدنا من ذلك، يجب أن لا نتغامر
عن الموضوع.

- لن نحارب الكراهية بتفعيل دورها وتميئتها، بل سنحاربها بالهدوء
والمحبة.

- لكن يا أبي يجب أن يتعلم هو وأمثاله احترام ضعف الآخرين.

- إن خرج من هنا بسبب ما فعل، سيصبح أكثر حقدًا وعدائية، وهو
الممكن أن يدمر آخرين كنعمة وأمثاله، إن قبول الآخر واحترامه لا يهين
يا ماما، إنه إحساس يجب أن يُنتهى داخل المجتمع وأفراده بالآلاف الطراف
وهذا دورنا، ننتقيه من خلال تفعيل المشاركة والتسامح والمحبة،
خلال الموسيقى، والأدب، والشعر، والرسم، تلك الفنون التي هي روح
الحياة والتي تلهب عواطف البشر أكثر من العنف والشر المصداق.

لم يعجبها ما سمعت، إنها مجرد قيس لا قيمة لها في عصرنا هذا،
استطردت قائلة والغضب يفترسها:

- لكن إن أدرك أيضًا أنه قد نجا بفعلته هذه دون عقاب سيعيد الكرة،
وإن نجا نعمة هذه المرة ربما لن ينجو في المرة القادمة.

- سأندبّر الأمر معه، أعرف جيدًا كيف أتعامل مع أمثاله، هو موظف
عندي، وسأجعله يتلمس العقاب ويرجو الثواب إلى أن يعترف ويعرف أن
الله حق، وما من ظالم إلا وسيلى بمن يفوقه قوة، أما نعمة فمسؤوليتك
أنت وملاك وشافي وكل من يحبه، عليه أن يقوى بنفسه ويحميها، وعليكم

١٠٠٠هـ هذا، كما عليكم أيضًا أن تحترموا خصوصياته أحيانًا وأن تتقوا
 لا تنابعوه كالأطفال، هذه الحماية بقدر أهميتها من الممكن أن تؤذي
 مهمة أخرى وتجعله مخلوقًا جبانًا متخاذلًا، سيتضخم ويتنامى
 ١٠٠١هـ وتطمس ملامح قوته التي يحاول أن يبينها حصرًا بحجر، يومًا
 ١٠٠٢هـ، ربما أسلوب التوجيه والمراقبة من بعيد هو الأجدى في حالته،
 ١٠٠٣هـ وأنه قد أصبح فنانًا وقد حارب من أجل هذا، وأثبت أن حالته
 ١٠٠٤هـ للنظر، فكل يوم منذ دخوله إلى هنا حتى الآن الألاحظ تقدمه وتطور
 ١٠٠٥هـ في الكتابة وفي ترجمة مشاعره المهمة تلك إلى موسيقى رائعة،
 ١٠٠٦هـ يحتاجه هو بعض الدعم والإحساس بالأمان واحتضان العائلة
 ١٠٠٧هـ أكثر.

المشكلة يا أبي أنه وحيد في هذه الحياة ووحده هذه تزيد توحدته
 ١٠٠٨هـ، تلك الجدران مقفلة عليه طالما لم يغادر غرفته، وإن ترك هكذا
 ١٠٠٩هـ، سنيين طويلة دون تدمير.

- إذن عليه أن يُحاط ويحيط نفسه بالناس والبهجة حتى لو لم يُحبذ
 ١٠١٠هـ الأجواء، هذا سيخرجه شيئًا فشيئًا إلى الحياة رغم صعوبة الأمر.

- لقد قلت لك إنه وحيد ولا جذور له وهذا سبب آخر لتدهور حالته
 ١٠١١هـ وضوحه تحت وطأة تلك النكسات.

أو شككت أن تخبره بأنهم قد وجدوا عائلته وأنه لم يُعد وحيدًا، وبأن
 ١٠١٢هـ صديقتها هو أخوه ومن سيعتني به، إلا أنها فضلت الانتظار إلى أن
 ١٠١٣هـ يحدث معه أولًا بهذا الخصوص، لكن شيئًا آخر لآخ في فكرها، هناك
 ١٠١٤هـ مشروع رائع إن تحقق سيخرجه وأمثاله من بؤرة الوحدة، ولكيلا يتهمها

بالانفعال والطيش كما يفعل دائماً قررت الاستعلام عن تفاصيل فد
قبل أن تطلعه عليها.

- أنت محقّ، أفكر بأمر، لو تحقّق سأخلق من خلاله لنعمة
آخر، ولكن سأدرس الموضوع أولاً.

ابتسم وهو يراقب حماسها قائلاً:

- كم أنا فخور بك أيتها المشاغبة، كنتُ أعتقد أن دراسة علم الأ
ستدخلك في دوامة الأشياء وجذورها وتبعدك عن الإنسان ورو
إلا أن هذا قد زادك رقيًا وجمالًا، أنت كآلة موسيقى جميلة، ما إن بلد
إحساس ما حتى تتحوّل إلى روح، روح عطرة تنشر الأمل في فاه
والحياة في الأموات.

حضنته وقبّلته بحنو البُنوة قبل أن تُغادر، ثم لوّحت له بيدها وم
تقفل الباب خلفها قائلة:

- يجب أن أذهب قبل أن يتأبني الغرور وشعور العظمة وتب
الأفكار من رأسي.

ذهبت طفلته، تلك الأنثى الجميلة التي ترعرعت أمام ناظر
وعلى يديه، كزهرة جميلة. لم يخف عليها يومًا، فهو يدرك تمامًا
زرع وسقى وكيف اعتنى بروحها حتى أصبحت على ما هي
اليوم، ذهبت وبقي هو متأملًا مفكرًا بتلك الحياة وما يدور فيها، دفان
مرت شتت تركيزه، هز رأسه يمينًا ويسارًا معيدًا نفسه إلى أرض
الواقع قبل أن يتصل بالسكرتيرة طالبًا منها أن تُرسل مازن إليه فورًا

• فائق قليلة دخل إلى مكتب أستاذه، كان مرتبكًا وقد زرع الحذر
• وف بذورهما على ملامحه، توقَّع أن يكون نعمة قد أخبرهم بما
• فهو غيبي ومريض وما يفعله معه سرًّا من الممكن أن يفتضح
• لو تمكَّن من التوجُّح.

أحبرني يا مازن، كيف تسير أمور العمل معك؟

حيدة يا أستاذ، لقد أنهيتُ تدريباتي على المعزوفات التي وزَّعتها
• أصبحتُ جاهزًا للتدريب الجماعي مع الفرقة.

ممتاز، أنت تعلم أن الحفلة باتت قريبة، والموظفون جميعهم
• ملون بالتحضيرات، والموسيقيون لم ينتهوا بعد ممَّا طُلب منهم،
• هناك مهام جديدة سأוכלها إليك، أولاً ستأتي يومًا قبل بدء الدوام
• وستعمل في هذه الساعة على ترتيب المكتبة وترقيم الكتب
• مزوفات وإدراجها من جديد في الملفات الإلكترونية.

امتعض وجهه واتسعت عيناه، استمع إلى تنمة الحديث بعصية
• اصحة.

وستبقى بعد الدوام ساعة أخرى إضافية لتطَّبع على الحاسوب
• مس دفاتر النوتات الموسيقية التي كتبتُ سابقًا يدويًا.

قال متذمرًا معترضًا:

لكن يا أستاذ، لدي الكثير من الالتزامات التي أنجزها بعد الدوام،
• الإضافة إلى الدروس الخصوصية.

أجابه بحزم:

- نظم وقتك على هذا الدوام الجديد، فمشاكلك مع الوقت لا تعد مطلقًا.

- أنا أسكن خارج المدينة، وهذا يعني أنني سأستيقظ باكراً وأتم متأخراً.

أنهى الموضوع بقرار صارم لا عودة عنه:

- أستاذ مازن، أعتقد أنني مديرك وربُّ عملك ومَن يقرّر هنا، وما أريد، لا يهمني أين تسكن ومتى ستستيقظ ومتى ستصل، ما يعنيني! تنفّذ أوامري، هل هناك أي مشكلة في ذلك؟

ابتلع ما تجعّع في داخله من غيظٍ ومرار، كذلك المرار الذي أذاه لنعمة. بعد دقائق من الصمت أجاب بصوت منكسر:

- لا طبعا، شكراً لك في كلّ الأحوال.

- اذهب إلى عملك وكن جاهزاً، وإن احتجت إلى أي مساعدة أنا، الاستراحة سأطلبها منك، وسيبقى دوام عملك على هذه الحال إلى أن أجد موظفاً يقوم بهذه المهام.

فتح الباب وهمّ بالخروج تظلمه أشباح الخيبة ويؤازره الندم، وقبل أن يجتازهُ نادى عليه من جديد:

- وأرجو أن تدع نعمة وشأنه، ولا تنسَ تحذيري هذا ما حيت.

عادَ إلى عمله حاقداً مكسوراً وصورة نعمة لا تفارقه وهو يسد أذنه عن كلماته وصوته ويركض بعيداً في الشوارع المكتظة بالزحام.

37

« اعدا على أن يلتقيا في الحديقة العامة، فسبقتها إلى هناك وجلس
طير وصولها كما اعتاد أن يفعل دائما منذ أن كانا على مقاعد الدراسة
في الجامعة وأثناء عملهما في المختبر، لقد عشقَ تلك اللحظات عند
« لها إلى أي مكان يوجد فيه، ربما لم تكن الأجمل بين رفيقاتها، لكنه
رما هي دون الجميع، وإذ بأنامل ناعمة تحجب الرؤية عن عينيه..

قال ضاحكًا:

مايا، وهل تعتقدين إن أغمضتِ عيني سيخفي عطركِ وملمسكِ

«؟

ضحكت عاليتا..

«.. تبًا، نسيت أنني قد غسلتُ نفسي بالعطر قبل أن آتي.

- أنت لا تحتاجين إلى أي عطور، رحيقكِ هو أشهى العطور، أتعلمين

لك قد أنسيتني ألأمي وإرهاقي وأحزاني بلمستكِ وابتسامتك هذه؟

أجابته بخجل وحمرة الحياء تلون وجنتيها:

- ما أروغ كلماتك هذه ومشاعرك، لم أتوقع أن أسمع منك يومًا

ما أسمع.

- إنني متعب يا مايا وأنت الملاذ الوحيد الذي يشعرني بنفسي كذا، حي، أريد أن أستريح، أريد أن أطلق العنان لمشاعري، لقد كرهت السنين وأنا أراقبك فيها من بعيد، لقد كرهت الصمت.

- لن تصدق ربما، ولكني أحسك، حتى عندما تلتزم الصمت، وعندما يخذلك البوح.. وأعلم أنك تخفي عني أمورًا كثيرة وأنتظر أن تنقروا وتخبرني بما يؤرقك، ما بك يا شافي؟ ما هذا الحمل الذي يُتعبك وتُكاهلك، أعتقد أن نعمة وما يعانیه مجرد جزء صغير من وجع كبير، أم أن ما تخفيه أسمى من قدرتك على البوح والكتمان.

- آه من حزني وقلقي عليه، لو تدرين إحساسي وأنا أنشأ ملاك وهي تساعده على الاستحمام، وحينما غرق في حضنك عندما وجدتهُ هناك بين جذوع تلك الشجرة وحيدًا، إنه يعرف من أكون، يشعر بي كقطعةٍ من جسده كما أشعرُهُ وأنا. أسره الصمت، وبعد تردد أكمل بوجه بصعوبة:

- أنت محقة يا مايا فمأساتي لم تقف عند هذا الحد، وبإليتها وقف هنا، لأخذتُ نعمة ورحلتُ به بعيدًا، لكن هناك سرٌّ كبيرٌ يؤرقني، أخشى البوح به، أخشى أن أخسرك بسببه وإلى الأبد.

نظرتُ إليه بحيرةٍ واستغراب:

- قل لي يا شافي ماذا هناك؟ يجب أن تعلم بأن شيئًا لن يُغيّر مشاعري ولن يؤثر على ما بيننا ما دُممتُ لم تتسبب أنت بهذه الظروف التي وجع نفسك فيها.

أفسم إنني لم أقرّر مصيري إلى اليوم، ليس ما سأدرس، ولا أين
من ولا حتى من أختار من أصدقاء، فتحت عيني على ماضٍ لا أذكره
أبي قد استيقظت من غيبوبة أبعثتني عن كل ما ومن حولي، لأجد أباً
يبي ويحرسني كظلي، وهكذا مرّت الأعوام وكنت أراه الإله والأب
أم والعائلة والأستاذ، ما حدّث بعد هذا تعرفينه، واليوم ها أنا أقف
م سرّ آخر أريد أن أؤمنك عليه، ولا بدّ أن القدر الذي جعلك تحمّلين
في، سيجعل مستقبلي المجهول يُرسم على يديك.

فالت بحزن:

حزنك يقتلني يا شافي، أرجوك أن تعتبرني نفسك التي تكلمها،
متأكدًا أنني لن أبني أي ردود فعل ولن أطلق أحكاماً مسبقة ولا غير
هذه، سأسمعك بقلبي، اعتبرني دفترك أو قمرتك أو مراتك أو وسادتك،
موك دعني أقاسمك همومك، أخبرني ماذا هناك؟

ننهد بعمقٍ وراح يسرد لها قصة المختبر في بيتهم والخزانه، دفتر
الكرات وقصة مادلين، أمّا هي فكانت تستمع لما يقول بتجرّد تام
محاولةً كبت مشاعرها حتى بات وجهها الجميل وكأنه وجه دمية مفتوحة
المهين دون انفعالات، وصل لقصة اللوحة وذلك الملف، وكيف تراه
م حائراً بين البحث عنها وبين تجاهل الموضوع والاهتمام بنعمة
مغله محور حياته، تاركاً والده لجرائمه وغموضه وربما لأولاد آخرين
م. يلتقي بهم يوماً.

- حاولت أن أنسى مادلين وطفلهما، وما إن انطلقت لأعود إلى
أعضان أخشي حتى عاد القدر وفتح لي طريقاً إليها، في كلّ مرّة أحاول

فيها العبور إلى الأمام متناسياً الماضي بمئة ذريعة، أجد نفسي قد ،
إلى نقطة الصفر، واليوم فتح لي القدر درباً آخر، أعطاني اسمها و
أحتاج، ليلفي كل الأسباب، حتى ملف الدعوة ومحضر الشرطة و
يتقضي لأني بوعودي، ماذا سأفعل يا مايا؟ وأي طريق أختار؟ هل أزم
بما حصلتُ عليه أم أكمل؟ إن روعي قد انقسمت بينها وبينه.

استجمعت أنفاسها محاولة مساندته متجاهلة تلك الأصوات
الصارخة في أعماقها من هول ما سمعت.

- الإنسانية لا تنجزأ يا شافي، وكما حُرِّمت من أخيك طوال ،
السنين، تلك المرأة حُرِّمت من ثمرة رحمها، لم تكن شريرة، لقد نذرت
له كل شيء، لم تبعه طفلها، لكن هو من ظلمها وأبعدها عنه، من المبرر
أنها قد بكت كثيراً وما زالت تبكي. إن حبك لأخيك الذي فقدته لساءد
لا يتجزأ عن حبتها لابنها الذي سُرقَ منها كل هذه السنين، إن أردت
تُصلِح أخطاء والدك مع نعمة يجب أيضاً أن تُنصِف هذه الإنسانية، إن
أيضاً ضحيةً مثلكما.

- أعرف يا مايا، وأشعر منذ أن قرأت قصتها بأنها جزءٌ مني، لئلا
وحيد، ونعمة الآن مسؤولٌ مني، لا أعرف ماذا سأفعل!

امتعضت عندما لاحظت تهربه الذي أخبرها بنفسه عنه، لم يرد
ما سمعت، لكنها حزمت الأمر بكلام قليل كان ينتظر أن يسمعه .
بالذات.

اسك تُشير جنوني يا شافي، أرجوك لا تسألني من جديد، اذهب عنها، أحضرها معك، يجب أن تواجه والدك معها ومع نعمة، أن يعترف أمامكم بمصير الطفل، يجب أن تحاكمه بنفسها، وإن يومها ضعيفة فالآن أنت هنا وأنا إلى جانبك، وهناك دلائل وقانون طم أن يأخذ لكم حقكم منه.

أنت محقة.. لكن نعمة، ماذا سأفعل به خلال سفري؟ إنه بحاجة إلى الم تري حالته وكيف وجدناه؟

لا تقلق عليه يا شافي، إنها ليست المرة الأولى التي يواجه فيها ابنه بنفسه، لقد عاش طفولته وحياته وحيدًا غريبًا، ما رأيته في تلك الأيام قد لازمه لأيام طويلة قبل أن يصنع شخصيته وبلورها ويصقلها، المال قابلاً للتطور، ألا ترى كيف عادَ إلى المعهد وحده بعد تلك السنة؟ أنا واثقة من أنه سيعود وسيغلب على وحدته وكل ما يعوقه، الم رأي والدي أيضًا.

سمعت قليلاً وراح يفكر..

أنت محقة، ربما أنا من يخلق الأعذار للتهرب من ألم كبير أستشعره، إنه، إني خائف لا أريد فتح المزيد من الصناديق المقفلة، لن أحتمل.. بات أمل أخرى.

لست مخيّرًا يا شافي، أنت مُجبر، إما أن تتصل بالشرطة وتخبرهم.. أفعله والدك، وإما أن تحاول الوصول إلى الحقيقة بنفسك وتجبره على الاعتراف بما فعل وتعيد الحقوق التي اغتصبها إلى أصحابها،

أنت من سيقرر، هل ستسامحه أم ستحاكمه، أنت ونعمة ومادلين
الطفل.

استقرت نظراته واختفى منها ذلك الحزن لتحلّ مكانه حالة
اسمها الإصرار، وهذا ما كان ليحدث لولا دعمها له، ولن يكو
تلك العاطفة التي تجمعهما.

- سأحاول أن أوّمن نعمة قبل سفري، لا أعرف، ربّما أجد له من
معه ويعتني به في أوقات غياب ملاك.

- لا تقلق بخصوصه، أنا سأهتم به شخصيًا، لقد وجدت له
رائعًا يخرجهُ مما هو فيه.

سألها بتعجب:

- والموسيقى؟! وعملهُ في المعهد مع الفرقة؟

- لا تخف، كلّ شيء سيبقى على ما هو عليه، إنه عالم
اجتماعي إضافي، سأجعلهُ نجمًا اجتماعيًا لامعًا، سيُقيه هذا العالم
تواصل دائم مع من حوله وخاصة من يحملون سِمَة التوحّد،
أنسأه هذا الخبر المفاجئ همومه ومشاكلهُ فسألها مستفسرًا:

- ما هذا المشروع؟ أخبريني... لقد أثرتِ فضولي.

- سأقيم لقاءات لمرضى التوحّد وعائلاتهم ونعمة سيعد
لهم الموسيقى، سيُخبرهم عن تجربته، سأجعلهم يتواصلون مع
سأبحث عن موهوبين آخرين مثله ويعانون نفس ظروفه، وستة

١١٠ نواصل ونستقبل الشكاوى ونحاول أن نساعدكم ربما نجد
١١١ هم هؤلاء أو فرضاً للتعليم أو تأمين مدارس من خلال جمع التبرعات
١١٢ التي المحتاجة التي لا تستطيع أن تعيل أبناءها المرضى.
١١٣ بحماس وعيناها تشعان عطفًا ومحبة:

سنقضي على المرض يا شافي، وذوي الحالات المتقدمة سينون
١١٤ هم أيضًا كلِّ حسب إمكانياته، ستكون هناك حملات توعية لتزويد
١١٥ مع بالمعلومات حول هؤلاء وحول حالتهم وتمييزهم كي لا نجد
١١٦ مازن آخر يحاولون إلحاق الأذى بهم، ونُقلص مفهوم من يعتبرون
١١٧ هم هذا عازًا معيًّا وتخلّفًا.

هل تعتقد أن نعمة سيوافق؟

١١٨ إن كنتَ تعتقد أنه سيرفض فهذا يعني أنك لم تُقدّر بعد ما أنجزه،
١١٩ طفلٍ غير قادرٍ على النطق إلى ما هو عليه الآن، وأيضًا يجب أن تتق
١٢٠ إن هو رفض فسأقنعه لا محالة.

نظر إليها وسبقه لسانه الذي أخرج مكنون مشاعره لأول مرّة
١٢١ صوح:

١٢٢ مايا أنا أحبُّكِ كثيرًا.

فوجئ هو نفسه بما قال، أعادَ ظهره إلى الخلف مستندًا إياه على
١٢٣ مشب المقعد ثم التقط أنفاسه ولملم مشاعره المتبعثرة بعد هذا البوح
١٢٤ الذي أطلق نفسه دون قيود، أما هي.. فاحمرت وجنتاها وآثرت الصمت
١٢٥ بعد أن تبخر الكلام بينهما.

- مايا.. أنا لم..

- وأنا أيضًا يا شافي.

- ما.. هل..؟

ارتسمت على مُحيّاه فرحة لم يعرفها يومًا، ثم اقترب منها،
أمسك يديها..

- هل قُلْتَ إِنَّكَ..؟

أحنت رأسها بخجل وبعينين باسنتين وشفقتين ترتجفان تمتمت،
الكلمة التي يتوق إلى سماعها:

-أجل..

- كم كنتُ أتمنى أن نعلن مشاعرنا هذه في ظروف مختلفة، لئلا
يبدو أنه قد كُتِبَ عليك أن تشاركيني همومي وحزني قبل فرحتي،
تمسحي دموعي قبل أن أرسم ابتسامتك، كم أضعفُ من سنين بسـ
خجلي، وخوفي من أن تكون مشاعركِ ملكًا لآخر، لم أكن لأفهم
نفسي عليكِ، وها قد أتى هذا اليوم لأرى حبًا لا يقل عن حبي، ربما،
كان لشيء أن يأتي قبل أوانه.

- انتظرتكِ طويلًا، سنوات طويلة وأنت تتلاعب بأعصابي، كدت أن
أياس.

- لم أقصد هذا أقسم، لكن مؤكّد أن إحساسكِ بحبي جعلكِ تحتما،
كلّ هذا.

.....
، بما، لكن عليك أن تعدني أن لا تسكُت يوماً عن الظلم وإلا
أدرك شريكاً فيه.

عدني أنت أن تعتني بنفسك وبنعمة، سأتركه أمانة بين يديك.
لا تفلق علينا فهو قطعة منك وحيي له جزء من حيي لك، ألم يكن
أدرك كسر الجليد بيننا؟

أنهى أمسيته وهو يعيد تفاصيل ذلك اللقاء، نظراتها، قُبَلتها الأ...
 التي طبعتها على شفّته قبل ذهابها، لمسة يدها كل تلك اللحظا...
 الجميلة التي جمعتهما، وكأن هناك حالة من السكينة قد حلّت عدا...
 إعلان هذا الحب قد أتى في التوقيت المناسب، لقد سرّق منه بعضاً...
 توتره وزاد من عزمه على إرضائها أولاً وإرضاء ضميره الذي كان يفا...
 مضجعه.

- سوف لن أخسرهما مهما كانت النتيجة، ستبقى حبيتي حتى لو ذاب...
 أبي قاتلاً وحتى لو أصبَحَ قاتلي.

أفرجَ الصباح عن فجر جديد ينبىء بحلول مرحلة أخرى ر...
 ستغير تفاصيل حياته التي اعتادها لسنوات، شعرَ بنفسه وكأنه...
 اجتاز مراهقته وشبابه في قفزة واحدة، مرحلة لم يعيشها رغم عب...
 قربها ورغم اجتيازها منذ زمن، لقد جعلته هذه الأزمة رجلاً مسزوا...
 بكل ما للكلمة من معنى، بات أكثر نضجاً وتحملاً لمصاع...
 الحياة، عدا عن تلك الحنكة التي اكتسبها في التعامل مع الظروف...
 انضم إلى والده على مائدة الإفطار، جلسَ على مقعده المعتاد بعد...
 قَبَله قِبلة الصباح.

نبدو مشرقاً اليوم يا شافي..

أجل يا والدي، أشعر بطاقة غريبة تسير في عروقي، منذ زمن وأنا
أبني من الخمول وفقدان الرغبة بالتواصل مع المجتمع وتراني أفضل
أهلاً وأشغلاً نفسي في المختبر حتى عندما أنجز ما أستطيع أن أنهيه
أهلاً، وكأني خفاش هريم يحتضن الظلام هرباً من نور الشمس، أتعرف
أبي. بدأت أشعر وكأني أعاني من مرض التوحد.

سقطت الكلمة على مسمع البروفيسور كالصاعقة، هب في وجهه
:٤٠١٥

ما هذا؟ أنت سليم، وأنا واثق من هذا! لا تدع هذه الأوهام تسيطر
على تفكيرك.

- واثق من ماذا؟ يا أبي أنا لا أملك على ما أنا فيه بل على العكس،
المد أعطيتني أفضل ما يمكن، لكن أعتقد أن هذا نتيجة طبيعية لضغوط
المعمل، حتى ولو كنت متوحدًا فهذا لا يُدينك، إنه خلل طبيعي يصيب
العرض حتى العلم لم يجد له مبررًا إلى الآن.

حاول إخفاء قلقه عليه، تجاهل ما سمع، ثم أخذ الحديث باتجاه آخر
أكثر هدوءًا:

- ما رأيك في أن نسافر سوياً، جولة ممتعة نجوب فيها أنحاء العالم.
- لا يا أبي، إني مشغول جداً ولن أضيع وقتاً طويلاً باللهو، لكن
أصدقائي سيذهبون برحلة جماعية قصيرة مع مايا وآخرين.. وطلبوا مني

أن أرافقهم، لستُ متأكدًا بعد، فأنا لا أحيذ الاختلاط وأكره العمة المشعبة.

نظرَ إليه بإمعان محاولاً تفرّس ملامح وجهه..

- فرصة جيّدة، أنت بحاجة إلى مخالطة الشباب المفعم بالحياة، لا تشيخ مثلي قبل الأوان.

استغربَ رده، وكيف عبرت الفكرة دون جدال ونقاش، هل لا تلك التغيرات التي طرأت عليه؟ إنه فعلاً أب غريب الأطوار، أجابه...
كي لا يثير شكوكه:

- سوف أدرس الموضوع، لستُ واثقًا بعد مما أريد، بكلّ الأحوال، سوف أعلمك بقراري حالما أحزم أمري.

نظرَ إلى عينيه مليًا وأسرَّ له بكلماتٍ قليلة ممزوجة بعاطفة الأبوة المر
لم يشعر بها سابقًا على هذا النحو:

- شافي يا صغيري المدلل، أنت لم تعد صغيرًا، لكنك ستبقى صبيًا بالنسبة لي إلى الأبد، انتبه على نفسك من أجلك وأجلي، لم يتبقَّ لي من الدنيا سواك، لا أريد أن أراك مهزومًا وحزينًا، لا أريد أن أخسرك، لدي الكثير لتنجزه معًا.

تصارعَ مع نفسه بين مصدّق وناق، بين حبّ حملته له وحقد نوا
والتهمّ فؤاده..

لا تغلق يا والدي، لقد تعلّمتُ منك كيف أهرم الخوف من المجهول
هنا المستحيل وإحالة إلى واقع.

اسم الوالدُ برضى وأكمل طعامه، بعد أن ودَّعه وتوجَّه إلى المدينة
هي بنصفه الآخر حاملاً إليه تلك اللوحة، صورة أمه التي وعده بها.

أمامه ردة فعله عندما أبعد الأوراق الملونة عنها وحضنها كطفل صغير
لم يرحق من وهبته الحياة..

اه يا أُمِّي كم أشتاقك.

انابته غيرَةٌ غير معهودة، وغزتهُ نيران الحيرة، كيف تذكّر نعمة أمه
، أن يحيا معها ومع ملامحها وهو يعاني ما يُعانيه؟ وكيف لهُ هو أن
أما وهو الذي عاش في أحضانها؟ هل كان هو بعيداً بينما اهتمت هي
، إلى حين موتها؟ أسئلةٌ كثيرة ساورته وراحت تطرح نفسها وأولها
وال نعمة الذي لم يجد جواباً:

لِمَ كانت صورة أمي في بيتك يا شافي؟

ابنسم مُبعداً ظنونه وقلقه بلطف:

- يبدو أن أمي وأمك متشابهتان أيضاً كما أنا وأنت، أنت لا تعرف أين
أنا، وأنا أُمِّي قد ماتت.

أجابهُ والأسفُ بادٍ على وجهه:

- لا تحزن يا شافي، سأبحث قريباً عن أمي، وإن وجدتُها يوماً
سنتفاسم حضنها معاً، كما ملاك الآن، إنها أمتنا جميعاً.

أما ملاك التي انشغلت منذ وصوله بتحضير الشاي فراحت تراه
المشهد بحيرة وأسئلة كثيرة تزرق أفكارها، نظرت إليها شافي وهو يسر
ثم أوما لها برأسه مطمئناً قبل أن يتابع حديثه:

- اسمع يا نعمة.. سأتقيّب عنك بضعة أسابيع يا أخي وصدم
العزيز، سوف أسافر إلى إحدى الدول المجاورة لأنهي بعض الأعمال
رغم صمته إلا أن ذلك الحزن الذي انتابه فضح خوفه من رحيله
- لن أتأخر، أعدك بذلك، لكن عليك أن تعدني أنت أيضاً بأن
إلى عملك، وألا تسمح لأحد أن يرسم خطوط حياتك بدلاً عا
أرجوك يا نعمة، ففي هذه الحياة ليس هناك مكان للضعفاء، لقد وعدنا
مايا بأن تكون دائماً إلى جانبك.

ضبط انفعالاته ومخاوفه ثم أجابه بعد تردد:

- سأحاول، أعدك، أريد فقط بعض الوقت لأستجمع نفسي وأ
من جديد.

- بعد عودتي سنعيش سوياً، سأنتقل إلى هنا، أو ربّما نأخذ منزلاً
لنا نحن الاثنين.

أشعل هذا الخبر نيران التحدي في داخله وأطلق ابتسامته من جد
- حقاً؟ إنه أجمل خبر سمعته منذ أن وجدت على هذه الأرض.

- سأتصل بك دائماً، ويجب أن تزف لي في كلّ مرة خبراً جدياً
يُفرِحني.

أعدك.

أه بصحبة صورة أمه وخرج مع ملاك، سارت معه مودعة إلى باب
الرئيسي، سألته مستفسرة إن كان ما وصلها صحيح، فأوما برأسه

١١١

صحيح يا أمي، إن إحساس الأمهات لا يخيب.

وكيف حصل هذا؟ كيف عرفت؟

أميرها بما حدث فيما يخص رقم الحساب وصاحبه، وكيف
فئة نيران المعرفة وأدماء ألم الجهل، كيف عليه أن يجالس
المجرم الذي قسم قلبه شطرين، والذي حرمة نعمته الأخوة
أسكنه الوحدة لسنين، أما هي فمسحت دموعها عشرات المرات
محاولة استجماع آلامه في صدرها وزرع ابتسامات الأمل في عينيه.
ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأسافر الآن وأترك أخي أمانة بين يديك إلى أن أعود، وبعدها
وف نجلس سوياً ونجد حلاً يخرجنا جميعاً من هذه الدوامة.

غمرة بحنان قائلة:

- يا حبيبي.. ما زلت صغيراً على هذه المعاناة.

- وماذا سأفعل؟ إنه أخي، جزء من جسدي وروحي، كنت أتمنى
وجوده ووجدته، ونحن الاثنان بحاجة إلى بعضنا بعضاً، أنا الآن مستعد
للموت من أجله.

- حماك الله وحماه، لا تقلق عليه، إنه في أيدي أمينة، ولا تنس
تتصل بي دائماً وتطمئنتني عنك.

- مؤكّد، فأنا أتق في أن هذه السفارة ستكون نقطة النهاية لهذه الأثر
التي نعيشها.

- لم أفهمك، هل هناك مشاكل أخرى؟

- سأخبرك عند عودتي، صلي من أجلي أرجوك.

- فلترافقك بركة الله يا حبيبي الغالي .

خرج من هناك مكسور القلب، لم تفارقه ملامح نعمة وما حصل
وكيف ودّعه وعاد ليغمر الصورة من جديد، مشاعر مرة حاول تخطها
فربما كان الآتي أشد مرارًا.

إنها مغامرته الأولى، لا يعرف ما ينتظره في ذلك البلد الغريب،
وأي مفاجآت ستشتمه، سيخوض تجربته هذه وحيدًا فهل ستلتهمه
البلاد الغريبة كما التهمت والده من قبله، ومادلين أيضًا والآلاف، لا
الملايين من شتات الأرض الغرباء.

١٠. اس في قاعة الانتظار وعيناه تراقبان شاشة العرض الإلكترونية
 الحين والآخر مترقبًا الإعلان عن فتح باب الطائرة أمام المسافرين،
 م حفيته الصغيرة أمامه وحمل في يده البطاقة وجواز السفر، ثم سَغَل
 ١١. عن واقعه بمراقبة الطائرات التي لم تتوقف عن الإقلاع والهبوط
 ١٢. في جوفها آلاف المسافرين من مكان لآخر، ولكل وجعه وفرحه
 ١٣. وهدفه وعمله وهمومه وآماله، ومن ترك خلفه ومن سيستقبله،
 ١٤. ال غير مصدق أنه بينهم الآن، وقد اجتاز أصعب العقبات، عقبه إقناع
 ١٥. رغم خوفه الدائم عليه وعلى راحته، لكن بعد ما كُشِفَ أمامه من
 ١٦. لم يعد واثقًا ما إن كان خوفه هذا نابغًا من محبته وحرصه، أم هو
 ١٧. ف على اسمه وأبحاثه وذلك الأمل الذي يعقده على إنجاز مشروعه
 ١٨. «جزء إكسير الحياة»، ذلك الهدف الذي شغله وداعب خياله طوال
 ١٩. عمره منذ أن قرّر دراسة هذا الاختصاص حتى التحاقه بالبروفيسور
 ٢٠. بوت، إلى حين منعه من إكمال أبحاثه، إلى تجهيز المختبر وصنع
 ٢١. من يملك وتحويله من طفل إنسان إلى عالم ليكمل ما بدأه.
 ٢٢. لمرآة، لو تُرِكَت له حرية الاختيار فهل كان سيختار مجال دراسته

هذا؟ فبعد لقائه بنعمة وسماعه لتلك الموسيقى التي تشببه هو به بعد واثقاً إن كان هو فعلاً حقيقة أم صنعة يدي ذلك الأب الطاءء، الأنغام جعلته يدرك أنه لم يختَر يوماً ما أرادُه وبِنفسه، بل كان تابَعاً، مالكة، حتى في تلك القرارات الشخصية البسيطة التي تعنيه، أما سفره هذا فلم يكن ليمر مرور الكرام، وبالرغم من تقبله الممتعض إلا أنه وعندما تحوَّلت إلى واقع، تغيرت كل المعطيات، فوجد نفسه فرصة تحرر واستقلالية مرفوضة، كان عليه أن يناضل من أجلها، يُعَلِي عليه أحد آخر إرادته.

- كيف ستسافر وحيداً؟

- يا أبي، لقد أعلمتك بالأمر، ولم تعقب على الموضوع، الآن تسألني وكأنك لم تسمع هذا سابقاً.

- لقد قلت لي إنك ستسافر مع أصدقائك.

- سوف يوافقوني إلى هناك، وسنلتحق جميعنا بالمكتب السابق الذي سيصطحبنا من المطار إلى الفندق، حتى زيارتنا للأماكن السياحية منظمة من قبله.

حاول كبت غضبه وإيجاد عذر آخر لثورته:

- لكن أسبوعان سياحة هذا كثير! ومشروعك؟ أنت بكل الأ...

قد تأخرت بإنجازه.

أجابهُ بنبرة صارمة بعد أن نفذ صبره:

١١٠، فإني لن يساعدي، عقلي عاجز عن التفكير، أنا لست آلة،
١١١، هذا، أريد أن أرتاح، أن أستجمع قواي، منذ تخرجي وأنا سجين
١١٢، إن العمل تحت هذه الظروف الضاغطة يشلني..

١١٣، بينهما الصمت، لقد أفتنعه لكنّه لم يكسب رضاه.

١١٤، سنًا، أقدر ظروفك النفسية غير المبرّرة، فأنت تعيش في رفاهية
١١٥، حلم بها الآخرون..

١١٦، المسألة ليست رفاهية أو عدمها، إنني متعب، كيف لا تشتر
١١٧، أمي؟ لم أعد طفلًا ألم تلاحظ هذا؟

١١٨، عر بشيء من تأنيب الضمير، أفرج عن ابتسامة صفراء، أرضخته
١١٩، الواقع.

١٢٠، إلى أين وجهتك؟ أرني بطاقة السفر..

١٢١، لم يفتنه أن يضلّ مسار الرحلة كي لا يُثير شكوكه، فبعد وصوله
١٢٢، غفل بطائرة أخرى إلى هدفه، لقد كان حذرًا للغاية وخائفًا أيضًا،
١٢٣، فإت والده ومشاعره تجاهه في المدة الأخيرة أثارت ريبته، عليه أن
١٢٤، هو مُتبقّظًا ليضمن سرية تحركاته، مع والد كهذا لن يكون هناك مكان
١٢٥، لرحمة والتسامح، حتى لو تعلق الأمر بأقرب الناس إليه.

١٢٦، علا صوت المُضيف في المذياع، طالبة من المسافرين التوجه إلى
١٢٧، الطائرة، دخل مع الداخلين، أخذ مكانه، ثم شغل نفسه بمراقبة الأرض
١٢٨، تلك النافذة الصغيرة، مرّ الوقت سريعًا دون أن يُلاحظ مروره، كان
١٢٩، مشغول الفكر بمن ترك خلفه، وأيضًا بمن يسافر من أجلها.

- ستكون مفاجأة رائعة لو أن والدي قد أعاد الطفل لاحقًا إليّ.
فبعد الصفحة الأخيرة باتت كل الاحتمالات واردة.

هذا ما توقعته مايا عند وداعه في المطار، لقد أثلجت روحها له.
قلبه قليلًا ولونت تلك الصورة القاتمة بشيء من الإيجابية رغم استه
الأمر، فهي لم تقرأ ما قرأ.

- مسكينة، لن يحيط تفكيرها الراقي قذارة يده، ولولا مساندة الله
لما تمكنت من رؤيتها قبل سفري... فلقد أرخى قراره بعدم مرافقتي إلي
المطار عن كاهلي الكثير من التوتر وسمح لي بتوديعهم، أمر جاد
لا يحب المرء حفلات الوداع..

أعاد مرورها البسمة إلى وجهه القلق.

- آه مايا.. وكيف لي أن أسافر دون أن يرافقتي صوتك ووجها
الجميل، لقد حولني هذا اللقاء القصير إلى محارب لا يخشى الهزيمة
- ستنتجح، أنا واثقة من ذلك، أرجوك أخبرني بكل التفاصيل
ولا تقلقني عليك، ولا تقلق على نعمة فلدينا الكثير لننجزه خلا
غيابك.

- لا تُغضب مايا وكُن مطيعًا.

- سأفعل، من أجلها وليس فقط من أجلك.

هز رأسه مبعداً صورتيهما عن مخيلته، فالرحلة قد بدأت وعليه أن
يكون متيقظًا. من موقف المطار استقل إحدى سيارات الأجرة متجهًا

المدق، كانت الشمس قد أوشكت على المغيب، بين وهجها المرهق
• ونحين الرحيل وبين حنو الليل الذي أرخى بعضًا من هدوئه على
• الـ، جالت عيناه تراقبان الشوارع والساحات وكل تفاصيل هذا البلد
• ، بين الأماكن والوجوه التي تسكنها المشاعر والألوان التمس
• المكان وغربة مشاعره أيضًا.

با ترى أين أنت يا مادلين؟ أين هو منزلك؟ أي شوارع تعبرين؟
• ، وأين سأجدك؟ من الجيد أن النهار قد شارف على نهايته، فأنا منكم
• ، أفوى على التفكير.

• ، أول عشاءه وأخذ حمامه، جلس في سرير ثم أخرج الخرائط من
• ، باحثًا عن قرية مادلين « برج الحمام»، هذا ما أفاده به الحاسوب
• ، ما تقصى عن جذور عائلتها. برج الحمام قرية جبلية نائية تبعد مسار
• ، عن المدينة، لا يوجد هناك فنادق، وأقرب مركز سكني وتجاري
• ، الممكن أن ينطلق منه، يبعد ما يقارب الساعة عن هدفه المحدد، إذن
• ، حاجة إلى سائق وسيارة، هذا سيُسَهِّل عليه عملية البحث لا سيَّما
• ، أنه غريب عن نفسه وعن المكان، فتلك العزلة التي أحاطه بها والده
• ، نبت عليه الأمور كثيرًا، حتى في مدينته التي اعتاد عليها كان التنقل
• ، شوارعها يسبب له الارتباك ولولا مساعدة الدليل الإلكتروني لما
• ، استطاع أن يجد بعض العناوين البعيدة عن مساره اليومي، فوجود ذلك
• ، السائق الخصوصي الذي كان ينتقل به أينما شاء دون أن يشغل فكره
• ، أي تفاصيل، خفف شغفه بالاستقلالية، حرصًا على الوقت والمجهود.
• ، ما أدركه لاحقًا أن هذا العرض الذي قدَّمه له لم يكن عن طيب خاطر،

بل كان وراءه هدف آخر ألا وهو إبقاؤه تحت المراقبة، لهذا... و١٥٠
 فُتِحَتْ أمامه أبواب تلك الأسرار بات يفضّل الانتقال بسيارته الخام ،
 يُعيد نعمة ومايا وقصتهِ معهما عن مجاهل ودهاليز أفكاره ومخططات
 وبعدَ أن انتهى من رسم خارطة طريق الغد استسلمَ للنوم متحدثاً ١١٤
 راخيًا حمله وما يعتريه على مشيئة القدر وما يخبئ له خلف تلك الحظرة .
 والدروب.

40

١٥ هي مايا تدخل العمل الاجتماعي لأول مرة، باب لم تُفكر أو تتخيل
١٦. أنها ستعبره لتهتم بمن خلفه، لقد أضاف نعمة إلى حياتها تلك الروح
١٧. استفتقدها والتي لم تستطع يوماً أن تُعبر عنها بهذه البساطة، إنها
١٨. من هذه الدائرة، دائرة العمل الإنساني، ليست بين الجرائم والخلايا
١٩. عالم المجهري والتحليل، ولكن لماذا درست ما درستُ واجتهدت
٢٠. هذه السنين؟

٢١. أسئلة كثيرة كانت تطرحها على نفسها مراراً، أجل لقد كان ذلك خيار
٢٢. هل، أين ستعمل؟ كم ستجني؟ هل الفرص متاحة؟ وماذا يحتاج سوق
٢٣. العمل الصاخب لتصبح أفراداً فيه؟ لكن كل هذه المقاييس لم تنطبق على
٢٤. لك القلب النابض بين الضلوع وتلك الروح وما تريد، إيمانها بقدرتها
٢٥. من العطاء فاق كل المقاييس المنطقية للعقل، أما الروح والقلب فقد
٢٦. أعدها إلى حيث هي اليوم مع نعمة وغيره ممن يبحثون عن الاحتضان،
٢٧. إمكانياتها تخطت الوقوف خلف مجهر لتحلل أنواع الحياة؛ لأنها تتوق
٢٨. من اختبار الحياة ودخولها وتحليلها على أرض الواقع دون حواجز، لم
٢٩. أحدها ميولها إلى كتابة الشعر أو القصص والروايات، بل قادتها إلى
٣٠. ساحة العمل حيث لا حسابات تعلقو على حساب الإنسان. بعد ساعات

طويلة تنقلت فيها بين مكتبٍ وآخر خرجت فرحة متصرة، لقد - هـ -
 على إذن بتأسيس جمعية باسمها ونعمة وبمساعدة شافي وملاك، هـ
 الجمعية ليست كسواها، هدفها الأول هو تقديم المحبة والدء، هـ
 المعنوي والمادي وتوفير الفرص لكلّ متوحد ولَمَن يعيله أيضًا .
 حملت ملفها وأوراقها وذهبت مسرعة إلى نعمة الذي كان - هـ -
 في غرفته وقد أقفل الستائر وحضن غطاءه الصوفي رغم حرارة العله
 وراح يستمع إلى سيمفونيته المحببة «ضوء القمر»، نهضَ وفتح لها هـ هـ
 ثم عاد إلى مكانه، أغلقت الباب ودخلت خلفه، سألته وهي تتسم بلطافه
 المعهود:

- كيفَ أنت يا نعمة؟ هل ستبقى طويلًا في قوقعتك هذه؟ أحضد
 معي المفجأة التي أخبرتك عنها..

أجابها دون أن يُكلّف نفسه عناء الالتفات:

- أسمعك.. أخبريني.

- لقد حصلت على موافقة لتأسيس جمعية تُعنى بالمتوحد، هـ
 وسأعمل فيها أنا وأنت، وشافي وملاك ومجموعة أخرى من الأصدء، هـ
 سأعزفك عليهم لاحقًا، سُمساعدونا جميعهم في تنظيم العمل، هـ هـ
 المهام الرئيسية ستقع على عاتقك أنت أولًا، وعليّ من بعدك، ما رايبك؟ هـ
 وكان الخبر لم يُعبّر إلى ذهنه، ربّما حزنه على سفر شافي قد اثر هـ هـ
 سلبيًا.

- ما بك يا نعمة؟ ألم تعدنا بأن تتخطى أزمانك تلك؟

الآن ترين حالي؟ لقد فشلْتُ وللمرة الألف، حاولْتُ أن أتجاوزَ
«هـ» ولم أنجح، صوتُ مازن وهو يُخبرُني بحقيقة نفسي ما زال
يكن يقطعُ أجزاءي ولا يفارقني، وشافي بعيد الآن لا أعرف متى
«و»، تعلُّقي به يزدادُ يوماً بعد يوم وأخشى فقدانه.

لعت رأسه ونظرت ملياً إلى عينيهِ الهاربتين من مواجهة نظراتها..

لا يجب أن تَفِّع عند ما حصل، شافي سيعود قريباً، أما قضية مازن
«كـ» تكفَّل والدي بحلِّها.

أبعد وجهه وأجابها بصوت متقطع تخنقه مشاعره:

أعلم، ولم أقف يوماً عند حدود الألم، لكنني الآن ضعيف وما زلت
مانعاً من مواجهة العالم خلف هذه الجدران، لا تعلمين كم أحاول وكم
أمت نفسي على النهوض، ولكن أشعر بها كنبته ضعيفة قابلة للموت من
أسطع عوامل الطبيعة، حتى من نسيمات الهواء، لم أستطع بعد أن أقوى
على ضعفي وخوفي هذا، يجب أن تختبري مشاعري يا مايا لتشعري بما
أمانِي وما الذي أعنيه.

- أعلم يا نعمة، فمنذُ لقائنا الأوَّل إلى الآن وأنتِ ترتقي بذاتك
«كـ» كأنك شخص آخر يحفر صورته بأظافره على صخور الجبال الصلبة
العالية العارية.

- لهذا أريد أن أبتعد، وأنتِ تأخذين يدي دوماً لتدخليني من جديد
في دائرة الصراع، أرجوك أن تفهميني، أنا لستُ مثلكم، لستُ سويّاً
وكاملاً كالآخرين، بإمكانني أن أطوّر نفسي، لكنني بحاجة إلى ضعف

الوقت الذي تحتاجونه أنتم، إنني بحاجة إلى الكثير من الحب والاهتمام والقبول أكثر من حاجتي للطعام.

صوتُ الموسيقى، الضوء الخافت، وجسده الملتف بغطائه العدمي، والملتحف بظلمات نفسه، محاولاً عبورها وسرايبيها وأغوارها، قاله، جعلتها تعتصر الماء، كاذت تبكي، لقد باخ لها بأسلوبه المميز، يصعب علينا فهمه في زحمة صراعنا الدنيوي، من قال إنه مختلف؟ ما نعجز عن فهمه نتهمه بالاختلاف والتخلف، ربّما كان فعلاً ما، ولكن كنموذج أفضل، نموذج معدّل عن باقي البشر لا تغريه المناظر ولا يشغله ويشغله طمع ولا شهرة ولا نقود، يحبّ بصدق ولا يفارق مشاعر الكره، الغيرة، الحسد والرياء، يحمل سمات الطفولة في ما، إلى أن يشيخ، قلبه المجروح من مآسي العالم التي يفهمها ربّما، لا يستطيع التعبير عن فهمه لها لأنها دخيلة، تقع في العالم البشري والروح الإنسانية ولا تنتمي إلى ما يجب أن يكون عليه سكّان الأرض، خليفة الله عليها.

أخذت منه الغطاء، أمسكت يده بلطفٍ وحاولت من جديد أن تنظر إلى عينيه اللتين تهربان من الجميع إلى البعيد...

- انظر يا نعمة، أنا هنا ومعك، لقد وعدنا شافي بهذه المفاجأة، أنا، أقل لك لنبدأ اليوم بالتحديد، بل طلبت منك أن تساعدني بوضع خطة، وبرنامج نتحرّك على أساسه لكونك صاحب الحالة وأكثر من يستطيع أن يساعدني لأنك تعرف ما يحتاجه هؤلاء، ماذا ينتظرون منا وكيف بإمكاننا أن نساعدهم، أرجوك... يجب أن تساعدني.

• ثم الصمتُ بينهما، وبعدَ تفكيرٍ طويلٍ وعميقٍ سمعتُ ما تتوق

حسناً يا مايا، سنضع الأفكار معاً، لكن أحتاج إلى بعض الوقت،
• إن أنني سيمفونيتي أولاً، وسوف أدعو إلى الحفل كل من هم
• إلى عملنا هذا.

• فرجت أساريرها وسكنتها الفرحة، لقد وافق، وراحت تتمتم مهللة:
• أخيراً وافق على مساعدتي، أخيراً سننتقل لنبي هرماً كبيراً من
• باب المحبة التي تتسع لكل محتاج.

• منذ أذنيه ليُبعد صوتها الصاخب عن مسمعه، ثم أجابها مبتسماً:

• لم أوافق بعد على العمل معك، لكنني وافقت فقط على وضع
• حطط العمل، أما دخولي في دوامة الوجوه والأسماء لستُ مستعداً
• لها بعد.

• - ليس مطلوباً منك دخولها، أقله الآن، لدينا الكثير من الوقت، أولاً
• - سنبحث عن مكان ثم سنتواصل مع الجمعيات الأخرى، وعلينا أيضاً
• - أمين الدعم المادي للجمعية، ما زالت هناك عوائق كثيرة لكن سوف
• - اندبر الأمر، لا تقلق.

• دون تفكيرٍ بادر بالكلام:

• - حسناً سأكون أول المساعدين، سأقدم الأجر الذي سأتناقضاه من
• - الحفل القادم للجمعية ونبدأ به، لا أعرف إذا كان والدك سيوافق على

دفع نقودي قبل الحفل، إن وافق سأطلب منه أن يحوّل المبلغ رأساً
الجمعية.

صاغت من جديد وكأنها لم تصدّق ما سمعت:

- هل أنت جاد؟ لكن هذه نقودك، وحقك مقابل هذا المجهود الذي
تبذله.

هزّ رأسه غير مبالي:

- ماذا عساي أن أفعل بهذه النقود؟ إنني مكتفٍ، لا أحتاج سداً
للقليل، فأنا لا أحبّ شراء المقتنيات الجديدة، ولا أتقل كثيراً ولا أساد
ولا أحبّ تبديل ملابسني بأخرى، عندي سكنٌ وسريزٌ والآتي الموسيقي.
ماذا سأفعل بما معي، حقاً لا أعرف، حتى تلك النقود من الحفلة السابفة،
ما زالت معي كما هي، سأعطيكَ إياها أيضاً سندفع منها إيجار المقر.

- إنك تفاجئني يا نعمة، هل البشرية هم المرضى وأنتم الأصحاء؟
ربما أنتم النموذج الذي أرسله الله لنتقدي به فجعلناكم المرضى وجعلنا
أنفسنا الأصحاء لأننا لن نستطيع أن نكون مثلكم.

حدّق في سقفِ الغرفة لدقائق قبل أن يُجيب:

- لا أعرف يا مايا، ليس عندي جوابٌ على سؤالك ولا أستطيع أن
أتنبأ بمخطط الله الذي وضعه للأرض وللشعر، وعلينا أن لا نتدخل
بعمله، هو يعرف أكثر منا كيف يُدير الأرض ويُستيرنا، أليس هو الخالق؟
توجّهت إلى النافذة وفتحت الستائر قليلاً حيث دخلت حُصل الشمس
محمّلةً بأطياف الأمل.

«ربّ أنت اليوم، لسانك ينطق خبايا روحك بطلاقة.

«شفة، بعد أن غطى عينيه من ذلك النور:

إنسي مُدرِك لمحيطي، لكن مشكلتي آتني لا أجد دائماً مثلكم
واضحة للتعبير، وليس عندي الصبر الكافي لأنكلم، لأفهم
خاصة بما يتعلق بما لا أدرك، كيف لنا ونحن الأضعف والأعجز
دلم ونقرّر ماهية الأمور صحيحة كانت أم خاطئة؟!

استمت بسرور اعترافاً بعجزها عن متابعة النقاش معه:

لا أعرف بماذا أجيبك أيها المفكّر العظيم، حسنًا لنُعد إلى
سرعنا، سأتصل بوالدي وأسأله إذا كان طلبك ممكن؟

من خلف ذبول الشمس ونورها وابتسامات الربيع راح يستمع إلى
أرواحها معه، يتأملها وهي تناغيه وتناديه بابا، عاد ليسأل نفسه ذلك
الذي أرقه:

«أين هو أبي أنا؟ من أوجدني في هذه الدنيا؟ كيف وُجدت في
هذه الحياة؟ أين هي أمي التي رأيتها في صورة والدة شافي؟ هل ماتت
هي الأخرى أم أنها فقدتني وتبحث عني بين البلاد؟ هل لي شقيقة
مثل مايا جميلة ولطيفة؟ هل كانوا يحبونني ويتقبلونني كما أنا؟»
منم الحزن على وجهه من جديد.

«لو كان لهم أن يحبوني ويتقبلوني لما رموني هنا كل هذه السنين.»

أخرجه صوتها الفرح من جديد من دوامة أسئلته تلك.

- آه يا نعمة، أبي سيتبرع لنا بكامل إيراد الحفلة وسيحوّل لك الأمر لتصرف بهما كما شئت منذ الآن.
- أرايتِ يا مايا، إن النماذج الأخرى التي خلقها الله في هذه الدنيا ليست سيئة، فلكل قاعدة استثناء.

معلٍ حقيتهُ الصغيرة على ظهره، اعتمر قبعته الرياضية ثم انطلق
 برحلتِه مستقلاً إحدى سيارات الأجرة المتوقفة أمام الفندق، كان جو
 هاصمٌ مشتبهاً بالغبار، وحرارة الطقس قد رسمت معالم التذمر على
 شواه المازة الذين تجبرهم أعمالهم على الخروج من نعمة التكيف
 والنجول في الشارع، بعد قليل انحدرت السيارة في منعطفٍ من تحت
 أمد الجسور لتأخذ فرعاً من الطريق السريع الذي يمتد على طول
 المحيط الساحلي بين المدينة ومدخل الطرق الجبلية، تاركين وراءهم
 وطن التحضر بوضائه وصخبه وازدحامه، بعد ما يقارب نصف
 الساعة، وبعد أن عانقت عيناه زرقة البحر وداعب أنفاسه عقب الموج،
 عاد السائق ليأخذ طريقاً آخر أقل اتساعاً يخترق الجبال ويشرف على
 المنحدرات والوديان، كان المشهد رائعاً، كأنهم يسرون على درب من
 دروب الجنة، مدّ يده قليلاً من النافذة، تفحص الهواء الذي بات أكثر
 سرودة وأكثر إنعاشاً، يبدو أن الحرارة قد تدنت بسبب تلك الغابات
 والأشجار الخضراء التي تظلل الطريق، كاد ينسى وللحظات كل شيء
 حتى اسمه وسبب وجوده في هذا البلد الجميل، ولولا تلك الظروف
 لاستمتع برحلته هذه ما استطاع، لكن القلق يحاصره منذ مدة، وواقعه

الجديد يؤرقه رغم كل محاولاته للتخفيف من تضارب مشاعره ، وطأة تلك الأسئلة التي لا تفارقه لا سيما لقاء بمادلين والكشف عن هويته وأسباب الزيارة، كيف سيكون رد فعلها أمام ابن ذلك المرحوم الذي دُمّر حياتها، والذي عاد ليبحث عنها بعد مرور عشرين عامًا من قتلها؟ ربما قد تزوجت وأصبح عندها أولاد آخرون، وربما طيّب الله جراحها ونسيت ما حصل معها أو تناست، عليه أن يكون حذرًا لا يُدمر حياتها من جديد.

وصل إلى النزل، سجّل الموظف اسمه وبياناته، وضع حقيبته في غرفته المتواضعة، خرج إلى الشارع من جديد، كأنه محطّ أنظار الجاهل هناك، إنه سائح غريب عن المكان، ففي هذه المدينة الصغيرة كل الوافدين معروفون، تناول غداءه في أحد المطاعم وعاد إلى النزل يملؤه الإحباط والقنوط كأعمى يتبصّر الطريق دون أن يراه، تردّد قليلاً قبل أن يتوجه إلى موظف الاستعلامات:

- لو سمحت، أبحث عن سائق معه سيارة، لقد حاولت العثور على أحدهم أو على مكتب تأجير سيارات فلم أجده، ولم يصادف أن أحدهم خلال تجوالي في المدينة.

أجاب الموظف وهو يتسهم بأدب محاولاً كسر ذلك الإحباط الذي يتملّكه:

- يا سيدي إننا في مدينة داخلية، لا توجد هنا مكاتب أو مواقف متخصصة كما في المدينة، ومعظم عابري الشوارع هم من المقيمين

« هم لا يملكون تلك السيارات، هناك فقط باص يتجه إلى العاصمة
، مرات في اليوم، والبعض الآخر يتجول داخل القرى الجبلية في
، بهاية دوامات العمل.

« ثم بسعده ما سمع، فكر قليلاً ثم سأله:

هل يجب أن أطلب سيارة من أحد مكاتب المدينة؟

لأن تحتاج ذلك، لدي صديق يملك سيارة خاصة وقد عمل سابقاً
مكتب سياحي في المدينة، وهو شاب لطيف وسوف تستمتع برفقته،
أدت من الممكن أن أتصل به الآن.

أجاب دون تردد:

بالتأكيد... أرجوك، فوقتي ضيق جداً.

لم تمض ساعة حتى كان حسن واقفاً أمام الفندق، شاب أنيق تفوح منه
الحة العطر، عرّف نفسه بفخر ولطف، مدّ شافي يده مصافحاً مرحباً.

استلم حسن الحديث وراح يتكلم ويتكلم ويصف جمال بلاده
، الأماكن التي بإمكانه زيارتها، تكلفة الجولات ومتاعب المهنة وأسعار
النفود والطرق وأخبار زبائنه، استمع إلى أقاصيصه إلى أن امتلكه
الملل فقاطعه قائلاً:

- جيد يا حسن، أريدك أن تبقى معي في اليومين القادمين، عندي
مهمة مستعجلة أريد أن أنجزها، هل تستطيع أن ترافقني؟

شدة الفضول وأجاب بحماس:

- إني جاهز يا سيد شافي، لكن سيكون السعر مرتفعًا قليلًا
كامل، استهلاك السيارة والوقود وأشياء أخرى.

أشار له بيده كي يتوقف عن الكلام ثم أكمل بصوت منخفض:

- لن نختلف على هذا الموضوع سأدفع لك ما تريد، لكن ما
منك أن تبقى كل تحركاتنا طي الكتمان، حتى عن أقرب الناس إليك
تغيرت ملامحه وكأنه قد استشعر شيئًا غريبًا خلف هذا الظل
وحول شخصية هذا الغريب الثري الذي يرمي النقود دون حساب.

- لا تقلق يا سيدي، طالما أن الأمور التي سنقوم بها لا تتجاوز الغار
ولا المحرّم والممنوع فأنا موافق.

هز رأسه نافيًا مُبتسمًا:

- لا يا حسن، لا تذهب بأفكارك إلى بعيد، لكن عليك أن تعدني،
تنفذ ما طلبته منك.

- أعدك يا سيدي، أخبرني ماذا تريد بالتحديد؟

فرك يديه استعدادًا لخوض تجربة أخرى بالمكر والخداع، أساء
لم يعتدّه ولا يروقه لكنه مجبر عليه، ليجنب تلك المسكينة إذا ما وجدها.
آلامًا أخرى لن تقوى على حملها بعدما أصابها من مأس.

- اسمع يا حسن، بعد أن استلمت عملي كمحاسب في إحدى
الشركات العالمية وخلال مراجعة الحسابات قبل تسليم ملف الشركة،

، و من عملهم دون استلام تعويضات صرفهم، فأرسلتني الشركة
، هي أخبارهم قبل إعادة حقوقهم لأن المبالغ المستحقة كبيرة جدًا،
.. بين تلك الأسماء ظهر عندي اسم سيدة من برج الحمام، إحدى
، هذه المحافظة، ولكن للأسف وبسبب عدم وجود وسائل تواصل
، الك الحين لم نجد في ملفها سوى اسمها واسم قرينتها؛ لهذا يجب
اسل إليها دون أن يلاحظ أحد، لأنأكد من أنها من أبحث عنه،
، أمها برغبتهم في سفرها إليهم، لكي توقع على استلام مستحقاتها،
، لم تكن موجودة لأي سبب، عندها لن تكون الشركة مضطرة لأن
مع للورثة ما لها من حقوق.

نفرس فيه حسن بنظرات متفحصة وقد لاح في عينيه شيء من الريبة
انه تجاهل إحساسه هذا وعقَّب قائلاً:

.. كم هي محظوظة! وماذا تريد أن تفعل؟

حسناً، أريدك أولاً أن تأخذني إلى برج الحمام وسوف نرى بعدها
أف ستجري الأمور.

.. أنا جاهز، هل تحب أن نذهب الآن.

لا، غداً صباحاً، سننطلق عند الساعة العاشرة.

رغم مرارة الانتظار، إلا أن هواء تلك الجبال قد خدَّر أعصابه
سام ليلته الطويلة مُستكيناً، سكينه حرمة منها القدر منذ زمن.

في الصباح، بعد أن أنهى إفطاره انطلقا نحو هدفهما، عدة دقائق ثم «
بعدها عن الطريق الرئيسي إلى طريق ضيق، لعبور عدة قرى صغيرة،
بيوتها موزعة على جانبي الطريق وأخرى في منحنيات الوديان وبه
الأخر يقرب قمم تلك الجبال الخضراء ليطل قريدها وكأنه ورداء
من بين خضرة أشجارها. أرخت هذه المشاهد أعصابه المشدودة،
فاستسلم مجبرًا لما سيحمله له القدر، لقد فعل ما يجب فعله وما
ها هو هنا متحديًا نفسه أولاً وظروف حياته القاهرة، فما ستحمله الساء
القادمة سيخرج ضميره من متاهة الألم مهما كانت نتيجته. أوقف
سيارته جائبًا مُعلنًا في نهاية حديثه الذي لم ينقطع، وصولهما إلى
قرية برج الحمام، عدل شافي جلسته وراح يتأمل المكان عبر زوايا
السيارة، المحال التجارية والمنازل، الشوارع المُتفرعة، وجوه الناس
وتلك الحياة الهادئة التي تسير دون مشقة ودون صراع ونفوذ الماء
يراقب السيدات اللواتي يدخلن دكان بيع الخضار الصغير في ساء
القرية.

- تُرى أيهنَّ أنت يا مادلين؟ هل سأجديك دون مشقة؟ أه يا شافي،
ينتظرك؟! أه كم أخشى انفعالاتك لحظة لقائك، أين أنت يا مادلي،
أشعر بأنه سيغمي عليَّ عندما سأراها وربما سأرتمي في حضنها، وأه
عائلتي التي أفتقدها منذ سنين..

- سيد شافي هل تسمعي؟ هل أنت بخير؟

أجابه كمن استيقظ من نومه للتو:

اجل.. أجل يا حسن..

ماذا سنفعل الآن؟ هل تريدني أن أسأل عنها صاحب الدكان، أم
أء بنفسك؟

فكر حائرًا لا يعرف ماذا سيفعل، إنه مرتبك، لا.. إنه خائف وغير
اث. إذا ما كان سينجح في مهمته هذه أم لا.

لا أعرف يا حسن.

أرى أن تعطيني اسمها بالكامل، وأنا سأسأل عنها دون أن يلاحظ
.. لو سمحت أريد أيضًا بعض النقود لأشتري بعض الأشياء كي أبرر
مولي إلى الدكان، للأسف نسيْتُ نقودي في المنزل.

فنتح محفظته وأعطاهُ بعض الأوراق من فئة المئة دولار، بدت على
من ملامح الصدمة عندما أمسك النقود بيده..

- سيدي هذا كثير، أستطيع شراء الدكان بأكمله بهذه النقود.

- هيا اذهب يا حسن وكفى كلامًا، لقد أصبنتي بالصداع، اسمها
مادلين حامد، لا تنس الاسم.

سارٌ لهدفه تحت أنظار شافي الذي كان يراقبه وهو يتفحص الفاكهة
في تلك الأقفاص المرصوة أمام المكان تارة، ويكلم الرجل الواقف
مناك تارة أخرى، ثم راحا يضحكان معًا وكأنهما أصدقاء منذ الطفولة،
فان حسن ذا شخصية فذة رغم صغر سنه، إلا أن الحياة على ما يبدو
لم تبخل عليه بتجاربهها، ذكّره للحظات بمايا، أيقظ مرورها في مخيلته

إحساسه بالمسؤولية فصحا من شروده، عادَ ليراقب المكان من ..
وحسن الذي ما انفك عن التثرثرة مع ذلك الرجل، ثار غضبه وكاد أن ..
أعصابه ..

- ماذا يفعل هناك؟ يبادله الحديث وكأنه واحد من أفراد أسرته!

ما هي إلا لحظات حتى خرج الرجل من خلف طاولته ووجهه
حسن في الشارع وراح يشير بإصبعه إلى مكان ما يبدو أنه من
القرية عند سفح الجبل، تبادلوا السلام والأحضان، حملَ حسن
المشتريات وعاد إلى السيارة، بعد جلوسه في مكانه سارع بالـ
- لماذا أطلت الحديث معه؟ لا بد أن سؤالك قد أثار شكوكه...
هل تعرّف عليها؟ هل أرشدك إلى منزلها؟

- لا تقلق يا سيدي هدى من روعك، لقد جرت الأمور بتلقائيه
يلاحظ أي شيء، نعم لقد أرشدني إلى المنزل، حاولت أن أجمع
من المعلومات لكنه أكد بأنه لا يعرف شيئاً عنها، فهي وعائلتها ليسوا
زبائنه.

بات التوتر واضحا على وجهه رغم محاولته الفاشلة لإخفاء انفعاله.
تلك.

- لا تقلق أرجوك، بما أننا قد وصلنا إلى قريتها، وإلى منزلها أبعدا.
فهذا يعني أننا سوف نصل إلى باقي المعلومات قريباً وبدون مشاكل.
أهل القرية يُحبّون الغرباء رغم حذرهم منهم، لكن ما داموا سيحجروا
النقود فذلك سيقضي على حذرهم نهائياً ويفتح قلوبهم.

أهني هذا، مديرُ شركتنا رجلٌ صارم، وربما طردني من عملي إن
هذه المهمة بنجاح.

أما به بثقة وهو يضع نظاراته الشمسية الفاخرة:

سوف تتجح، حسن معك، سوف لن تكون هناك مصاعب إن شاء
سستطلق الآن لنبحث عن المنزل في ذلك المكان الذي أرشدني إليه.

جيد، هيا بنا إذن.

ربما سنحتاج إلى بعض الوقت، فالأفضل أن نتجنب طرح الأسئلة،
رأ اشتباه سيفسد الأمور ويوقظ أهل القرية، ويجعلهم يتحدثون عن
مادلين والغريب.

أجل يا حسن، حسنًا تفعل، فلا أريد أن أوقعها بأي مشاكل، جل
أريده فقط أن أتأكد من شخصيتها وأن أتواصل معها دون أن أسبب لها
أي إحراج أمام عائلتها وربما وزوجها؛ لأنه ومن غير المألوف أن يتقصى
مدير أخبار إحدى موظفاته بعد هذه السنوات الطويلة.

هز رأسه موافقًا على ما قال..

- أعرف يا سيدي، الناس هنا غريبو الأطوار فعلاً، ولا يشغلهم إلا
مراقبة بعضهم بعضًا.

بعد أن اجتازا الطريق العام وقبل أن ينعطفا في طريقٍ داخلي أكثر
ضيقةً يظلمه الكثير من الأشجار، يطل في نهايته على مجموعة من البيوت

المتقاربة، أوقف حسن سيارته هناك وجال بنظره في المكان لكي
من تلك المعلومات التي أعطاه إياها صاحب الدكان.

- اعتقد أنه هناك حسب وصف الرجل، اعتقد أننا قد وصلنا.
خيم الصمت بينهما من جديد.

لم يكن شافي راغبًا بالكلام، أراد أن يتأمل بصمت كل تلك النفاثات
هناك حيث شبت تلك الحسناء الرقيقة الطيبة التي حملت ما حملته،
أن تشتكي أو تتذمر، لقد صدمته تلك الأحاسيس وتساءل عن سببها،
ذلك الشعور الذي يقبض قلبه ويخنق أنفاسه ويسري وقودًا في دمانه

- سيدي.. ماذا تريدنا أن نفعل؟

- إنتي حائري يا حسن ولا أدري ماذا سأفعل.

بقيا على هذه الحال من الترقب لوقت طويل، وإذا بأحد ما يتأذى.

- ما بكما أيها الغريبان، هل أنتما بحاجة إلى أي مساعدة؟

لمعت عينا حسن وبداهة متقن أجابه:

- السلام عليك يا عم، لقد توقفت السيارة فجأة ولا أعرف ماذا -

بها، هل لديك عدّة للتصليح؟ لقد تركت صندوقي في المنزل.

رد الرجل بكل حماس وترحيب:

- طبعًا يا بني، سأتي لك حالًا بما تحتاج.

معت نظر شافي المستغرب سرعة بديهته تلك، فكَّ حسن قطعةً
من تحت مقود السيارة ليووقف محرّكها عن العمل قبل عودة
السيارة ثم ترحّل من مكانه وراح ينتظر عودته.

دقائق قليلة وكان ما طلب بين يديه، أخذ بعض المعدات وراح يعالج
الأجزاء يشدّ وينفّخ ويمسح.

شكرًا لك يا عم على هذه المساعدة.

لا داعي للشكر، أرجو أن يساعدك هذا كي تعود إلى منزلك قبل
أول الظلام.

لا تقلق أيها الرجل الطيب، أمك خبرة لا بأس بها في تصليح
السيارات.

- هل أنت من هنا؟

- أجل، أنا من القرية المجاورة، واسمي حسن.

- تشرفتُ بمعرفتك.

- لقد عدتُ من السفر منذ أشهر وكانت صديقة أُمي المقرّبة تسكن
هنا على ما أعتقد بحسب ما شرّحت لي..

- ومَن هي صديقة أمك تلك؟

- اسمها مادلين حامد.

ارتبك قليلاً عندما سمع الاسم، فسأله مستفسراً:

- هل مادلين صديقة أمك؟

- أجل، هل تعرفها؟

- طبعًا، إنها ابنة جيراننا، وهذا منزل عائلتها.

ظنَّ شافي أن كليهما قد سمع ضربات قلبه، إنها هنا.. بينهُ وبينها.
قليلة، كم كان حظُّه جيدًا عندما التقى حسن، لولاه لما تمكَّن من...
كلّ هذه الدروب وحيدًا.

عقبَ حسن قائلًا، وهو يرقب شافي بطرف عينه وقد علت و-
ابتسامه ملونة بمكّرِ الثعلب:

- آه.. كم هو جميلُ أن أسمع عنها من جديد، لقد انقطعت أخبارها.
عنا منذ زمن، هل تزوجت؟

أجابه بعد أن ظلَّ الحزن وجهه:

- لا.. المسكينة، منذ عودتها من تلك البلاد باتت وكأنها إنسانا،
آخر، أحد أدركه الموت ففقدَ رغبته في الحياة، قلَّما نراها أو تخرج.
منزلها.

انجست أنفاسه ودموع عينيه، ما قالته مايا كان صحيحًا، إنها تتعذر.
لم تتزوج ولم تنس: «ساعدني يا الله كي أعيدها إلى الحياة».

أكمل حسن أسئلته:

- حقًا، مسكينة، ألم تجد لها وظيفة أخرى؟

لا، لم تفعل، وبعدَ زواج إخوتها وانشغال كل منهم في عالمه،
فت للعمل في الأرض، فما تنتجُه، بالإضافة إلى معاش التقاعد
اص بوالدها المتوفى، كان كافيًا لتعيل نفسها وأمها العجوز، تلك
كينة.. لقد صرفت شبابها في العمل والمشقة لترسل لهم كل ما
، وبعد هذه التضحيات تركوها دون مساعدة.

كس أنا مشتاقٌ إليها، لقد أحببتها كما والدتي، لا أعرف إن كانت
، ثري أم لا؟ هل نستطيع زيارتها؟

بالتأكيد، لكن ليس الآن، الوقتُ باتَ متأخرًا، بإمكانكما أن تأتيا
، وأنا سأتكفلُ بإبلاغها وبترتيب هذه الزيارة معها.

رمق حسن شافي بطرف عينه مستفسرًا، فأشارَ له بالموافقة.
حسنًا يا والدي، سنأتي غدًا ونذهب سويا، الواحدة ظهرًا، هل يُناسِبُك
هذا التوقيت؟

- أجل، لا بأس، الواحدة ظهرًا.

بعد قليل وبعد أن أعاد ذلك الجزء الصغير إلى مكانه، حُلَّت الأزمة،
دار المحرك من جديد.

ودَّعاه بكلِّ محبة شاكرين، ثم عادا إلى الفندق. لقد سارت
الأمور كما يجب، ولكن ما لم يكن ممكنًا خلوده للنوم قبل
موعد الغد المنتظر، وأفكاره القلقة تجول في مئة سبيل.
أي صديقة تلك التي سأختلق حكايتها وأي شركة، وماذا سأقول
لحسن؟ يجب أن أكشف لها شخصيتي وأخبرها الحقيقة بالتفصيل،

من الممكن أن أتكلّم معها على انفراد كي أتجنب نظرات حسن ال
تطوّقني، لكن ربما قتلتنني انتقامًا، لا، لا يهم، أريد فقط أن أجلس مع
وأكلّمها، من المؤكد أنها ستدرك صدق نيتي.

بعد تلك الليلة المتعبة التي أرقته، سار أخيرًا إلى الموعد المح،
وتلك المواجهة التي حاول الاستعداد لها قدر ما استطاع. وصل إلى
القرية مجددًا يحدوهما الأمل والقلق، نظر كلّ منهما إلى ساعته منتظر ..
ذلك العجوز حيث ودّعه بالأمس.

لم يخفّ على حسن توتر ذلك الغريب وقلقه، لقد أدرك دون أن ي
أنه لم ينم جيدًا، وأن موضوع مادلين قضية حياة أو موت بالنسبة له، وأنه
أكثر من مجرّد موظفة، وأكثر من صديقة أمه، وشك للحظات عندما ذا
يراقب ملامحه أن تكون هي أمه نفسها!

ها هو الرجل الودود يلوّح لهما من بعيد، اقتربّ منهما وتبادلوا السلام
جميعًا، كانت عينا شافي ترجوانه أن يسرع بتلك المراسم التي كادت أن
تقضي على ما تبقى من أعصابه والتي حاول بكل جهد أن يضبطها ضم
ذلك الإطار الذي يجب عليه أن يبقى ضمنه.

ذات الشقة التي استأجرها مقرًا للجمعية واسعة وجميلة.

انظر يا نعمة، ستترك الصلاة كما هي وستكون مقرًا للاجتماعات،
الغرف فسنحوّلها إلى صفوف للنشاطات اليومية المتنوّعة، رسم،
... بقى، بناء مجسمات هندسية... لقد اقترحت عليّ ملاك أن تكون
... اك أيضًا خدمة الأمّ البديلة في المؤسسة، لقد أعجبتني الفكرة جدًّا.

أثار ذلك الاقتراح فضوله، فسألها مستفسرًا:

• أم بديلة؟ لماذا؟

- لأن الأمّهات أكثر التصاقًا بأطفالهن، خاصة عندما يحتاج أحدهم
امناية ورعاية مشدّدة، وتجدهم قد أدخلوا أنفسهم بعزلة مفروضة
عليهم. لا يستطيعن اصطحابهم معهن أينما ذهبن، ولن تسمح لهن
طروف أطفالهن تلك أن يتركنهم في عهدة أحد، لا يجيد العناية بهم.
لهذا تجدهن فقدن متعة الحياة ورزحن تحت عبء مرض أو لادهن،
بساطة ستقوم الأمّ البديلة بدور الأمّ ليوم كامل، بإمكان تلك الأم أن
مخرج للتسوق أو ربما لتعتني بنفسها، أو تفعل أي شيء تريد، دون أن
نحمّل عبء مريضها لأحد، ودون أن يتعرّض لسوء معاملة، وفي الوقت
نفسه ستقوم الأمّ البديلة باللعب مع الأطفال وتعليمهم وتدريبهم والعناية

بهم، وهكذا يعتادون دخول أشخاص جدد إلى دائرة حياتهم، بما في ذلك الوجوه المعتادة، وستعود الأمهات بعد هذه الاستراحة أكثر نشاطاً وتفهماً.

أعجبه ما سمع، فعقّب بابتسامة رضى، عكست ما جال في دأه،
- مارأيك في أن نخصص أيضاً يوماً في الأسبوع لتدريب الإناث على ألعاب مسلية تناسب إخوتهم المرضى، علينا أن نعتني بكل أفراد العائلة، الأطفال الأصحاء يجب أن يتفهموا إمكانيات إخوتهم، بعض الأحيان يعتدون عليهم بالضرب أو بسوء المعاملة لأسباب منها والغيرية من استحوذهم على اهتمام الوالدين عنوة.

قال بحزن :

- للأسف يا مايا هذا واقع محزن، كأن هناك العديد ممن يأتون بيوتهم للتدرب، ومعظمهم كانوا عدائيين، وكانت أجسادهم تحترق قصصهم.

- لقد أخبرتني ملاك عن عدة حالات لأطفال تعرضوا للأذى من إخوتهم وآبائهم، وربما أمهاتهم، بسبب جهلهم بأسلوب التعامُّل الصحيح معهم، فذلك الإصرار على ضبطهم يعرضهم لضغوط مضاعفة، فيصبحون أكثر انفعالاً وعدائية، لتتحول أجواء البيت بعد هذه الصراعات إلى جحيم.

بدا الحزن على وجهه، سافر بعينه إلى البعيد..

- كم هذا صعب، ربّما لم أختبر هذه الحالة لأني وحيد، لكن أستطع أن أفهم هذا، مؤكداً أنه مؤلم.

اهذا يا نعمة علينا أن نتحرك، العناية بالمريض لا تقتصر فقط على
م الطعام والشراب والدواء، يجب أن يشعروا بالثقة والأمان، كل
ال يفقد الأمل في تطوير نفسه يذبل ويموت، سيصبح عداثيًا وحاقدًا
. إن كان طبيعيًا.

صحيح، هكذا كنتُ قبل أن أدرس الموسيقى.

مد أن شاهدت تأثره، حاولت أن تأخذ النقاش إلى مكان آخر حيثُ

أعرف أن شافي سيفرح كثيرًا بما أنجزناه يا نعمة؟

فال وهو يتسم وقد انفرتحت أساريه من جديد:

أجل، أعتقد هذا، لقد افتقدته يا مايا.

استغلّت فرصة هدوئه تلك وسألته راجية:

- قل لي يا نعمة، ألن تعود إلى المعهد كي تفرح قلبه بهذا الخبر؟

استرق نظرة سريعة إلى عينيها، ثم كثر هذا مرارًا، وكان ما قالته قد
أعاده إلى وعوده وتجاربه السابقة الفاشلة:

- بلى، لقد وعدتك ووعدتُ شافي بهذا، لكن لا أعرف متى.

- الحفلة باتت قريبة وأعتقد أنكم ستبدؤون التدريبات النهائية بعد

أبام.

أجابها بقلتي وهو يُمسك يده الأخرى محاولًا ضبط جسده كي
لا يتفاعل مع القلق الذي انتابه:

- أجل.

- وهل أنت جاهز؟

- أجل، لقد أنهيتُ الجزء الأخير من السيمفونية.

- حسناً، سنجد حلاً، أعتقد هذا، ولكن عندي اقتراحٌ بخصم.

الحفلة ولا أعرف إذا كنت ستوافق عليه.

- ما هو؟

- سوف ندعو كل أُسرٍ ومرضى التوحد إلى الحفلة لنطلق من

أعمال الجمعية، وأنت ستكون الناطق باسمها واسمنا.

أثار كلامها قلقه وفرحه في آن.

- أنا وحدي؟

- أجل، سوف تُعرّف نفسك وحالتك ثم تفتح الحفل بعدها..

الفرقة، ليسمعوا إبداعك الذي لم ولن يتوقف فقط عند تلك الأنام

أرجوك هذا مهم، إنه تحدُّ جديد لك، يجب أن تصل رسالتك إلى

الجميع، المرضى وعائلاتهم وكذلك الأصحاء.

قاطعها قائلاً:

- لا، لا أستطيع يا مایا، النظر إلى الجمهور يربكني، فكيف سأتكلم

معهم؟

- يجب أن تفعل يا نعمة، سأكون أنا وملاك معك، لا تخف، سأعزف.

بالجمعية، ومن ثم تتحدث ملاك عن أهمية النشاطات التي ستقوم بها،

، ستكون شاهدًا، وتحكي تجربتك، وبعد أن تنتهي من الكلام
العزف، أعرف أن ما أطلبه صعبٌ قليلًا، لكنني أثق بقدرتك على
الهمة.

وأنرت حركته وراح جسده يتأرجح بشكل ملحوظ، أمسكت يديه
وهدد السكينة إلى نفسه.

اهدأ يا نعمه، الموضوع بسيط، وما زال أمامنا متسع من الوقت.

والاجلس هنا بقربي على الأرض، سأريك شيئًا ما.

أمرجت حاسوبها الصغير من الحقيبة، وشغلت مقطع فيديو قصيرًا.
انظر يا نعمه، هذا الرجل الذي يجرون معه الحوار يدعى بيل
ن، لقد كانت حالته مثل حالتك في طفولته، أما الآن فهو يملك أكبر
الطورية أعمال في العالم، وهذا الرجل ذو الشعر المنكوش يُدعى
النينين، من أكبر وأعظم علماء العصر الحديث، واجه صعوبات بالنطق
الاستيعاب، لكنه تحطى عجزه إلى أن نال جائزة نوبل.

فتحت مقطعًا آخر..

وهذا الشاب الوسيم اسمه يعقوب برنت، رُشح لجائزة نوبل في
الرياضيات، وهذا ستيف ولتشر، لقد أصبح أهم وأشهر الرسامين في
العالم، وطبقًا تعرف موزارت وبيتهوفن الذي كان أصم، وهذا نيوتن،
ميمعهم وآخرون عظام أيضًا عانوا من التوحد وتغلبوا عليه.

راح يراقبهم باهتمام، ويسمع ما يقولونه وهم يشرحون ويتكلمون
من حالتهم دون خوف أو تردد.

- أتعرف لماذا تحدّوا أنفسهم؟ لكي تجلس أنت الآن وتتعلم،^{١٠}
وتقف غداً على المسرح أمام آخرين بحاجة للأمل، ولتخبرهم،^{١١}
تجربتك كما فعل هؤلاء، لتدفعهم كما دفعوك لتقف من جديد،
بالأمل والصبر.
- تراخى جسده وحلّ مكان ذلك التوتر هدوء تام وعلت الآر.^{١٢}
وجهه من جديد، من المؤكد أنه تلقى الرسالة، وفهم جلياً ما نر.^{١٣}
أن يفعله.
- رفّع نظره المشتت إلى وجهها بضع مرات، وبشجاعة -^{١٤}
استخرجها من أعماقه المضطربة قال:
- سأفعل ما تريدين، بل ما يجب أن أفعل.
لم تُصدّق ما سمعت، فما قاله كان ثمرة مجهود سعت إليه بكأ.^{١٥}
أوتيت من إرادة.
- أنت رائع يا أخي الحبيب.
- أفرحته تلك الكلمة، فتزاحمت عليه المشاعر الدافئة من جديد،^{١٦}
بالنسبة له شيء قيم ومهم، لا يجد كلمة من الممكن أن تعبر عن^{١٧}
الحزمة الكبيرة من العواطف التي يكتبها لها، لقد أكرمه الحياة أ-^{١٨}
بعائلة، حتى إنها قد أرسلت له صورة أمه من عالم الغيب.
- أمي.. ربما لو كانت معي لتغيّرت حياتي كلياً رغم محبّتي لملا.^{١٩}
- ما بك يا نعمة؟

امكر بصورة أُمي، لقد علقتها بالقرب من سريري.

هل تذكرها حقًا؟

مدما رأيت الصورة فقط، عادت ملامحها إلى ذاكرتي.

هل تذكرت أشياء خاصة عنها أو عن حياتك معها؟

لا، فقط عادَ وجهها ليس إلا.

و هل ستعرف والدك أيضًا إن رأيتَه؟

أحبها بصوتٍ متقطعٍ مضطرب:

لا أعرف، لم أستطع أن أستعيد ملامحه، لا أعرف، ربّما سأحسه!
مسي ذلك اليوم حين رأيت الصورة كنتُ أعتقد أنه لا أمّ لديّ، وأحيانًا
أظن أنني وُلدتُ من العدم.

وماذا ترى في شافي؟

ابتسم من جديد وتراخت ملامحه:

أشعر أنه جزءٌ مِنّي، ورغم خوفي منه عند لقائنا الأول، شعرتُ منذ
ذلك الحين أنني أواجه مرآتي ورغبتُ من أعماقي في أن أراه ثانيةً، أنا
لا أعرف كيف تكون مشاعر الأخوة ولم أختبرها، لكنني تمنيتُ أن
أكون أخي.

ابتسمت فرحةً رغم كلام نعمة المُحزن.

- أتمنى لو أنكما كذلك فعلاً.

كان مزاج نعمة في قمة تجليّه، فتابعت حديثها محاولة رسم
لردود فعله في حال معرفته بتلك الحقائق التي اكتشفوها.

- نعمة، ماذا ستفعل لو رأيت والدك يوماً أمامك وكان حياً؟
لو كان هو تلك اليد التي سلمتك إلى المركز؟

بدت علامات الذهول واضحة على وجهه، تسارعت أنفاسه،
جبينه بلون أحمر ممزوج بعرقٍ باردٍ كما أطرافه، شعرت مايا به
ما طرحت. استدركت صعوبة الموقف، فلو كانت مكانه لربما قتله.

- آسفة يا نعمة لسؤالي هذا، أعتذر إليك، لا أعرف كيف طرحته،
سأقتي حديثنا إليه دون قصد، إنه حقاً غباء مني أن أسألك ولكن نوه
الأيّ عزجك الموضوع بما أننا إخوة.

أجاب بصوت صارم حازم:

- لا أعرف ماذا سأفعل إن رأيتك، لكنني لن أكون سعيداً إن عرف
قد رماني عمداً، ولم يسأل يوماً عني، كيف له أن يفعل هذا بي؟

كان عليها أن تقفل تلك الثغرة التي فتحتها في حائط ذكرياته،
أن يفقد سيطرته على أعصابه، ويدخل في نوبة عصبية جديدة، لا تعرف
بعد كيف من الممكن أن تخرجه منها، أسقطت جهازها وما كانت تحب
على الأرض عمداً، فتنتهت حواسه لسقوطه، ونسي الموضوع، و...
بمساعدها على جمع ما تبثر.

43

مم حفاوة استقباله لهما، إلا أن حالة من الارتباك كانت تظلل
١٠. عندما لاحظ حسن هذا بادره بالسؤال:

بحن جاهزان، وهذا صديقي شافي سيأتي معي إن لم يكن هناك
١٠. ولكن يا والدي، ملامحك تنبئ بحدث ما، هل أنت بخير؟
أحابه بصوت حزين وجبين مقطب يسكنه الكثير من علامات الحيرة
١٠. أسي:

أنا بخير يا بُني، لكنني أحملُ لكما أخبارًا غير سارة.

انقبض قلبُ شافي وتسارعَ خفقهُ، نظرَ حسن إليه ثم إلى الرجل
المعجوز.

- ماذا؟ ألم توافق على استقبالنا؟

- للأسف يا بني لا نستطيع أن نذهب؛ لأنها غير موجودة، لقد
سافرت منذ عدة أسابيع، آسف لم أكن أعلم ذلك، فنحن لا نفتقدها لأنها
لا تخرج من البيت، ووالدتها المعجوز لم تخبر أحدًا بشأن سفرها.

وقع الخبر على مسامع شافي كصاعقة شطرته نصفين، اسـ
الوراء بلونه القاتم، علّ حائط السور يتمكن من حمل جسده المرهـ
تنبّه المعجوز إلى ذلك فسأله مستفسراً:

- ما الذي أصاب صديقك؟

استدركّ حسن الموقف سريعاً، محاولاً تشتيت نظر الرجال
شافي:

- إنها خيبة الأمل يا والدي، بعد عناء طريقنا الطويل، لكن أيعني
أنه ليس هناك من أحد في المنزل يمكننا أن نتحدث إليه ونطمئن عاه
فأنا سأعود قريباً إلى هناك وأمي ستفرح إن أحضرت لها رقم هاء
أو عنوانها معي.

- بلى هناك والدتها، من الممكن أن تزورها إن رغبت في ذلك.
- بكل تأكيد، يُسعِدُنَا ذلك.

عندما أدرك حسن أنها ليست موجودة استفاض في لعب د...
بإتقان:

- خالتي مادلين هي من ربّاني، أحبّها كأمي وأدين لها بالكثير.
تأثر المعجوز لكلامه، فأمسك يده قائلاً:

- حسناً، تعال معي.

سارَ أمامهما إلى أن وصلوا إلى باب الحديقة الخارجي، ثم صام
بصوت عالٍ:

أبى.. هناك زائران يرغبان بالتحدث إليك.

أدار، ثم تحدّث إليهما بصوت منخفض:

إنها عجوز، سمعها ضعيف كما جسدها!

هات في مشيتها متكئة على عصاها الخشبية، ثم فتحت لهم
بمرحبة وسألتهم الدخول، سلّموا عليها وجلسوا في الصلاة،
وهو البيت الكبير ذي السقف المرتفع والشبابيك الزجاجية
التي تخترقها أشعة الشمس، ونسمات هواء الجبال العليقة.
سألتهم بصوت هادئ يلقه
الطيف والطيبة:

أهلاً بكما يا ولديّ، لم أتشرف بعد بمعرفتكما.

أخذ حسن مهمة الحديث كما كان يفعل دائماً، رافعاً عن عاتق ذلك
المسكين المزيد من المعاناة:

- اسمي حسن يا جدتي وهذا صديقي شافي، لقد عملت
مادلين ابنتك مع أمي في نفس الشركة لسنوات طويلة، كانت تزورنا
ونلاعبني وكنت لم أزل صغيراً، تلك الصور لنا معاً جعلتها تلتصق
في ذاكرتي رغم مرور السنين، بعد عودتي قررت أن أزورها وأطمئن
عليها بطلب من أمي أيضاً، فلقد فقدت الاتصال بها منذ زمن، لقد
قال لنا العم إنها سافرت من جديد، ولكن لن يمنعني هذا من أن
أتعرف إليك، السيدة الرائعة التي ربت مادلين التي كانت كأم لي.

وبينما أكمل حسن لعب دوره بإتقان تام، راح شافي يراقب المادلين
تفاصيله، ليعود ويتأمل ملامح تلك العجوز الطيبة التي أشبعها
على ما يبدو همومًا وآلامًا، كان يبحث بين الجدران وتلك الصور
المعلقة هناك عن صورة مادلين التي رسمها في مخيلته أو ما يشبه
حتى استرعت انتباهه صورة قديمة لسيدة رائعة الجمال ذات شعر
طويل، إنها هي! بالتأكيد هذه مادلين! آه كيف تجرأ على أذيتها و
مشاعرها؟ كيف تركها تبكي أمامه ولم يرحمها؟ إنها رائعة وتفهم
ورقيًا وجمالًا كالورود، آه سامحيني يا مادلين، أنا ابن قاتلك، ادا
منك السماح.

حبس أنفاسه، دون إنذار نهض من مكانه وتوجه نحو الصورة المعلقة
يتفحصها، فقطع تأملُه صوت السيدة العجوز:

- إنها ابنتي مادلين.. وهذه آخر صورها التي أرسلتها إلينا من
الغربة، كان ذلك قبل أن تعود إلى هنا بعامين تقريبًا، وعلى ما أراه،
أنها كانت آخر ابتساماتها، فلم تتوقف منذ عودتها يومًا عن البكاء،
أن تلقت ذلك الاتصال منذ أسابيع، حينها فقط شاهدتُ ابتسامتها،
جديد، وتفتحت فيها الروح، لم أستطع منعها من السفر وحرمانها
الفرحة التي أشرقت في عينيها.

كان يُصغي إلى كلامها بتمعن والحزنُ يلقه ويلون دموعه الحبيبة،
ونظرات حسن المتسائل عن سر ذلك الاتصال وسر المتصل تطوقه،
كان منه إلا أن هز رأسه نافيًا علمه بما حدث، مشيرًا إليه بضرورة الوصول
إلى نتيجة ما، تمكنهما من الوصول إليها قبل مغادرتهما.

١٠٠ حوار العيون، عادَ وأرعى جسده على المقعد من جديد تاركًا
م لحسن، علّه يصل من خلال حديثه معها إلى نتيجة ما.

هل لديك عنوانها أو رقم هاتفها، فأنا سأعود إلى هناك قريبًا،
مذني أن أتواصل معها من جديد، ومساعدتها إن احتاجت إلى أي
م هي غربتها تلك.

الت برأسها جانبًا، وبظراتها إلى البعيد محاولة إخفاء دموعها،

ليتك تستطيع ذلك يا ولدي، أنا قلقة جدًا عليها، منذ ذلك الاتصال
م أعلمتني به عن وصولها إلى المطار بسلام، منذ ذلك الحين لم
م عرف عنها أي شيء، لا رقم هاتفها ولا عنوانها، ولا أعرف حتى من
م ذلك المتصل، أرجوك أن تبحث عنها عند عودتك وتطمئني عنها،
م لها أرجوك أن تتصل بي، فصحتي لن تسعفني أن أحتمل عناء غيابها
م جديد، أرجوك أن تساندها وتقف إلى جانبها، وترجوها بالنيابة عني
المعودة إلى حضني.

اقترَب حسن من السيدة العجوز، احتضنها ومسح دموعها، قبلها في
مبينها..

- لا تقلقي يا جدتي، سوف نفعل ذلك، أعدك..

قالت له بحزن، بعد أن أسندت جسدها على عصاها:

- آه يا بني ماذا سأخبرك، لعن الله الغربة ولعن الحاجة التي تجبر البعض
على السفر، لقد عادت ابنتي من تلك البلاد مدمرة، دمرت قلبي حالتها

تلك وهي من أعمال إخوتها وأسعد قلوبهم، لم يستطع أحدنا أن يسهه،
عقب حسن مستفسراً عن سرها الذي يحاول فهمه:

- ولكن يا جدتي حياتها هناك لم تكن مأساوية رغم مشقة العم

- كانت في السادسة عشرة عندما غادرت البلاد، لقد زورت شهرها
ميلادها لتمتكن من السفر، ست سنوات من العمل ولم تتأخر يوماً.
بإرسال النقود من أجل إخوتها، إلى أن تدبروا أمورهم، بعد موت أمهم،
كانت هي والد الجميع، رغم أنها لم تكن الكبرى بينهم، أليس هذا
كافئاً؟ أليست الوحدة أشدّ ألماً من الموت في بلاد لا يساندك فيها أحد،
تواجه بها أقدارك مستسلماً لما تحمله لك من فرح وحزن.

بلغ شافي دموعه بصعوبة، بينما أكمل حسن حديثه، حسن الذي
يعرف مأساتها ولكن لم يكن حزنه أقل من حزن الآخر:

- إنها حقاً عظيمة، ولكن لماذا سافرت بعد كل هذه السنين؟ وكيفية
تركك وحيدة؟

أسندت يديها على عصاها، وهزت رأسها بأسى:

- لقد أرسل مديرها يطلبها، فرحت بالخبر كثيراً، رجوتها ألا تذهب
من جديد، لكنها أصرت، لم أرها يوماً سعيدة كما رأيتها يوم تلقّت تلك
الدعوة، وعرض العودة إلى العمل، قالت إنها سترسل لي النقود كما في
السابق، وبأنها لن تتأخر، وستعود قريباً.

شحب وجه شافي عندما سمع ما قالت، ولم يقوَ على نطق أي كلمة، أما
حسن فتملكته الدهشة، ونظر إليه مستفسراً وألف سؤال يجول في خاطره

١٠٤. لكن الآخر رفع كفيه محاولاً إيفامه بلغة الجسد من جديد بأنه
١٠٥. م شيئاً عن الموضوع، كان حوار العيون هذا معبراً وقصيراً، أوصل
١٠٦. خلاله بعض ما جال في خاطره، من ريبة وخوف.

١٠٧. ام يكن شافي الوحيد الذي غرقت نفسه في هوة الألم، إنما كذلك
١٠٨. العجوز التي تساقطت دموعها دون أن تحاول منعها. أسرع حسن
١٠٩. ومحاولاً تهدئة مشاعرها بأسلوبه اللبق وابتسامته التي تشع أملاً:
لا تقلقي يا جدتي لقد وعدتك عندما أصل إلى هناك سأبحث عنها
الطمئنتك.

فالت بلهفة الأمهات، كفریق انثشل من بحار حزنه:

- شكراً لك يا ولدي، سأعطيك رقم هاتفي ولا تنس أن تتصل بي،
سأنتظرك.

- سأفعل، لا تقلقي، إن شاء الله ستجري الأمور على ما يرام.
ودعوها وخرجوا، بعد أن انحنى شافي وقبّل يدها، خرج وما زالت عيناه
معلقتين بتلك الصورة، أراد أن يأخذها معه، لكن لم يجرؤ على طلبها،
لأنها قد طبعت هناك في قلبه وخياله، وراها أشد وضوحاً من صورة أمه
التي عاش معها أيضاً من خلال الصورة، دون أن يذكرها.

- آه يا نعمة كم أشعر أنني أشبهك، ليس فقط بتفاصيل وجهي
وجسدي، بل بتفاصيل حياتي أيضاً، وما يؤرقني أنني لا أعرف سبب
شعوري هذا!

بعد عودتهما إلى السيارة، نظرَ حسن إليه بريية وبادرةً بالسؤال:

- سيدي.. أيا كان اسمك، أرجوك أن تخبرني الحقيقة وماذا تريد.

هذه السيدة؟

أجابه شافي بصرامة:

- لقد أخبرتك القصة سابقًا، لكن على ما يبدو أن هناك سوء فهم

بين سفرها ومجئني إلى هنا، فلقد مررتُ على عدّة بلاد خلال جوار

وأنتهيْتُ عدّة مهامٍ أخرى قبل وصولي إلى هنا، ربّما وصلوا إليها قبل

أفعل، سأتصل بالشركة لاحقًا وسأستعلم عمّا حدث.

التزم حسن الصمت رغم ذلك الشك الذي يسكن عينيه، ثم

سؤاله:

- حسنًا، ماذا سنفعل الآن؟

- تُخذي إلى الفندق، يجب أن أعود اليوم إلى بلدي، سأتصل بمكتب

الطيران لأبدل موعد رحلة العودة، هل من الممكن أن تُقلني بعدها إلى

المطار؟ ستكون هذه آخر مهمة أطلبها منك، وسأسدّد لك كامل المبلغ

المطلوب، وأكثر من ذلك، إكرامًا لك على كلّ ما فعلت من أجلي،

وعرفانًا بذكائك ومهاراتك.

ابتسم حسن عند سماعه هذه العبارات، اتابه بعض من الغرور،

فأطرق قائلاً:

- لا تقل هذا يا سيد شافي، أنا أيضًا سعدت بمعرفتك ورفقتك،

والحمد لله أنّها قد عادت، وهذا يعني أن الأمور قد حُلّت والمهمة

جمعت، لكن لا تنسَ أرجوك بعد عودتك أن تُخبرِ السيدة مادلين
ورة الاتصال بوالدتها وطمأنتها عليها.

بالتأكيد يا حسن، وسأبقى على تواصل دائم معك، ربّما أعود قريبًا
هي إجازة الأعياد هنا، وستكون أنت دليلي في تلك الرحلة.
بكل سرور يا سيدي.

ملس شافي بعد هذا الحوار صامتًا مُردّدًا كلام تلك المعجوز، وسط
« أسئلةٍ وتكهّنات، أنهكت كيانه حتى غفا على مقعده ما تبقى من
أفة الطريق، بعد وصولهما إلى الفندق طلب من حسن انتظاره ريشما
بأمتعته، ثم انطلقا إلى المطار ليعود من حيث أتى.

زيارة سريعة لم تتجاوز الأسبوع عكس ما توقع، لقد مرت بسلام،
« ن مصاعب تُذكر عدا قصة سفر مادلين التي فتحت من جديد باب
الساؤلات على مصراعيه.

«أين هي الآن؟ وهل والده من أرسل في طلبها؟ يبدو هذا! ما تلك
السعادة التي وصفتها أمها، والتي حلّت عليها بعد طول حزن، من المؤكد
أنه قد أعادها إلى ابنها، أو ربما.. هل يعقل أن يكون قد نوى التخلص
منها؟!»

لم يسكن فكره لحظة واحدة وتلك الأفكار تتلاطم على صخور
طنونه كموج البحر المجنون المنكسر تحت سطوة الريح.

-«لقد اتصلت بمايا، ستكون بانتظاري، لقد افتقدتها حقًا، جيد أنني
سأراها من جديد، لأتأكد من أنني لم أكن أعيش كابوسًا، بل واقعًا».

توجهت مايا إلى المطار بعد ليلٍ طويلٍ لم تعرفِ خلاله الر
لقد أرقها خبر عودته السريع وأتصاله المُقتضب، وما زاد من فاقه
الحديث بينهما منذ سفره بات سريعًا ومختصرًا، وذلك الجواب ال
لعشرات الأسئلة التي أشعلت فضولها.

- سأخبرك عند عودتي بكل ما حدث بالتفصيل.

بعد عناق طويل، قرأت فيه إحباطه كرياح الشمال التي تنذر بهم
العاصفة:

- أخبرني بما حدث يا شافي، لقد أقلقنتني عليك!

أمسك يدها وراح يبحث في أحد مقاهي المطار عن مكان يجلس
فيه، ليقتص عليها ما حدث معه، جلست تستمع إليه وتراقب تفاصيل
بدهشة، وهو مسهب في سرد ما جرى معه من أحداث:

- لم أكره نفسي يومًا كما الآن يا مايا، لقد أصبحت كاذبًا أوله
القصص والروايات وأتملق الناس وألون وجهي بألف لون، كم شعرت
بالعار وأنا أتهزّب من نظراتِ حسن التي كانت تصرخ بوجهي تمنعني
بالكاذب الكبير، الخوف يا مايا، الخوف هو رحم الكذب، عندها

١٠٠ المخاوف التي لا تقوى على مواجهتها تستر بالأكاذيب، نعتقد
 ١٠١ سيحميننا وإذبننا نقع غارقين في بحور الندم وتأنيب الضمير،
 ١٠٢ صدقنا يسكننا الغرور لقدرتنا على إتقان أدوارنا، فنقع في فخ
 ١٠٣ ومجيد الذات ونفضح أنفسنا بأنفسنا، وإن حصل العكس وكُشِفنا
 ١٠٤ أنفسنا وسنداويها باختلاق الأعذار والمبررات، مالي أنا وكلّ
 ١٠٥ الحياة وهذه القصص! أريد أن أعود إلى عالمي المجهرّي بعيداً عن
 ١٠٦ البشر والحياة.

سُذت يده محاولة مواساته وشحذ عزيمته من وجع تُدرك ألمه
 :١

- لا تقل هذا يا شافي، أنت مُجبرٌ ولم يكن هذا يوماً خيارك، أنا أعرف
 ١٠٧ تماماً وأحترم مشاعرك ولهذا أحببتك، أرجوك لا تحمّل نفسك ذنوباً
 ١٠٨ لم تقترفها بإرادتك، أنت تبحث عن الحق والحقيقة ولك هدفك النبيل
 ١٠٩ السامي مما تفعل، وها أنا أمامك فعلت الأمر نفسه مع موظف المصرف،
 ١١٠ امد أعيني ضميري قليلاً، ولكن الغاية برزت الوسيلة، كيف لا وهناك
 ١١١ حلف تلك الغاية أرواح بشرية معذبة، وعندما شاهدتُ نعمة مُرتميّاً بين
 ١١٢ احضانك أدركتُ أن ما قمّتُ به كان واجباً وليس مسألة خداع.

- ما أحزنني يا مايا، قصة مادلين تلك حين سمعتُ بالتفصيل جزأها
 ١١٣ الثاني بعد عودتها إلى بلادها، اعتصر قلبي ألماً، لقد دُمّرت حياتها وظلّت
 ١١٤ سجيناً نفسها وأحزانها ودموعها لسنين طويلة تنتظر رحمة تولد في قلبه
 ١١٥ الميت تعيد لها حياتها التي سلبها منها مرتين!

أريكها ما سمعت وقصة سفر مادلين وتلك التفاصيل عن -
سكنها التوت من جديد فاستطردت قائلة بعد تفكير:

- لم تَقُلْ لكم والدتها ما نسترشد به إلى مكانها؟

- كَلَّا، فقط قصة اتصال ربّ عملها السابق، وعرض العمل الذي
تلقتّه منه، ومن خلال وصفها لفرحة مادلين بعد ذلك الاتصال أكاد أرى
أنّ والدي مَن فعل هذا، ربما وعدّها بابنتها الضائع، وإلا لما عادت،
تعرف أن اسمها معمم على مطارات البلد ومعابرها.

- وأين يُعقل أن تكون الآن؟ هل تعتقد حقاً أنه قد دعاها ليجيء
بولدها؟ أم أنه عرفَ شيئاً عما قُمنّا به واستدعاها ليتخلّص منها بطريقة
رفع كفيه مستنكراً، التقط نفساً طويلاً ثم أجابها:

- لا أعرف، وليست عندي فكرة أين من الممكن أن تكون الآن
ولا أعرف حتى من أين أبدأ، وماذا سأفعل، هل أترك الموضوع معلقاً،
أنها قد عادت وربما يكون ابنها الآن نائماً بين أحضانها؟

انفضت وهي تصيح من الغضب:

- طبعاً لا، يجب أن نعرف أين هي وماذا فعل بها، يجب أن يعترف
بنعمة، وربما قدرمى ابنته الآخر أو ذلك المولود الذي أوجده في مكان
ما وأدخلها هي السجن، ربما هي بحاجة إلى مساعدتنا وألف ربما، كيف
لك أن تثق به بعد كل هذا؟ وكيف لك أن تتركها بين يديه دون حماية؟
وهل تعتقد أن ضميره قد استيقظ بعد عشرين عاماً، ليصبح إنساناً هكذا
فجأة وبلا سبب؟

أدركته اتهامها له بالجبن والتخاذل، وخنقته مشاعر الخجل، فأطرق

« بما كنت محقة، سامحني على زرع هذا الانطباع فيك، ولكن
إن أن تفهمي ظروفِي، فأنا متعب ومقسوم على ذاتي وما أعانيه
أبي فلم أعتد نمط الحياة هذا!

نبتت على يديه وأسمعت ما يسعى إلى سماعه بلطف وحنان:

أفهمك، وأقسم إنني أحس بكل ما يختلج في صدرك من مشاعر،
« نطن بأنك المعني الوحيد في هذه القضية، لا لست وحدك صاحب
أنا، فنحن معك وسنساعدك، يجب أن نتهي كل هذه القصص العالقة
« أصفحة جديدة من حياتنا، دون مشاكل وتردد وخوف، إن شاء القدر
« أيا معًا فوالدك سيصبح جدًا لأولادنا ويجب أن يعترف بما اقترفه من
م إنهم ويعطي كل ذي حق حقه، وإلا فلن نستطيع أن نبني حياتنا جميعًا
على رمال القلق لنورته لأطفالنا كما فعل هو.

نلملم في مكانه، لقد أنهكه السفر وكثرة التفكير، وضاق كونه بهذا
الحديث المتعب.

- أنتِ محقة، ولا تظني كلامي هذا تخاذلاً، لقد فعلت المستحيل
وسأفعل أكثر، لكن ربما هو الإحباط أو الإرهاق الذي يرخي بثقله على
هامتي، دعينا نذهب الآن إلى الفندق، لقد حجزت لنفسِي غرفة هناك،
لا أستطيع العودة الآن إلى البيت، ولا أريد هذا، أريد أن أستريح قليلاً
وأستجمع أفكارِي ثم أزور نعمة. لقد افتقدته كثيرًا، وسنرى لاحقًا

من أين سنبدأ تحركنا في هذه المرحلة الجديدة، مع ما وصلنا إليه
معلومات.

- كما تريد، وسوف نساعدك جميعنا حتى نصل إليها، بعد أن
من عناء السفر سنعود لنجلس من جديد ونرسم خطة عملنا له
- كم أعشقتك يا مايا، لقد اشتقت إليك حقاً، كم أنا بحاجة إليك
أنا بحاجة لأن أريح رأسي بين أحضانك الدافئة!
اقتربت منه واحتضنته قائلة:

- أحبك كما أنت، أرجوك لا تتراجع ولا تبدد هذه الصورة التي
التي رسمتها لك، هيا تعال نذهب الآن سأوصلك بنفسى إلى
تريد.

خلال طريقهما إلى الفندق، استرعى انتباهه صوت الموز
المنبعثة من المسجل.

- أليست هذه سيمفونية نعمة التي نستمع إليها؟
- بلى، لقد عمل والدي على تسجيلها وسوف يسوقها لعم
الجمعة.

- هذا رائع.. لقد اشتقتُ إليه كثيرًا، كيف حاله الآن؟ وأين أمه
مشروعكما الجديد؟

خفضت صوت المسجل قليلاً وراحت تُقصُّ عليه ما جرى، فهاهنا
السرور إلى وجهيهما من جديد، وتناسيا القصص الغامضة المحزنة.

ملاك، ما إن يحضر اسمه حتى يعمّ الهدوء النفوس وتعود الفرحة
إليه، إنه حقاً نعمة، كم كانت ملاك محقّة عندما أطلقت عليه هذا

م أنت رائعة يا مايا! كيف أفنعتي؟

يا مايا، بقليلٍ من الغرور والسعادة تكلل وجهها، وترسم كلماتها:
إيها المحبة، المحبة مفتاح الأبواب المغلقة، لن تحصّد دون أن
تأكل، أنا أحبّ كثيراً، وكان الله قد عوّضني به أخاً لم تنصني به الحياة.
سائلاً:

وماذا عني أنا؟

أنت قصّة أخرى أخذتني وراءها كل هذه السنين، جعلتني أقف
إيها، بك مسلوية الإرادة، أفعل ما تفعله وألحق بك لأكون قريبة، وها أنا
أفعل شهادتي وما درستُ لأبدأ من جديد، وأنت السبب، يجب أن تدفع
الدين، يجب أن تعوّضني عن خسارتي هذه.

أجاب مبتسماً وهو يعتصر جسدها بين ذراعيه مودّعاً قبل دخوله
المدق:

- أعطيك عمري كله، لكن دعينا الآن نفكر كيف سنخرج من هذا
المازق، فصبري أشرف على النقاد.

- لا عليك، سنجد حلاً ما، هيا اصعد إلى غرفتك الآن، وارتح قليلاً،
يجب أن تعتني بنفسك، فما زال أمامنا الكثير لننجزه.

أمضى شافي ما تبقى من إجازته متنقلاً بين الفندق، وسكوت
ومركز الجمعية الجديد، أعادت هذه الأيام القليلة روح الحياة
إلى قلبه الذي أرهقته المفاجآت وخيبات الأمل، تلك اللهفة التي
حين فُتح الباب وشاهد نصفه الآخر أمامه، وذلك الحزن الدافئ
غرقاً فيه، أرخى عن كاهله فراغ تلك السنين التي حرمته هذه المشاعر
الرائعة. أما فرحته التي فاقت الوصف بكثير، فكانت تلك اللحظات
عندما راح يراقبه مع مايا وهما يجهزان المكان ويختاران الأثاث والألوان
طلاء الجدران، لم تكن علاقته بنعمة مبنية فقط على تلك الروابط الأخرى
التي نمت بينهما سريعاً، لكن أيضاً رغبة الاثنين في تعويض ما فانهما
كسرت بينهما كل حواجز الوقت والمسافات، رغم جهل نعمة بالحة
فقد قادته مشاعره إلى الآخر دون دليل.

ورغم انشغاله بما أودت إليه قصة بحثه عن مادلين، فإن مساعدته
فيما يقومان به، سرقة من أحزانه تلك.

لقد وعدهم المهندس المشرف على المشروع بتسليمهم المبنى
خلال أسابيع قليلة، أي بعد موعدهم الحفل الموسيقي، الأمر الذي أراهم

« أثيرًا، فهو عكس مايا، يكره العمل تحت ضغوط المفروض.
«ك، وفي ظل جهودهم تلك، فقد أنشأت شبكة تواصل مع العديد
الجمعية ومراكز التدريب، زيارات ومخاطبات وبحث في سُبل
« ان مع مركزهم الجديد. بعد انتهاء فترة الإجازة المُفترضة، عادَ
في ليجلس من جديد إلى طاولة الطعام مع والده، وعاود ارتداء قناع
« الذي يدميه.

أخبرني يا شافي، كيف كانت رحلتك؟

كانت رائعة جدًا، استمتعنا كثيرًا، ورُبّما سنُكرِّرها مرة أخرى.

- بالتأكيد ليس قريبًا، أبحاثك تنتظرُك الآن.

- أجل، سأبدأ العمل فورًا.

- هذا خبرٌ رائع، وهل لي أن أطلع على ما وصلت إليه قبل بدئك

« الرحلة التالية؟

أجابه بحزم دون أن يترك له فرصة لأي نقاش:

- لا، لقد قلت لك سابقًا، أفضل أن أترك هذا الحين انتهائي تمامًا،

أريد إنجاز مشروعي بمفردي، إن كان لديك بعدها أي ملاحظات أو ما

هو بحاجة للتعديل، فسنعمل عليه معًا.

- آه، كم أنت عنيد، إنك تُذكرُني بنفسِي، حسنًا لك ما تُريد.

ترك الوالدُ كرسيه قبل أن يُنهي طبقه على غير عادته، ما أثار حفيظة

شافي الذي سارعَ بسؤاله:

- إلى أين؟ لم تكْمِلْ فطورك بعد، هل أغضبتك كلامي؟

- لا، أبدًا، أنت طفلي الحبيب وستبقى، لكن لديّ موعد مهم ..

أن أذهب الآن.

ضبطَ فضولُه وخوفه منه، ودَعَهُ بابتسامَةٍ تكادُ تُشبهُ سابقاتها ..

التوفيق، بعدها عادَ إلى نفسهِ متسائلًا عن سببِ تغيّرِ والده الملحوم ..

بات غريب الأطوار، حتى إنه بدأ يُلاحظ أن هناك كرها ما يلوح في ..

تجاهه، ربّما ما زال كل شيء على حاله، إنما مشاعره هو التي تغيّرت ..

تعد كالسابق.

ترك المكان متجهًا إلى المختبر من جديد، عليه أن يُصوّر ..

المذكرات، دليل إدانة والده الوحيد، دخلَ وأقفلَ الباب خلفه و ..

إلى تلك الخزانة، فتحها وإذا به يقف مذهولًا، تلك المفاجأة صعه ..

وشلت أطرافه، جالت عيناه في كل زواياه، لم يصدق ما رأى، الح ..

فارغة تمامًا!

- بئسًا!! ماذا حصل؟ أين الكتاب؟ أين كل شيء؟ لا بُدَّ أن دا ..

المُجرّم أفرغها تمامًا، بئسًا.. ماذا يُحضّر؟ أي جريمة سيرتكب الآن؟ ..

الأغراض التي كانت هنا؟

أغلق بابها برفسة من قدمه كادت تكسره، ثم جلس على الأرض ..

مستندًا ظهره إلى الحائط القريب، وكأنه يبحث عما يرفع معه ثقل جسا ..

أحس رأسه كصخرة كبيرة ملقاة على كاهله، صخرة كان يتمنى لو استطاع ..

أن يدحرجها بعيدًا ويعيد التاريخ إلى ما كان عليه قبل دخوله هنا، دقّ ..

«... زوت وهو في سكونه، شلّ مما شاهد جسده وعقله، بعد تلك
 «... و انتفض واقفًا كالمجنون وراح يبحث في كلّ الزوايا والأدراج
 الملك الكُتُب الكثيرة والأبحاث العلمية التي ملأت الرفوف عن
 «... أي دليل يعيده إلى الواقع، يؤكد له أن ما قرأه ورآه لم يكن
 «... وأن هناك فعلاً امرأة حملت طفلاً مستسخناً، وطردت بعد وضعه،
 «... هناك عشرات البويضات التي انتزعت من بنات الهوى ولم يعرف
 «... ها.

بين ما وضع هناك وقعت يده على مجلّد للصور لم يلاحظه سابقاً،
 خرج ثم فتحه بيديه المرثجتين اللتين تجمدتا كقطع جليد، بعدما
 «... أما كُتِبَ في العنوان الداخلي:

«نهجين الجنس البشري»

- آه بيا... ماذا فعلت أيها المجنون؟! مؤكد أنه استغل أرحام حيوانات
 الحديقة ليزرع فيها جنونه ونهمه وتحديه لله!
 فتح الصفحة فصعقته صورة مفزعة كُتِبَ تحتها:

«الطفل القرد».. خلية إنسان، بويضة قرد، رحم قرد: المولود 70%
 إنسان، مدة الحمل سبعة أشهر، وُلِدَ وأُعِدِمَ في تاريخ 17.08 أُتِلِفَ
 الجسد في آلة الطحن. كانت الصورة مرعبة، جسد شبه بشريّ، بعض
 أجزائه نما عليها شعرٌ أسود كثيف، عيناه متفتحتان، فمهُ واسع، أصابع
 أطرافه تشبه إلى حدّ كبير أصابع القروذ، رَفَعَ نظره إلى تلك الآلة، وأدرك
 أخيراً سبباً آخر لوجودها في المختبر.

ارتجفت مفاصله، وارتعدت أطرافه، وهو يهيمُ بفتح الصفحة العاشر
 «الطفل الفرّس».. خلية إنسان، بويضة فرس، رحم فرس: المولود
 80٪ إنسان، مدّة الحمل تسعة أشهر، وُلِدَ وأَعْدِمَ في تاريخ 11.1 أ.هـ.
 الجسد في آلة الطحن.

جسدٌ بشري الهيئة، ذيلٌ قصير على المؤخرة، فمٌ غريب الشدائد
 أسنانٌ بارزة وعينان بارزتان.

كاد ارتجاف يديه وخوفه مما ستحمّله له الصفحات الأخرى يهزأ،
 بدأه، إلا أن فضوله دفعه للمتابعة.

«الطفلُ النعجة».. خلية إنسان، بويضة نعجة، رحم بقرة: المولود
 محدد النسبة البشرية، مدّة الحمل ستة أشهر، كائن مشوّه، وُلِدَ وأَعْدِمَ
 بنفس التاريخ، أُتْلِفَ الجسد في آلة الطحن.

حيوان بشري ممسوخ ذو شكل غريب مقرّز.

«التجربة الرابعة».. بويضة فرس، حيوان منوي بشري، رحم نعجة
 المولود 50٪ إنسان، مدّة الحمل سبعة أشهر، وُلِدَ وأَعْدِمَ في نفس
 التاريخ، أُتْلِفَ الجسد في آلة الطحن، ملاحظة.. موت الحاضنة في أثناء
 الولادة بسبب حجم الجنين.

كانت تلك الصورة أكثرهم رعبًا، جسدٌ بشريّ، أطراف حيوان، وجّه
 مشوّه غير واضح التكوين.

«ح صفحة أخرى كالمجنون، ليرى ما خُبي له أيضًا من مفاجآت.
«هذه كلب أنثى، حيوان منوي بشري، رحم نعجة : 40٪ إنسان.. جسد
«أطراف بشرية، رأس نصف بشري، أذنان كبيرتان في مقدمة الوجه،
«بعد ستة أشهر، وأعدم بنفس التاريخ، تم إتلافه في آلة الطحن».

لم تقوَ ساقاه على حمله أكثر من هذا، عاد بنظره إلى تلك الآلة،
«جبل كم طحن فيها من أرواح ممسوخة حلت بأجساد مشوّهة، وكم
ال من الدماء مع ذلك الماء، وفي تلك الأنابيب، كم علقت بقايا عظام
«انشلاء وكم أزهقت أنفوس لا تدري لماذا وكيف وبأي جسد حُلّت،
«لماذا أعدمت؟!»

أسرع إلى المفصلة الموجودة هناك، وراح يتقيأ، حتى كادت أمعاؤه
«هرج أمام عينيه، التقط أنفاسه، غسل وجهه بالماء البارد، نظرَ إلى المرأة
«ناملاً ملامحه لدقائق، ثم مسح فمه، وأرخت جسده على الأرض،
«محاولاً جمع أنفاسه المبعثرة.

- آه يا إلهي، ليتني طُحنت هنا قبل أن أعرف هذه الحقيقة المرة، ماذا
«هناك أيضًا أيها المجرم القاتل؟! ماذا هناك?!»

راح ييكسي بمرارة، وقلبه يكاد يهجر صدره ويكسر ضلوعه، تمرغ
«على أرض مختبره، مقبرة الأطفال، صاح بعلو صوته طالبًا الرحمة له
«ولمّن مات قبله، إنه والده الذي أحبّه وأطاعه، الذي حمله وأمسك يده
«والذي رأى في عينيه حب الدنيا، كل الدنيا، والده الذي ليس له سواء،
«ولن يدرك مشاعره إلا من فقد والده مثله وهو حي.

- كم أنت محظوظ يا نعمة، ليته قدر رمي بي معك في ذلك الـ
يا ليتني عشت وحيدًا يتيمًا وبقيت صورة عائلتي كذكرى جميلة دة
تشوهها أشلاء هؤلاء، ولم تصل بي المأساة لأن أرى ما أراه الآن
بعد ساعات من الصراع وإعلان الهزيمة التي كسرت ظهره، اسـ
قواه وراح يفكر فيما عليه أن يفعل، وكيف وأين سيجد تلك المذمة
دليل إدانته، التي من المؤكد أنه قد أتلّفها.

- لالـن أدعك تنجو بفعلتك، ما بين يدي الآن كافٍ لإدخالك السـ
فما قمتَ به محرم دوليًا وإنسانيًا ودينيًا، وإن لم يحاكموك على اسـ
ذلك الطفل، سيحاكمونك بالتأكيد على عبثك بمخلوقات الله وقتلها
أخذ مجلد الصور ووضع على طاولة الأبحاث، وراح يلتقط اللـ
لتلك الجرائم بقلب خافق ويدين مرتجفتين، مشاهد تقشعر لها الأبدان
- كيف له أن يوجد هم ويقتلهم هكذا دون مشاكل، ربّما استمع
خلايا من جسدي أو جسده ليجري عليها تجاربه، ربما كان ذلك الجار
نصف البشري أخي أيضًا، أو ذلك القرد! يجب أن أنهى هذه المهزلة
يجب أن أجد مادلين بأي ثمن، حتى لو اضطررتُ إلى إبلاغ الشرطة.

أعاد كل شيء إلى مكانه ثم صعد إلى غرفته، دخل الحمام، غسـ
يديه ووجهه عشرات المرات إلى أن ابتلت ملابسه وراح يراقب ملامحـ
بالمرأة، فرأى نفسه وإذ بها تتلبس تفاصيل تلك المخلوقات وتاـ
ملامحها وشكلها، شاهد شعرًا أسود كثيفًا ينمو كالعشب البري على
كامل الوجه والجسد، وأنيابًا ناصعة البياض تخترق شفثيه المشدودتين،

أنا وأذنانا وأنفاسنا لاهثة ولعابنا يسيل دون رادع، صرخ مذعورًا ضاربًا
رأه بقبضة يده، فتناثرت قطع صغيرة مثله، وهناك على السرير، رمى
بده المنهك، غفا، ربما فقد الوعي، بكاء مادلين، صوت أمها، وذلك
طاهل ونعمة وصورة والدتهم، والمهر شافي، المختبر والأنابيب وتلك
'أه التي تعصر الأجساد وتقرمها، ووجه والده فوق الجميع وعليه تلك
'سامة الميتة.

أنا مريض، أكاد أجن، مايا. أرجوك لا تتركيني، ليس لي ذنب فيما
عله والدي، ولماذا يورثوننا آثامهم كما نرث الدم والاسم؟

46

لم يكن له ملجأ سوى حضنها، تلك الحبيبة التي رافقته .
طويلة وكان حوارهم مقتصرًا على النظرات المسروقة من خلف
الأخرين، ها هي تهبّ للقاءه بعد أن أقلقها اتصاله المقتضب،
عليها خبير اختفاء ما كان في الصندوق، وصور تلك المخلوقات
عبث والده بحياتهم.

حبست صراخًا دوى عميقًا في داخلها، هل يُعقل هذا؟! وكيف
أن تصدق ما آلت إليه عبقرية الأدمغة البشرية التي خلقها الله لتكتسب
إعجاز صنعه، فإذا بها تعبت بما خلق، وتشوّه ما أبدع، ذلك المخار
المسمى إنسانا، وما ميّزه به من عقل ونطق!

- آه يا شافي، كم هي مُرّة معاناتك، وكم أنت قوي ومتماسك لتحمي
كل هذه الصدمات، ولتقف أمامي كما الجبال، وكيف لي أن أداء
جراحك هذه، وكيف لنا أن نحمي أنفسنا مما يخبئه لنا غدنا المقبل؟!
عَضّ شفته بحسرة، وأطلق زفرة مُرّة، أنهكت صدره قبل ولادتها.
- هذا جسدي الذي أمامك، أما روحي وقلبي فقد ماتا وطحننا هناك.
من المؤكد أن الروح قد حلت على تلك المخلوقات وإلا لما نمت.

١٠. قد فلن تنقسم تلك الخلايا وتنمو دون حلول الروح، ولكن أي
١٩٥٠.١٥. وحده من يعرف ما حلّ بتلك الأجنة الممسوخة، وهل كانت
الحياة أم أنه قد أعدمها لأنها ماتت، وربما طحنهم وهم أحياء!

١١. هسني يا مايا كيف له أن يأكل ويشرب ويستمتع بالحياة كأبي
١٢. يعيش في صومعة الله!

الثبات بإصرار:

يجب أن يُعاقب، وينال جزاءه على الأرض.

أحبابه وهو يحدق بصفحة السماء، وفي عينيه حقد يحكي قصة قلبه
١٣. دسور:

لا تقلقي، سينال جزاءه آجلاً أم عاجلاً.

وماذا ستفعل الآن؟

سأتابع البحث عن مادتين أولاً إلى أن أجدها.

صمتت قليلاً:

- أفضل أن تُبلغ الشرطة، سوف يجدونها أينما كانت ويوقرون علينا
الوقت والجهد.

- لا يا مايا، ليس الآن، لا أريد أن أخرج هذه القصة إلى العلن، ليس
بل حفل نعمة الموسيقى، فلا أحد يعلم ما ستؤول إليه الأمور، إن فُتح
هذا الملف فلن يُقبل بسهولة، دون إعلام وفضائح، لن أسمح بأن يطاله
أي أذى أو يكون والدي وقصصه سبباً في فشله، فأماله وحياته ومستقبله

معلّمة على هذا الحفل، ونجاحه أيضًا، وربما كانت مادلين هذا
آخر، ربما عادت فعلًا إلى عملها ولم يلاحظ الأمن دخولها.
سقوط البلاغ بعامل الوقت، عندها ربما سيعتقلونها من جديد.
أفضل البحث عنها بنفسى.

هزت رأسها بيأس، لا تدري ماذا تقول.

- ربما أنت محق، حسنًا جرّب وأنا سأدعمك في جميع قراراتنا.
احتضنها بشغف كغريق يعتصر حبل نجاته فسرقتهما تلك الالام
الرقيقة والأنفاس الدافئة من مرار واقعهما إلى عشق لا متناهٍ حيث
مشاعرهما كالورد البري برغم تلك الأشواك التي تطوقه.
- آه يا شافى، كم أحبك، لن أندم يومًا على حبي هذا، أنت من
ثورتى، أنت نصفي الآخر الذي أفقده.

- وأنتِ نصفي الآخر أيضًا، وأنا أعشقتكِ حدّ الجنون، وأخسرنا
أخسركِ يومًا، رغم أن شعوري بات ينبئني باقتراب هذه اللحظة.
صفتها تلك الكلمة بقسوة، أفلتت حضنه ونظرت إليه بغضب:
- لماذا تقول هذا؟ هل ستركنى وترحل مع نعمة بعد أن تنتهى
مشاركك هذه؟ أو ربما قبل انتهائها؟
عاد واحتضنها بقوة:

- مجنونة أنت، لن أتخلى عنكِ أبدًا، وإن قررنا الرحيل فستكون
معنا، لن نفترق أبدًا، لكنى خائف من انتقام القدر، هذا فقط ما يجعل
أرى الغد بوجه مشوّش مشوّه.

ارام أحمالك على الله، فلن يدينك لذنب ارتكبه أحد سواك، انظر
مهمة، لقد خرج من الصمت والإعاقة ليصنع غده، وأنت لا تقل عنه
أنا وتحديًا.

هد بعمق، استجمع الكلمات وصاغها بحذر:

سأفعل، أعدك، ربما ما أمرّ به من ظروف هو ما نصب تلك الخيمة
وداء على مروج أفكارى، سأحاول أن أرجى التفكير بذلك الغد إلى
أخر، إلى ما بعد النهاية، هذا وعد منى.

هذا أفضل، فجلد الذات ومحاسبتها على ما فعله الآخرون، لن
تسك من اجتياز هذا المستقع التشن، دعنا ننه كل خطوة على حدة،
مرك.

دقائق مرّت، حلّ فيها الصمت بينهما، وجال فكر كل منهما فيما كان
يلفّه، إلى أن طردت كلماته شبح ذلك الزائر الثقيل.

- آه، نسيت أن أخبرك شيئًا مهمًا.

- ما هو؟

- إنني أحبك كثيرًا ومن قبل أن أولد.

ابتسمت كي تخفي حزنها، وتخبره بسرّها الذي لم يعد سرًّا:

- وأنا أيضًا أحبك يا شافى، وسأبقى كذلك.

47

حزَمَ أمرُهُ ودخل الكازينو، ذلك المكان الذي قصده والده...
يقارب العشرين عامًا لبحث عن امرأة يستغلها، وهو أيضًا أتى ل...
عن نفس المرأة، لكن كي يعيد لها حقها المسلوب.

مكان غريب، معظم رواده رجال تجاوزوا العقد الرابع، را...
يبحثون بين أجساد الفتيات الشابات عن إكسير الشباب، أسأل د...
لُعاب بانعات الهوى العاملات هناك، شابٌ وسيمٌ ويبدو الثراء، م...
مظهره الأنيق، تعاقبن على مغازلته ومحاولة الإيقاع به، وبين...
الوجوه الجميلة وشاعرية الكلام المعسول، أسر تفكيره تلك الت...
«بنات الهوى»!

تخيلهن وكأنهن يحملن أكياس غزل البنات الملوّنة أمام أعين الأطفال
الجائعة، وربما أطفال حُرّم عليهم أكل السكاكر، وآخرون لم تُعد تقو...
أجسادهم على هضمه، مع هذا فهم يستمتعون بالنظر إليه، والتحسر عا...
ما كان وضاع! جلس على البار، راقبهن يتمعن علّه يراها بينهن، وعل...
تلك الأسرار تسقط مرة واحدة وتبخر دون عودة، لكن لم تُكن لأني...
واحدة أن تحمل سحر عينيها الجميلتين، قطع الساقى حبل أفكاره.

- أهلاً بك سيدي، ماذا تريد أن تشرب؟

• يعرف بماذا يجيب، من المؤكد أنهم لا يقدمون الشاي والقهوة.

أي شيء دون كحول.

• اسم الرجل وقال:

إنها زيارتك الأولى، لم أرك هنا سابقًا.

• در حسن وأسلوبه، قرّر أن يستغل الفرصة كي ينهي ما جاء من

• ويقطع شكوكه باليقين..

هذا صحيح، أنا غريبٌ عن البلد.

أهلاً بك، أرجو أن تستمتع بوقتك.

شكرًا لك، هل تعمل في هذا المقهى منذ زمن؟

أجل يا سيدي، ما يقارب العشر سنوات.

• في الحقيقة، كانت لأمي صديقة تعمل هنا منذ زمن، وطلبت مني

• أن أسأل عنها، بعد أن انقطعت أخبارها، وهي قلقةٌ عليها.

- ما اسمها؟

- مادلين حامد.

قطب جبينه مفكرًا، ردّد الاسم عدّة مرّات قبل أن يُجيب، وكأنه قد

فتح ملف كل من مرّ أمامه خلال هذه السنوات:

- لا يا سيدي لم أسمع هذا الاسم سابقًا، منذ متى كانت هنا؟

- منذُ ما يقارب العشرين عامًا.

- آه لا، قبل أن أعمل هنا بسنتين، لكنني أعرف مَنْ بي -
مساعدتك!

ارتشف شافي شرابه دفعة واحدة بفرح لا يوصف، لقد أفامه
المرّة أيضًا في إتقان الكذب والتضليل، لقد قارب أن يكون بشريًا،
مثل باقي مخلوقات الله، أخيرًا تفتت تلك الشرنقة وخرج منها
بأسراب أبناء فصيلته، عاد إلى واقعه حين أشار له الساقى إلى ماء
البوكر، مكملًا حديثه:

- أترى ذلك الرجل هناك؟ إنه يعمل هنا منذ أكثر من عشرين سنة،
اسأله، ربّما استطاع أن يُزوّدك بأيّ معلومات عنها.
- أعطني كوبًا آخر من العصير من فضلك.

راح يراقب ذلك الرجل جليس طاولة البوكر بحذر، محاولًا إبعاده
خديعة أخرى، فَمَن أمضى أعوامه في خداع الناس، بالتأكيد لن يُصدّأه
كذبه تلك.

أخذ كأسه وجلس في مكان يقارب طاولته.. ساعات مرت تبدأ
وجوه كثيرة على تلك الطاولة وشاهد ما شاهده والده أيضًا، وثارت
داخله مشاعر غريبة، مايا ونعمة بينيان مؤسسة ولا يجدان لها موهبة
وهنا، على هذه الطاولة فقط يسيل الكثير من دم الأرض، وأنهار
لبن وعسل من جيوب المقامرین، دون أن يكون للفقراء فيها نصيب.
تبًا لعدالة هذه الأرض، فكلُّ يذبح الآخر بسكينه وبطريقته، والويل لنا!

ألمن لا يملك سكينًا ولم يتعلم فن الذبح، فسيكون من المذبوحين
عاب جنان الأبدية، إن لم تكن تلك الأبدية أيضًا في أيدي هؤلاء.
في جالسًا مراقبًا، إلسى أن أنهى الرجل دوام عمله وأوشك المكان
، الإقفال، اقترب منه وحيته بلطف:
مساء الخير سيدي.

لقد أضعت الوقت مراقبًا، كيف لي أن أساعدك؟

اجل، وأعتذر لهذا، لكنني أردت التحدث إليك، ولم أشأ أن
معك، فانتظرتُ للآن، أعرف أن الوقت غير مناسب، فأنت بالتأكيد
مب.

أجاب بتبرم:

- لا عليك، فقد أصبح العمل بعد هذه السنين تطبيقًا روتينيًا كغسل
الأسنان وتناول الطعام، تفضّل.

كان لطيفًا جدًا ذا روح طيبة رغم جلوسه بين هؤلاء الأموات
أهوانًا.

- لن أظيل عليك، هل لي أن أدعوك إن لم تكن على عجلة من
أمرك؟

نظر إلى ساعته:

- حسنًا.. لدي بعض الوقت.

جلسا إلى البار، ثم بادر الرجل بالسؤال:

- لم تخبرني حتى الآن ماذا تريد؟

- لا أعرف إذا ما كانت ذاكرتك ستسعفك الآن، ما سأسألك.

علاقة بامرأة كانت تعمل هنا، اسمها مادلين حامد، هل تذكرها؟

حدَّق في الكأس التي أمامه طويلاً، ما بدا منه أن الاسم لم يعرفه.

له. حاول شافي أن يستد ذاكرته ببعض المعلومات الأخرى:

- ذات شعر طويل أسود وعينين ملونتين.

حدَّد له بلدها وقريتها وتاريخ عملها.

مرَّر إصبعه على حافة الكوب عدَّة مرات، وبعد تفكير عميق ومد.

طويل، قال:

- أجل أعتقد أنني أعرفها، لقد تذكرت ملامحها قليلاً، كان هذا.

زمن طويل جداً، ماذا تريد منها؟

- إنها زوجة أبي السابقة، التقاها هنا منذ ما يقارب العشرين عامًا،

سويًا سنوات عديدة، قبل أن تهجره وتنقطع أخبارها عنه، وللأسف تمامًا.

المرض في السنوات الأخيرة، وهو الآن على فراش الموت، ونزولاً.

رغبته التي لم أستطع رفضها وإلحاحه على وداعها قبل موته، قررت أن.

أبحث عنها مهما كلَّفني الأمر من عناء، وبعد مشقة وصلت إلى بلدتها.

والتقيت والدتها التي أكدت لي عودتها إلى عملها السابق في هذا المكان.

بدت علامات التعجب على وجهه.

اسف لسماع هذا، لكنّها لم تُعد إلى هنا، وإن حدث هذا لكنت اول
من.

هل ما زال أحد من أصدقائها القدامى يعمل هنا؟ هل تعرف أحدًا
الاممكن أن أسأله عنها؟

سحكّ الرجل محاولاً إخفاء ذلك الصخب الذي في داخله.

أنها الفتى، أنت في ملهى ليلي، وكل العاملين هنا وخاصة النساء،
مملون المكان كمحطة ينطلقون منها إلى أماكن أخرى، منهم من
وج ومنهم من تؤسس عملها الخاص ومنهم من تعود إلى وطنها الأم
سفر هناك، من الصعب أن تبحث عن جذور إحداهن هنا، إنه عالم
سدل ولا تبقى فيه إلا زجاجات الخمر وهذه الطاولات والكراسي
الارغة التي تمتلئ في اليوم الثاني بأخرين، أما أنا وأمثالي فلقد أصبحنا
مزةً من المكان ومن ديكوره وأعمدته، فليس لنا مكان آخر يستوعبنا
سواه.

خيمَ الحزنُ على وجهه المعجوز المرهق من السهر والعمل.

- آسف يا سيدي على الإزعاج الذي سببته لك، وشكرًا لسعة صدرك
ولطفك وجلوسك معي رغم تأخر الوقت، ولن أطيل عليك أكثر.
- لا عليك، فلعل منا قدره، ويجب أن يعيشه، شاء ذلك أم أبى.
- جميل هذا الكلام.

- اذهب إلى والدك وقل له أن ينسى أمرها وليعانق الذكر،
 بعض الأحيان تكون الذكرى أوفى من أصحابها أنفسهم، وآباءه، ..
 له بالشفاء، عمتّ مساءً.

لملم بأسه وما جمعه معه من هذا المكان الغريب من صور ١١٠٠،
 وخرج عائداً أدراجه، دخل غرفته وأفضل عليه بابه بالمفتاح، ففرقه
 المجاورة يقيم سفاح قاتل اسمه والده، مبدع في جرائمه و١٠١٠،
 إخفائها.

في المعهد الموسيقي، كانت الأمور تسير على ما يرام، الجميع همك في التحضيرات والتدريبات للحفل القادم، والذي باتَ قريبًا .
 أيا، أما نعمة، فكان أكثر حيوية وأشدّ تمرسًا في التعامل مع زملائه الذين يكتنون له كل الاحترام والتقدير، ويحاولون التقيد بما يمليه عليهم من معلومات ونصائح، أما أستاذهم فكان أسعدهم بهذه الأجواء الإيجابية، فما حدث مع مازن جعل الجميع يتوَحَّون الحذر حتى لمي تعاملهم مع بعضهم بعضًا، أما بين الاثنين، فكانت الأمور تسير بشكل أفضل، باتَ مازن أكثر احترامًا لتراتبية العمل، يتقيد بالمواعيد والنصائح، هذه التغيرات فاجأت نعمة، فلم يُطل النظر في عينيه ثانية، كما تعتمد أن يفعل سابقًا حتى إن التقت نظراتهما، لم يدرك سببًا لهذا، هل هو من نضج وأصبح أكثر قوة وثقة، أم أن مازن قد بات أكثر تفهمًا ومراعاة لوضعه، أم أنه يتلبس ثوب الطيبة ليخفي مصيبة جديدة؟ وبالرغم من ضبابية الموقف، إلا أنه كان فرحًا بهذا الوضع الجديد متخطيًا ذلك القلق الذي كان يعتره من سقوط تلك الحواجز بينه وبين الآخرين.

بعد دخوله مكتبه، سمع قرعًا خفيفًا على الباب، فتح مستغربًا، وأرآه وجه الزائر، وأيقظ في روحه جذور الحذر والريبة، فما تبقى من دهره معه لا يتعدى بضع مواقف موجعة.

- مازن! ماذا تريد؟

- أسمح لي بالدخول؟ أريد أن أتحدث إليك قليلًا وبسلام.

هذه الكلمة الأخيرة، لاحظها فعلاً قبل أن ينطقها.

- حسناً، ولكن ليس عندي متسع من الوقت.. أنتظر زائراً.

بادر بالكلام:

- لن آخذ من وقتك الكثير، أتيتُ لأعذر إليك يا نعمة عن كل . بدّر متي، لقد آدماني ما حصل، وبعد العقاب الذي فرضه عليّ الأساء، أدركتُ كم من الصعب على المرء أن يقبع تحت نير من يتحكم من مصيره، خاصة إن لم يكن له سبيل لإبعاد هذه المظالم عنه، عقابي ١٥ أيقظ إنسانيتي، وأعادني إلى أرض الواقع، نحنُ لن نكون أكبر وأكثر مما قدّر لنا أن نكون، إلا بمجهودنا، تلك الساعات من العمل الإضافي لم يغيب فيها طيفك عن مخيلتي، وأنت من يتلقّى ويحارب كل ما فرض عليه، ولم يكن يوماً خيارك، باختصار لقد غيرت حياتي يا نعمة، فهل لك أن تسامحني أرجوك؟

التمسّ نعمة صدق نواياه، فالندم كان جلياً في صوته وظاهراً في انفعالاته، وكان مازن القديم قد تبخر دون عودة. تضاربت المشاعر داخله، ولم يعرف بماذا يجيب.

استُ حاقدا عليك، أنا خائفٌ منك، أن تتعمد أذيتي من جديد.
رأسه خجلاً، محاولاً البحث لنفسه عن مخرج من هذا الموقف
.

لا الومك على شعورك هذا، فأنا أيضًا كنتُ أخافُ من نفسي في
من الأوقات، من فرط غيرتي منك، تمنيت أن أقتلك بيدي لأكون
أحد في هذا العالم، تمنيت أن تسقط على المسرح أو أن تصاب بنوبة
منية تحثك على الرحيل، لتختفي بعدها إلى الأبد، وسأعترف لك بما
م أجرؤ على إخبار الشرطة به، أنا من طلب من الفراش أن يقفل باب
الاستوديو وكنت أعرف أنك في الداخل، ولكن لم أكن أعرف أن تلك
الابواب ستنتقل، لقد حدث هذا بالصدفة، لكنني كنت سعيدًا بذلك،
منذما أوقفتك عند الباب كنت أتمنى أن تعبر الشارع وتنتهي حياتك
من إطارات السيارات.

تقرزت عيننا نعمة وهو يستمع إليه، كان يشعر بهذا، أما الآن فباتت
طوبه واقعا.

أرجوك سامحني، وسأغفر لك إن أبلغت الشرطة، والأستاذ، وجميع
العاملين هنا، يُمكنك طردي من الفرقة والمعهد إن أردت ذلك، فأنا
استحق عقابك مهما كان، لكنني مع ذلك طامع في طبيبتك، أريد أن
انحصر معك للحفلة القادمة بروح حلوة جميلة دون أحقاد، لا أخفي
عليك أنني ما زلت أشعر بالغيرة، فأنت أفضل من الكثيرين هنا، لكنني
سأخطئُ هذا بمساعدتك، أرجوك يا نعمة ساعدني، فتلك المشاعر
تقتلني.

بعد هذا الاعتراف، شعر أن الجيل الذي بينهما قد انهار أخيرًا،
له قائلًا:

- لا عليك يا مازن، كنتُ أعلم ذلك، ستعمل معنا وستقيم
رائعًا لن يُنسى، لقد أسست مايا جمعية للتوحد، وأنا سأعمل
بإمكانك أن تدرّس الموسيقى هناك إن أردت، فهذا سيساعدك
تخطي مشاعرك وسيبرز نجمك في المجتمع.

فوجئ بهذا العرض، وهذه الثقة التي منحها إياه بسرعة،
يعاتبه على ما فعل.

- هل أنت جاد؟ طبعًا هذا يسعدني، لكن هل ستقبل مايا
العرض؟

- لا عليك، سأقنعها.

قال بسرور:

- إذن أنا معكم منذ الآن، حقًا لا أعرف كيف أشكرك يا نعمة،
فعلًا إنسانٌ رائع وفنانٌ مميّز، وأعدك أن أكون عند حسن ظنك.

قطع كلامهما صوت طرق خفيف على الباب، فصاح قلبه قبل لسانه
- آه، إنه شافي.

فوجئ مازن بالاسم، لقد سمعه سابقًا، إنه صديق مازن
فتح له الباب وارتقى بين ذراعيه، عندما رأى مازن الشبه الذي بينهما،
أن يغمي عليه، وكان نعمة قد انقسم إلى اثنين، وراح يعانق نفسه، بعد
شاهد ذهوله، قدّمه له كاسرًا وقع المفاجأة:

لا نخف يا مازن، هذا شافي صديقي، شافي هذا مازن، أتى ليعتذر
بما فات، ولقد بدأنا صفحة جديدة.

إنك مازن كثيرًا بعد مصافحته له، تأكد أنه ليس خيالًا، فتلعثم ولم
تف ماذا يقول.

الحقيقة، أريد أن أعتذر عن موضوع آخر يا نعمة لو سمحت، لقد
كنت أن مايا اختلقت قصة شبهك لصديقها، لتعرف إليك، لكن الآن
لهم جيدًا رد فعلها، أنا آسف حقًا، ويجب أن أعتذر لها أيضًا وشخصيًا.

لا عليك سأوصل لها اعتذارك، والآن آسف، سوف نغادر.

حسنًا، اسمحوا لي، سأدعكما وأعود إلى عملي.

باتت مخاوف شافي بادية على ملامحه، فتقرَّب مازن المفاجئ من
نعمة زرع الشك في نفسه.

- لقد قلقت كثيرًا عندما قدمتي له، ظننت أنه يحاول إزعاجك.

- لا، لقد أتى ليعتذر، البعض يولدون أشرارًا والبعض يلبسون ثوب
الشر ردًا ليلتحموا به من قسوة الحياة، البعض يطيب لهم فيعتقونه،
وآخرون يجدونه فضفاضًا ومزعجًا ويفضلون العري عليه.

إنه محق وكلماته تلك خيمت سلامًا وفرحًا على جلستهما، ذلك
السلام والفرح، واحته التي يتوق إليها.

فنعمة طمأنينة روحه وما من به الله عليه ليعيده إلى واقعه الإنساني
قبل أن تجرفه مشاريع والده التي كانت ستحوّله إلى إنسان ممسوخ دون
جذور أو انتماء.

تلك اللحظات السعيدة برفقة نعمة، لم تكن لتغيّر مرارة الواقع الذي يعيشه أو تلغي ذلك المستنقع التّن الذي يتخبط في وحوله، محاربه إيجاد مخرج من دوامته المظلمة التي تاه فيها مجبرًا، سارًا على الرمال المحاذي للشاطئ، قطع أميالًا طويلة مفكرًا متأملًا صامتًا مسرعًا إلى صوت البحر وعزف أمواجه، لقد سُدَّت في وجهه جميع الأبواب ولا يعرف أين سيجدها، وكان مادلين تلك طيف من أثير، لم يبق أمامه سوى حل واحد، أن يبلغ الشرطة عن اختفائها، وحين يجدونها ستكف أدلة اتهامه حقائق ملموسة وليس مجرد ظنون، لكن ما كان يردعه عام قدرته على المواجهة، فلم يزل أضعف من أن يقف أمام والده كقاتل ليخبره بما كُشِفَ أمامه من أوراق وليسمع منه حقيقة ما جرى، أيقظه الفكرة من شروده، أخذ هاتفه واتصل بها، لقد تأخرت على الموعد دور أن تخابره، بات القلق رقيقه الذي يؤرقه ويجعله يرتاب في كل ما يدور حوله حتى من نفسه.

- أين أنتِ مايا؟

- آسفة حقًا، لقد أوصلتُ نعمة إلى المركز، دقائق قليلة وسأكون

معك.

لا بأس أنا في انتظارك.

١٠. هذا الإحساس الذي اسمه الحب؟ ولماذا سمي هكذا؟ هل لأن
١١. وب تحبو كما الأطفال إلى الحبيب؟ تساؤلات كثيرة تداعب روحه
١٢. الريح والأشجار، فطباع البشر وميولهم لم تكن سهلة الفهم بالنسبة
١٣. كان يشعر أحياناً بأنه متوحد كما نعمة وبأن هناك جزءاً منه مرتبطاً
١٤. الملك الآخر الذي عاد إليه من الغيب. دخل صوتها عالمه وهي تناديه،
١٥. إياه إلى الأرض، وأعاد البسمة إلى روحه الحائرة.

- أنا آسفة، لقد سابقت الزمن لأحافظ على مواعدي، لكن زحمة
المدينة تأمرت عليّ.

- لا عليك، فلقد أتيت باكراً، رافقتك والصمت وأفكاري بتزفة
طويلة، كانت مملة بعض الشيء قبل وصولك رغم وجودك معي.

أفرحتها كلماته ولكن حزنه أقلقها، فسألته مستفسرة:

- أخبرني ماذا حدث معك هناك، أستطيع أن أقرأ على وجهك بعض
خيبات الأمل.

أحنى رأسه وزفر بعمق قبل أن يؤكد ظنونها:

- إنك لقارئة جيدة، أنا فعلاً محبط.

- لماذا؟

- لا يعرفون شيئاً عنها منذ رحيلها، أكد لي أحد موظفي الملهي أن
أحدًا لم يرسل لدعوتها.

- لقد عادت الكرة إلى ملعب والدك.

- تقرّبنا، لا أستطيع أن أجزم.

- وماذا الآن؟

- سأبلغ الشرطة، لكن بعد حفل نعمة، سأحضّر بلاغي بالبحث ..

مؤقتاً.

- فكرة جيّدة، سترفع عن كاهلك بعض المسؤوليات، والأفضل ..

تتحرك بأسرع ما يمكن، فليس لحفل نعمة شأنٌ بموضوع البحث ..

مادلين.

صمّمت قليلاً ثم أكملت حديثها من جديد وبصرامة:

- يا شافي يجب أن تستفيد من الوقت، لا أحد يعرف ماذا يحدث.

الآن وأين هي، ربّما مصيرها معلق على دقيقة واحدة!

أطرق برأسه خجلاً، لقد قرأت خبايا ذاته كالعادة، كان يعرف أن

الأمل في إيجادها في الملهى الليلي ضئيل، ومع ذلك فضل الذهاب.

هرباً من مواجهة الحقيقة وإبلاغ الشرطة، كسباً للوقت وإبعاداً لكأس

الواقع المر الذي ينتظره، ويقترب من شفّيته يوماً بعد يوم، لقد بات على

باب الممر الأخير، وجهاً لوجه مع نفسه وجسده المرتعش، ولن يكون

هناك مفر من الدخول.

- ما تقولينه صحيح، أنا أخلق الأعذار خوفاً من المواجهة، ولكن

أتحدّد لو كنت مكاني ولا تتناكب خشيتي، أولاً لأنه والدي، ثانياً لأنه

١٠ مشاعري الآن منقسمة ومتصارعة، أنا لا أتخاذل لكني أؤجل موعد
١١ همار الأخير، أشعر أن الموت ينتظرني فاتحاً ذراعيه مرحباً، أحاول
١٢ أن أكسب بعض الوقت والقوة، لا أريد أن أترك في داخلي أي مكان
١٣ للندم.

أشاح بنظره إلى البعيد محاولاً جمع شتاته وقد لاحت في عينيه
١٤ مس أشباح الدموع، شعرت بالخجل مما قالته فأمسكت يده، ثم بادرت
١٥ الاعتذار لكسر الصمت المؤلم الذي خيم عليهما:

١٦ - آسفة حقاً، من شدة انفعالي وحنفي على ما فعله بكم، أنسى أحياناً
١٧ أن يكون، وتجديني أترك العنان لمخيلتي لأحلم بتصحيح العالم وتطهيره
١٨ من كل شروره.

١٩ - أنا معك يا مايا، ولكني خائف، أجل سأقولها للمرة الأولى، أنا
٢٠ خائف، أشعر أن هناك فاجعة كبرى قادمة، هناك يدان تمتدان إلى عنقي
٢١ لتختنقاني، حلم يراودني منذ زمن، ولم أستطع يوماً أن أتبين فيه صاحب
٢٢ هاتين اليدين، وها أنا أحس الآن أن هاتين اليدين باتتا قريبتين، وملامح
٢٣ صاحبها أصبحت أكثر وضوحاً.

٢٤ أروعها ما سمعت وأدخل الريبة إلى قلبها، تقاطعت أنفاسها وهي
٢٥ تراقب عينيه الدامعتين، هل ستخسره؟ ماذا لو كان كلامه صحيحاً؟ لاح
٢٦ على وجهها الشفاف ما جال في داخلها، أسندت جسدها على سور
٢٧ الرصيف تبحث عن بعض الاتزان، ألقفته حالها فقال لها مطمئناً:

- لا تخافي، إنها مجرد هواجس سببها هذه الضغوط التي أم ..
سوف ينتهي كل شيء على خير قريباً.
- إذن فلنُخَيِّرِ الشرطة، ظهور مادلين سيريكك كثيرًا،
قصة مواجهة والدك فلا تخشاهما، نحن معك ولن تكون و ..
- سأحاول أن أبعد الشرطة عنه، لا أريد منه سوى الاعتراف بنعمة وإ ..
حقّ مادلين بطفلها ميتًا كان أم حيًا.
- أفضل أن تُبلِّغهم بكل المعلومات التي لديك وتترك أمر ..
لهم، أنت بحاجة أيضًا إلى حمايتهم، إنه قاتل ولن يتورّع عن أذنبك ..
ما هددتّ عالمه الغامض، أرجوك، سأذهب معك، ولا تقلق بخصوص ..
نعمة وحفلته، كلّ شيء باتّ جاهزًا، وسنراقب كل التطورات ونتد ..
عند اللزوم لتتخطى هذه المحنة معًا.
- أجابها بعد تفكير:
- حسنًا، سأذهب غدًا، لكن وحدي، لن تذهبي معي.
- لماذا؟
- أريدك أن تبقي بعيدة عن الخطر، لن أستطيع أن أحتمل قلقًا آخر ..
فأنت ملاكي الحارس ومن أستند إليه.
- حسنًا إن كان هذا سيريكك، أنا مستعدة لأي قرار ستخذه.
- أبعد خصل شعرها المتطايرة عن وجهها، تأملها وهو يتسم قائلًا:

أنت فرحة حياتي، يكفي أنك قد تحملتِ معي مسؤولية نعمة
أمدته أكثر من مرة إلى الحياة، لن أنسى هذا ما حييت، بتُّ أشعر حتى
إن داهمني الموت، أني سأرحل مرتاحًا؛ لأن أخي ونصفي الآخر
خون بمأمن بين يديك أنت وملاك والدك الرائع الطيب.

حضنته وأغرقت نفسها بين ضلوعه:

أرجوك لا تقل هذا الكلام، سيتهي الموضوع وسنحتفل بنهايته
السعيدة، ستترك عالم الأبحاث ونعمل معًا في جمعيتنا.

أعاد ما سمع الأمل إلى روحه. راح يتحسّس وجنتيها وشفتيها مقبلًا،
بأملًا عينيها اللتين أعادتنا البسمة إلى وجهه الحزين.

- حبيبتي أنتِ يا مايا، يكفي أنكِ معي، لأقوى على ضعفي ومخاوفي،
لأحارب من أجلك وأجل تلك العائلة التي سنبنيتها معًا بمحبة، متناسين
ما نمزّ به اليوم من ألم وقلق.

غرقت بين أحضانه متمنية أن يصبح ما قاله واقعًا، كي يعلننا حبهما
على الجميع.

50

- دون تردد، دخل إلى مركز الشرطة، حاملاً ملفه، بكل ما يحتويه .
أوراق، وبكل ثقة، توجه إلى الشرطي الواقف هناك بالسؤال:
- صباح الخير سيدي، أريد أن أقدم مراجعة حول بلاغ سرقة .
عليه أعوام.
- تفضل، غرفة الضابط في آخر الممر على الجهة اليسرى.
- شكرًا لك.
- شدَّ عزيمته، طرَقَ البابَ ودخلَ بعد أن أُذِنَ له بذلك.
- صباح الخير سيدي.
- رَمَقَهُ الجالسُ هناك بنظرة متفحّصة وحيّاهُ باحترام بعد أن لا-ما
أسلوب تصرّفه وملابسه الأنيقة الفاخرة:
- صباح الخير، تفضل بالجلوس، كيف لي أن أخدمك؟
- إنها قضية قديمة بعض الشيء يا سيدي، أريد أن أستشيرك بشأنها
ربما تمكتم من مساعدتي.
- تفضل.

اطلق شافي بالحديث بعد أن عرّف نفسه:

منذ عشرين عامًا تقريبًا عملت في منزلنا سيّدة أجنبية، وقيل
مبها سرّقت بعض المقتنيات الثمينة، ولم يُدرك والذي هذا الأمر إلا
١٥. سفرها، قدّم بحقها في ذلك الحين محضر سرقة، وعمّمت أوصافها
اسمها على كل المعابر الحدودية.

· آسف لهذا، وكيف لي أن أخدمك الآن؟

- أريد أن أتأكد إن كانت قد دخلت البلد من جديد.

- لا أعتقد، لو فعلت لألقينا القبض عليها وأبلغنا والدك.

- أجل يا سيدي، لكن أعتقد أن الدعوى قد سقطت بعد مرور هذه
الفترة الزمنية، وبات باستطاعتها الدخول دون أن يتعرّض أحد لها.

سأله مستفسرًا:

- هل أوراق البلاغ السابق معك؟

- أجل يا سيدي، تفضّل.

فتح المحقق الملف، تفحصه جيدًا، ثم كتب اسمها على حاسوبه، لم
تظهر أمامه أي معلومات.

- لا أعتقد أن الأمن قد سجّل دخولها من جديد.

- لقد عرفت من أحد أقاربها أنها قد عادت، هل بإمكانك أن أتأكد من
هذا؟ هناك أوراق عقارية مفقودة، وأنا بحاجة ماسّة إليها، ربّما استطعت
أن أستعيدها منها.

تفحص الملف بإمعان من جديد، رفع حاجيه متعجبًا:

- يبدو أنها محترفة، سرقة بألاف الدولارات منذ عشرين عامًا، ١٠،
أنها الآن من الأثرياء.

أقفل الملف ووضعهُ جانبًا ثم أكمل كلامه:

- لا تقلق يا دكتور شافي، سنصل إليها، لكن عليك أن تفتح الدعوى،
من جديد لتتمكن من البدء بالإجراءات.

- ألا أستطيع الوصول إليها دون تحريك الدعوى؟ لا أريد،
أسبب لها الأذى، إنها من ربّاني بعد وفاة والدتي، كل ما أريده هو نانا،
الأوراق.

قاطعهُ بحزم:

- هل تريد أن تصل إليها وتستعيد حقتك أم لا؟

- بالتأكيد أريد ذلك، لكن أريد أن أتواصل معها شخصيًا دون أن
أسبب لها أي مشاكل.

- إذن افتح الدعوى ودعنا نقوم بعملنا ونوصلك إليها.

- لي رجاءٌ خاص إن سمحتَ وأمل أن تفهمني.

- تفضل.

- أرجو منكم أن تبقىوا تواصلكم معي، فوالدي مريض، ولا أريده أن
يعرف بما يجري بيننا الآن، وضعه الصحي لن يحتمل أي أزمات جديدة،

«المرأة قد سرقت مجوهرات أُمِّي وذكرياته معها. كما أتمنى الحفاظ
على سرية هذا البحث، حفاظًا على شُعبة العائلة، أرجوك.»

«إن كلامه مقتنعًا بعد أن وضع قناع الحزن والأسى فوق مخاوفه، ربما
لك القناع ليس جديدًا عليه، فالحزن شريكه ورفيق روحه منذ أن كان
«ملا»، ذلك الشجن لم يكن مصطنعًا إطلاقًا، بدا على ملامح المحقق
أنه، طبعا فوالده كما تظهر الأوراق من أثرياء المدينة، ومن الأسماء
معروفة في المجتمع العلمي.»

- لا تقلق يا دكتور، سأحصر عملي معك، أما بخصوص سرية
المعلومات، فلك ما تريد، فنحن في خدمتكم، وأتمنى الشفاء العاجل
للوالد.»

انفرتْ أساريُّ شافي وتبدلت مشاعر الخوف إلى فرحٍ وطمأنينة،
حاول جاهدًا أن يتركها سجيبة فواده:

- شكرًا جزيلًا يا سيدي على لطفك ومساعدتك، وهذه بطاقة
التعريف الشخصية، عليها رقمٌ هاتفي وبريدي الإلكتروني، يمكنكم
التواصل معي متى شئتم وفي أي وقت.

- إنه واجبنا وليس هناك داعٍ للشكر، سأستخرج بعض الأوراق
وأرجو أن توقّع عليها قبل أن تغادر، وإن شاء الله سيعود الحق إلى
أصحابه ولو طال الزمن.

- لا شك في نزاهتكم وحرصكم على الأمن والأمان يا سيدي.

- ملف العمالة الأجنبية معقد بعض الشيء وللأسف ندمنا بعض الحوادث المشابهة، فهم يعرفون كيف يستغلون من يساهمون ويديرون أيضاً ثغرات القانون، والبعض منهم تحركهم مافيا السرقة والاتجار بالبشر.

- أجل، إنها مشكلة عالمية وليست حكراً على مجتمعنا وبلادنا - وقّع على الأوراق المطلوبة، ثم سار مع المسؤول الذي يرافقه إلى الباب.

على الرصيف المجاور وقف حائزاً لا يعرف ماذا سيفعل، إذن ا عليه سوى الانتظار، بضعة أيام كما وعده المحقق وسيصلون به لبعده. بما وصل إليه التحقيق، هاتف مايا وأخبرها بما حصل، ثم عادته مسرعاً إلى مختبره وأبحاثه، كي لا يشير المزيد من الشكوك حول تأخره في إنجازها، ذلك المشروع الذي وعد أن يسلمه إياه خلال أيام لا سيما أن إقامته في المنزل في الآونة الأخيرة باتت تقتصر على النوم، وعند سؤاله عن سبب تغيبه، كان يختلق في كل مرة ذريعة جديدة، لم تكن لتتطلي على ذلك العالم الذي تحدى قدرة الله فكيف له أن يخدعه.

لقد لاحظ ارتياحه من تصرفاته تلك، فكل ما فيه قد تغير، شخصاً. أسلوب حياته، مناقشته لأوامره التي كان ينفذها دون اعتراض، لقد كان مايا محقة، عليه أن يتحرك بسرعة ليخرج نفسه من هذه الدوامة، قبل أن يكشف أمر أكاذيبه تلك.

51

انتهت تحضيرات المركز، عمت الفرحة قلوبهم، وعلت وجوههم، المكان جميل جدًا. إنه حلم مايا الذي تحقق أخيرًا، لم تصدق عينيها عندما فتحت الباب ودخلت مع شافي ونعمة وملاك، ألوان المقاعد، الستائر، الغرف الجانبية، صفوف النشاطات حيث ستحول حياة الكثير من الظل إلى النور، حضنت نعمة مباركة بفرح:

- آه، وأخيرًا ها قد وضعنا حجر الأساس الأول في صرح حياة الإنسان وخدمته.

- ما كان هذا الحلم ليصبح واقعًا دونك أنت يا مايا.

علت الضحكة وجه شافي معلنة سعادته لإنجازاتهم تلك، رغم حالة الانتظار التي يعيشها والتي تدمر أعصابه.

بعد أن جالوا في المكان واطمأنوا أنه قد بات جاهزًا تمامًا لبدء العمل، انتقلوا إلى قاعة المؤتمرات حيث سيقام الحفل الموسيقي، ليطمئنوا على تجهيز بعض التفاصيل المهمة. على المسرح الخشبي خلف تلك الستارة المفتوحة وأمام عشرات المقاعد الفارغة، وقفوا متأملين، هناك رهبة غريبة فعلاً، فكيف الحال إذا شغل كل مقعد روح

بشرية؟ روح بكيان مختلف تبحث فيما ترى وتسمع عما تريد...
ينقصها وما تنتظر من متعة، وبرغم اختلافهم فمكان واحد سيجمعهم.
ومتعة واحدة ستبهجهم.

في ظل انشغاله بتجهيز المكان وضبط مقاعد العازفين، راح شاعر
يراقبه باستغراب، ثم ربت كتفه محدثاً:

- كم أنا فخورٌ بك أيها الموسيقار، أنتَ الآن أقوانا يا نعمة، ها،
يكون بإمكانني، حتى في مخيلتي، أن أقف هنا مثلك وأحتضن الر
والعب عليها أنغامي، إن نجاح المركز الجديد يعتمد على نجاحنا
اليوم، مستقبلنا جميعاً بين يديك، ثقتنا بك كبيرة جداً، وأنتَ أهل لها،
الثقة وهذه المسؤولية.

ابتسم بصمت ولم يجد ما يقوله، فبادرت مايا بالكلام:

- والمقبل أهم وأعظم، بعد أيام سيقف هنا من جديد وسيخاطب
كل الجالسين أمامه على هذه المقاعد، سيوصل رسالته إلى الجميع
وسيحارب من أجل نفسه ومن أجلهم، أه كم أنا متشوقة لتلك
اللحظات.

ارتبكت ملامحه، وأحسَّ بخطورة الموقف وحجم المسؤولية،
استدرك شافي الأمر بسرعة ضاحكاً:

- لا تقلقي يا مايا، فهذا الشاب الذي أمامك عملاق متخفٌ في
زي إنسان، أرجو أن تكوني أنتَ على قدر المسؤولية التي وضعتِ
نفسك فيها.

انسمت وهي تتفحصه بنظرات يملؤها اللوم والعتاب، فتدخل نعمة
• ا ذلك الحوار المتوتر الساخر:

اعدكم أن أكون عملاً قاً إن وعدتموني أن تبقوا قربي، هكذا تكتمل
• هادلة.

- لا يا نعمة، نحن لا نقطع الوعود المفروغ من أمرها، ما تطلبه أمر
• ، عليك أن تطلب منا أشياء أكبر، لتضعنا في مواجهة دائمة أمام أنفسنا
• امامك.

بعد تفكير، قال راجياً:

- إذن، ساعدوني لأجد عائلتي، يجب أن يفرحوا بنجاحي إن كانوا
• احياء.

سقط الكلام عليهم كالحمم، أجل إنه يفتقدهم، يفتقد أخاه الذي
• يف أمامه وعائلته التي لا يعرف اسمها.

نظرت مايا إلى شافي، قرأت ما يدور في خاطره، أراد أن يخبره بما
• يعرف، أراد أن يناديه يا أخي ويرتمي بين أحضانه كأخ وليس كصديق،
• تسمرت عيناها في عينيه، رفعت حاجبيها، ثم أومأت برأسها راجية إياه
• أن يلزم الصمت.

«يا إلهي! يا شافي لا تُجهز عليه قبل الحفلة، أرجوك».

فهم ما أرادت قوله ولكن شوقه لنعمة كان أكبر من حرصه على مستقبله،
• أراد أن يترك العنان لروحه المتعطشة إلى بعضه الآخر دون قيود.

كانت عيننا نعمة تراقبان المشهد باستغراب، فللصمت رهبة عام، المسرح، حيث لعبت آلاف القصص والمسرحيات ولكنه لم يشها مثل هذه الدراما الواقعية، فكل الاحتمالات مفتوحة بين ثلاثة كل يحب الآخر بكل جوارحه ويطريقته، لكن من سيتنصر؟ لمن س الأولى في لعب الدور الأخير قبل أن يسدل الستار، ويرحل الجوه، ويبقى الممثلون بين دموعهم وآلامهم، في حنايا هذا الصمت؟

يتدخل الهاتف ليقطع برنينه تلك الحلقة المفرغة. نظرت امر باستغراب إلى الرقم، إنه المحقق، تفرّس في ملامح مايا قبل أن بر كمن ينتظر خبر إعدامه.

- من هذا يا شافي؟

- سأخبرك لاحقًا.

انسحب إلى ركن بعيد، كي يبعد انفعالاته وما يحمله الاتصال، فضولهم.

- أهلاً سيدي المحقق.

- آه دكتور سالم، آسف لإزعاجك هل بإمكاننا أن نتحدث قليلاً؟

- بالتأكيد، تفضل، ليس هناك أي إزعاج.

- سيدي لقد اكتشفنا أن تلك السيدة قد دخلت فعلاً البلد في نفس

التاريخ الذي أعطيتنا إياه، لقد كانت معلوماتك صحيحة.

قال بلهفة:

ممتاز وهل وجدتموها؟

أجابه بهدوء أحبطه قبل أن يكمل:

- للأسف لم نعثر لها على أثر.

أدخل الخبر الخوف إلى قلبه من جديد، فسأله مستفسراً:

- هل يُعقل أن تكون قد عادت إلى بلادها من جديد؟

- لا، لم يُسجَل اسمها على أي من المعابر الحدودية منذ ذلك التاريخ، لقد أجرينا اتصالاتنا أيضاً ببعض الدول المجاورة، لكن لم بهلنا منهم أي بلاغ حتى الآن.

- هذا غريب، أين من الممكن أن تكون؟ هل اختُطفت مثلاً؟

- لاندري، ربّما، بكل الأحوال ما زال البحث جارياً، ولن نستطيع التحرك على أساس هذه الفرضية قبل مرور فترة زمنية على اختفائها وانتهاء البحث، دون أدلة ملموسة سيكون التحرك غاية بالصعوبة، في جميع الأحوال، سوف نقوم بتفريغ كاميرات المراقبة التي في المطار وسنبذلُك حال حصولنا على أي معلومة جديدة.

بهدوء أخفى وراءه الكثير من الخوف والريبة، عقّب على كلام المحقق:
- أتمنى أن تصلوا إلى أي نتيجة قريباً، فصديقي الذي أخبرني بقدموها أبلغني أيضاً أن أمها مريضة، وهي قلقة جداً عليها، فلم تتصل بها منذ يوم سفرها.

- يا سيدي، إننا نبذل أقصى جهودنا، وإن لم نصل إلى أي نتيجة،
سأسافر إلى عائلتها ونكمل التحقيق من هناك، ربما تركت بين أغرامها
أي دليل يرشدنا إلى مكانها.

- ممتاز، وأنا جاهز لأي مساعدة ومستعدّ للسفر معكم.

- حسناً، سنبقى على اتصال، إلى اللقاء.

انتهت المكالمة وغاب هو في أعماق محيطه، محاولاً التقاط أنفاسه
قبل أن يقبض الموت على قلبه، وقبل أن يلتهمه شيطان الجحيم الذي
يحاصره.

لاحظت مايا ذهوله، فتركت نعمة منهمكا في عمله، وذهبت إليه، لم
يشعر بقدموها إلى أن أيقظته يدها التي ربتت كتفه بهدوء.

- ما بك يا شافي؟

نظر إليها وقد هرب لون الحياة من ملامحه، فسألته مستفسرة
والخوف يملأ قلبها:

- ماذا هناك؟ أي مصيبة حلت؟ قل لي أرجوك.

- لقد أبلغتني الشرطة أن مادلين قد دخلت البلد فعلاً، لكنهم لم
يجدوا لها أي أثر!

- ماذا، أين هي إذن؟

- أنا خائف، خائف جداً أن يكون ما أفكر به صحيح.

- أتعقد أن والدك قد اختطفها؟

- أتمنى أن تكون مختطفة، آه يا مايا أريد أن أخرج من هنا، ساموت،
أوصلي نعمة إلى البيت، ووافيني إلى المقهى، سأنتظر هناك، لا أستطيع
أن أنظر إلى وجهه؛ لأنني إن فعلت فسأبوح له بالحقيقة، ولا أريد أن أفعل
هذا الآن.

- حسناً، اذهب أنت وسأهتم به، لكن اعتنِ بنفسك إلى أن أصل
أرجوك، وسوف نجد معاً حلاً لهذه المشكلة.

- أتمنى هذا، لا تتأخري عليّ أرجوك.

لم يكن إقناع والده بالذهاب إلى الحفل أمراً صعباً، فهو جد متحمس.
 للقاء مايا التي أحس أنها قد استحوذت على فكر ابنه وقلبه، وأنها وراء
 هذه التغيرات التي طرأت عليه.

- هيا يا أبي، يجب ألا تتأخر على الموعد، فمايا ستكون بانتظارها
 لا سيما أنت، فهي تتوق مثلك إلى هذا اللقاء.

وقف أمامه مستعداً بكامل أناقته، فتأمل به بصمت، شاب وسيم، جميل
 الملامح وكأنه قد خرج من أحد عروض الموضة، أو من على أغلفة
 إحدى المجلات.

بلع ريقه بصعوبة وتجمعت الدموع في عينيه القاسيتين:

- لقد أصبحت رجلاً بكل معنى الكلمة يا شافي، كم كنت أتمنى أن
 تراك أتمك الآن وأن تكون معنا.

أعادت كلماته تلك الحزن الذي يقاومه إلى روحه، لكنه تجنب
 الغوص في انفعالاته:

- رحمها الله يا أبي، إن روحها لم تفارقني يوماً، هيا فلقد تأخرنا.

سار أمامه منهيًا الحوار وما يرافقه من مشاعر كاذبة، فكيف له بعد هذا
الحب والافتقاد أن يرمي طفلها في مركز الرعاية دون اسم يحمله؟
- هيا يا أبي، ستكون أمسية رائعة لن تنساها ما حيت.

وصلا إلى هناك حيث كانت مايا بكامل أناعتها وأنوثتها في استقبالهما
ممد مدخل كبار الزوار، لم يُخفِ والدهُ إعجابه بها، أما هي فقد سيطرت
على حقدتها وخوفها منه، بتلك الابتسامة الرقيقة والنظرات العطوف
التي زينت مجياها.

- مايا، هذا والدي، البروفيسور كميل سالم، لطالما رغبت في
التعرف إليه.

- أهلاً بك سيدي، سررتُ كثيرًا بمعرفتك شخصيًا، سمعتُ عنك
وعن أبحاثك الكثير، وكما قال شافي فلقد تمتيتُ هذا اللقاء كثيرًا.
قال بفخر مخفيا غطرسته وغروره خلف ابتسامته الباردة:

- آه، شكرًا لك، وأنا أيضًا سعيد بمعرفتك، خصوصًا عندما عرفت
أنك قد درست نفس اختصاصنا، فربما ستعاون معًا في المستقبل على
تغيير وجه التاريخ، أنا أو من المواهب الشابة، وطبعًا سأكون قائدكما
وأستاذكما.

- شرف لي أن أتلمذ على يديك كشافي.

شعر بارتباك مايا، فنظر إلى الساعة ثم قطع حوارهما بأدب:

- هيا يا أبي لندخل، ونأخذ أماكننا، قبل بداية الحفل.

سارت معهما إلى أن وصلا، أجلستهما في الصف الثاني في و. ■
المسرح وذهبت.

أثار هذا دهشة والده، فاستفسر سائلاً:

- لماذا لم تجلس في الصف الأمامي؟

ابتسم بمكبر مبطن بالدماثة:

- يا والدي اليوم سيكون هناك الكثير من الزوار المهتمين، لن نكم،
نحن فقط نجوم هذه الأمسية.

هز رأسه غير مبالي بما سمع وراح يُراقب الحضور وهم يدخلون.
المكان.

بدأت الصالة شيئاً فشيئاً تعج بالحضور، وشُغلت كل المقاعد أمامهما
وخلفهما عن يمينهما ويسارهما، لكن لم يكن كل هؤلاء من كبار الزوار
بل كانوا مرضى مَن يحملون سمات التوحد، والذين جاؤوا مع أولياء.
أمورهم. ارتعدت مفاصل الوالد من المشهد، وسأل شافي بقلق، وهو
يلتفت حوله:

- مَن هؤلاء؟ لماذا هم هنا؟ مَن الذي دعاهم؟

- ما بك يا أبي، هل أنت بخير؟ لقد أتوا بناء على دعوة والد مايا،
فربح هذا الحفل مقدّم لجمعية أسستها ابنته للعناية بهم، والمايسترو
الذي سيقدّم هذا الحفل شاب متوحد أيضاً.

أدرك البروفيسور سالم أنه محاصر، ولا مناص من مواجهة هذا الواقع، أرخى ربطة عنقه كي لا تعيق أنفاسه المتسارعة.

- ما بك يا أبي؟

- لا أدري لم شعرتُ بالتوعك فجأة، أفضل الذهاب إلى المنزل، سأحضر الحفل القادم، أعدك.

- ماذا؟ للأسف هذا غير ممكن الآن، استمع إلى المعزوفة الأولى على الأقل، إكراما لمايا ووالدها.

قطع حوارهما صوتُ المايسترو من أمام الستار، وهو يرحب بالحضور، معلناً بداية الحفل. حاول الاسترخاء في مكانه، بعد أن أدرك أنه لا مفر من البقاء.

- سيداتي سادتي، اسمحوا لي أن أقدم لكم فقرتنا الأولى قبل أن ننطلق في رحلتنا الموسيقية، سأترك المسرح لشباب مكافح عرف كيف ينتصر على كل ما أعاقه في مسيرته، ليس فقط ليبي نفسه، لكن ليأخذ أيضاً بأيديكم إلى القمة، حيث المكان الذي تستحقونه، ورحبوا معي بالموسيقى المبدع نعمة.

فُتِحَ الستار، انطفأت الأنوار و سُلِّطَ ضوءٌ أبيض على وسط المسرح، دخلَ نعمة مع آلتِه الموسيقية، انحنى وأستأذنه لبعضهما، ثم سويًا للجُمهور الذي وقفَ مصفِّقًا دون توقُّف، بعد ذلك دخلت مايا وملاك، ووقفنا إلى جانبه، عزفت مايا بالجمعية وأعلنت انطلاقها، بعدها أعطت الكلام لنعمة ليُعرِّفهم بنفسه.

راح شافي يراقب بطرف عينه والده الذي كاد أن يدركه الموت ،
 بات شهيقه وزفيره مسموعًا كَمَن يلفظ أنفاسه الأخيرة، تراخى .. ،
 على الكرسي وكان الشلل قد عبث بمفاصله وهو يرى نعمة شبيهة ..
 أمامه، كانت نظرات شافي تفتسه وتحاول استنطاقه:

«أي الآباء أنت؟ أين ستهرب من فعلتك هذه؟»

وقفَ نعمة صامتًا متأملًا ذلك الجمهور، وقمت عيناهُ على شافي،
 فابتسم له بهدوء، أربكهُ قليلاً ذلك الوجه الشاحب المُتَحَجَّر الجالِ،
 قربه، أشار لهُ شافي برأسه أن يبدأ بالكلام، ففعل.

- مساءً الخير، أهلاً بكم وشكرًا للحضوركم، اسمي نعمة، فقط نعمه،
 لا أعرف لي كُنية، لقد تُركتُ في مركز التأهيل قبل أن أتجاوز سنين.
 طفولتي الأولى، هذه السيدة الرائعة واسمها ملاك هي مَنْ أطلق عليّ هذا
 الاسم، لقد باتت منذُ ذلك الحين أُمِّي وأسرَتي، رغم أن ذكر تلك البِ.
 التي رمتني ورحلت لم يفارق مخيلتي يومًا.

ابتلع شافي ألمه بصعوبة، وتصاعدت أنفاس والده الذي لم تتوقف
 عيناهُ نعمة عن استراق النظر إليه حينًا، وإلى أنامل جمهوره التي انشغلت
 بمسح دموع أعينها الباكية حينًا آخر.

استجمع شجاعته وأكمل قائلاً:

- أجل أنا لا أعرف أُمِّي ولا أبي، ربّما كانا هنا بينكم، ربّما يسمعاني
 الآن، ولا يعرفان مَنْ أكون، أريد أن أقول لهما إنني قد عانيت قسوة

إلى إبعاد وحدي، في نوبات خوفاً التي كانت تدهمني وتقتلني
الأعاصير، كنت أحتضن وسادتي وأبكي، دون أن يلاحظ أحد
ممانتي، أذكر جيداً أطراف المرنجفة وقلبي الخافق عندما كنت أستيقظ
من نومي مذعوراً لأجد نفسي في غرفتي وحيداً، لم أكن أقوى على
الطلق، فلقد ربط المرض لساني، لكن حب من حولي جعلني أتخطئ
هذه العقبة، تلك المحبة كسرت خوفاً وأطلقت لساني، ووضعت يدي
على مفتاح جديد للحياة، عالم تتحول فيه الروح إلى مادة محسوسة،
مفتاح يخرج أرواح الصمت إلى الحياة، بحثت في داخلي عن أنغام
نجول هناك لأسكبها وأترجمها على أوتار تلك الآلات، فأنكشفت
أمامي أسرار تلك الرموز، ووجدت نفسي بينها، رحت أغرف من
روائعها وأحوّلها إلى همس يطرب القش والساقى معاً، وها أنا الآن،
سأعزف لكم متحدياً خوفاً وقلقي اللذين لم يتخرا يوماً، إنما أنا من
تعلمت التعامل معهما كأوتار كمانى، يا أبى ويا أمى.. أنا طفلكما
المتوحد، ما ينقّصني هو حبكما أنتما وكل من حولي، ما ينقصنا
نحن المتوحدين يد تمسك بنا، وتنتشلنا من براثن الخوف والوحدة،
يا أمى ويا أبى، لقد فعلت ما فعلت لتكونا فخورين بي، لقد تحدثت
نفسى من أجلكما، فكيف لكما أن ترميانى وتهملاننى هكذا، فقط لأننى
متوحد؟! لقد أوجعتاننى أكثر من مرضى، لكنى أعلم الآن أن الحياة لن
تقف عند بعض العقبات، واليوم، من هنا نطلق العمل في مركزنا الجديد
لدعم مرضى التوحد، لنطور المواهب ونصلقها، لنقول للأصحاء
احترموا الآخر بكل ما فيه، فالأشجار الباسقة كانت أيضاً مجرد بذور.

أرجو منكم أن تتواصلوا معنا لنحقق أفضل النتائج، وليصبح هذا الممر مجرد حالة عبور إلى الإبداع.

التقط أنفاسه المتقطعة، وأكمل:

- أما الآن، فسأعزف لكم مع الفرقة السيمفونية معزوفتي الجديدة، «أنا الآخر»، وأهديها إلى نصفي الآخر شافي سالم.

علا صوت التصفيق والهتاف، مسح دموعه في حضن مايا وملاك، استجمع قواه التي استمدتها منهما، ومن عيون فرقته ومن مازن الذي غرق في عذاب مرير، درس لن ينساه طوال حياته، أما شافي فترك العنان لتلك القطرات المتجمعة، لتساقط وتبلبل صحراء قلبه التي أضناها الجفاف ولهبب الشمس الحارقة.

من بين ملوحة مائها، كان يراقب والده ليرى النار التي اشتعلت في جحيم نفسه، تلك النفس المقبرة التي لم تشع يوماً من أجساد الضحايا!

علت الموسيقى ولا تزال عينا البروفيسور مسمرتين على نعمة، لقد عرفه طبعاً، إنه طفله، وكيف له أن يهرب من هذه المواجهة، وتراه يحاول عبثاً ضبط انفعالاته كي لا يلاحظ شافي ما يعتريه من خوف وخجل، تلفت حوله، وجوه مريضة، صغار وكبار، ووجه نعمة يناديه:

«ها أنا يا أبي، من كنت تخجل منه، ها أنا قد وقفت وحدي وعدت إلى الحياة».

لم يعد يطبق نفسه محاصرًا بين ماضيه وحاضره، وقف، ودون أن
هبر انتباهًا لأحد، ترك مكانه وراح يهرول بعيدًا بين صفوف المقاعد،
هاربًا إلى الباب.

ناداه شافي بصوت منخفض:

- أبي.. أبي.. إلى أين؟

تجاهل نداءه، فلم يكرر السؤال كي لا يثير القوضى بين الحضور، أما
مايا فكانت تراقب ما يحدث، أسرعت إليه وسألته هامسة:

- ماذا حصل؟

- كما توقعنا، لم يستطع أن يحتمل عذاب ما تبقى من ضميره.

- إلى أين ذهب؟

- لم يقل لي، لكنني أعرف أين سأجده.

رغم أنغام نعمة الساحرة، فإن روجيهما لم تهدأ، ومضت تلك الدقائق
دهورًا طويلة، انتهت المعزوفة وعلا التصفيق مرة أخرى.

انسحب شافي ومايا من بين الحضور وتوجها إلى غرفة نعمة،
فوجداه جالسًا في إحدى زواياها حاضنًا ركبتيه، مخفيًا رأسه
بينهما، ربتت مايا كتفه بهدوء، وهمست بحنانها المعهود سائلة:

- هل أنت بخير؟

أجابها دون أن يستدير:

- أجل يا مايا، لا تقلقي عليّ، لكن جسدي يرتجف وروحي أيضاً،
بحاجة إلى بعض الهدوء.

- لا عليك أيها العملاق المتخفي، لقد أصبح كل شيء من المأمور
لقد حققنا هدفنا، وما خططنا له، كنت رائعاً.

رفع رأسه ونظر إلى شافي باستغراب وسأله:

- مَنْ ذلك الرجل الذي كان جالساً قربك، هل تعرفه؟ عندما
أعزف رأيت من جديد في مختلتي بلامح أخرى، ملامح أعرفها جيداً.
أخافتي نظراته، لقد شاهدت أشباح الموت مختبئة في خبايا روحه،
يكون يا شافي؟

- سأخبرك لاحقاً، بذل ملابسك الآن، بعدها نذهب إلى مكان هادئ
ونتحدث في هذا الموضوع مطوّلاً.

- حسناً، لن أتأخر.

في لحظات الانتظار، غرق كلاهما في بحور الحيرة، كيف سيخبرانه
تلك الحقائق، خلال انشغالهما هذا، رنّ الهاتف ليأخذهما اسم المتصل
إلى قلق جديد. إنّه المُحقق مجدداً. خرج مسرعاً من الغرفة.

- سيدي المحقق أهلاً بك.

- آسف على الإزعاج، أعلم أن الوقت متأخر بعض الشيء، لكن
هناك جديد يجب أن أخبرك به.

- تفضل سيدي.

- بعد أن أفرغنا كاميرات موقف المطار، حصلنا على رقم السيارة التي كانت بانتظار السيدة، وأقلتها.

ضبط أعصابه وتنفس بعمق ثم سأله مستفسراً:

- وهل عرفتم أين هي، ومن الذي أقلها؟

- نعم، السيارة مسجلة باسم والدك.

أسندَ جسدهُ إلى الحائط كي لا يسقط أرضاً، تأكدت ظنونه، هو من اختطفها، سأله من جديد:

- هل أنت متأكد؟

- طبعاً دكتور سالم، وإلا لما نقلت لك هذه المعلومات.

- أمر غريب وغير متوقع، أرجو منك أن تمنحني بعض الوقت، سأستعلم عن هذا الأمر، ربما توصلت هي مع السائق، فحضر ليصطحبها من المطار.

- حسناً سأوقف الإجراءات بضع ساعات إكراماً لك، يجب أن نعر على تلك المرأة بأسرع وقت ممكن.

- شكراً يا سيدي على هذا التصرف الإنساني، فولدي مريض وخبر كهذا من الممكن أن يقضي عليه.

- بانتظار اتصالك.

أنهى الاتصال وعاد مسرعاً إلى الغرفة.

- هيا، يجب أن نذهب الآن.

قرأت مايا ما في عينيه، هزت رأسها مستفسرة.

اقترب منها وقال هامساً:

- والدي اختطف مادلين، كاميرات المطار كشفت رقم السيارة التي

أقلتها من المطار وهي تخصه.

تمالكت نفسها وكنمت ذلك الصراخ الذي دوى في أعماقها، ثم

سألته هامسة:

- وماذا الآن؟

- سنذهب إليه، الشرطة تنتظر، وربما سيدهمون البيت بحثاً عنها.

- ونعمة؟

- لقد آن الأوان كي يعرف الحقيقة، سنأخذ ملاك معنا، لنتهم به

وتساعدك في احتضانه إذا ما حدث طارئ، فالصدمة ستكون بلا شك

قاسية عليه، أما والدي فأنا من سينهي حسابه معه.

- أرجوك لا تهوور، لا أريد أن أخسر.

- لا تخافي عليّ، فلن يكون الأتي أسوأ مما مضى، لقد تعبت، ولم

أعد أستطيع أن أحتمل المزيد.

انطلقوا إلى قِبلِ الرابية، تتسارع الأفكار في مخيلاتهم، لترسم صورة

ضبابية عن مصير قادم، لا يفصل بينهم وبينه سوى لحظات.

53

هل نسايق الزمان إلى أقدارنا أم هي التي تقودنا إلى ما لا نعلم، وربما إلى نهاية لا ندركها؟

سألهم نعمة مستفسرًا وهو يراقب وجوههم المتجهمة:

- ما بكم صامتين، حدسي يُبني أن هناك أمرًا ما تخفونهُ عني، إلى أين نحنُ ذاهبون؟

استجمع شافي شجاعته المبعثرة وأجابهُ بهدوء:

- أنتَ محقٌ يا نعمة، هناك حقيقةٌ مؤلمة، وربما سعيدة بانتظارك، يجب أن تعلم أن ما أوقفني عن البوح، عدم رغبتني في إصدار الأحكام قبل أن أتأكد، ولكيلا أشتك بأمرٍ كانت لدقائقٍ مرت، مجرد شكوك ولكن لن أستطيع أن أخفيها عنك بعد اليوم يا أخي! أجل أنت أخي يا نعمة، أنت أخي.

ذُهلوا من إقدام شافي على البوح بهذا الأسلوب دون مقدمات، أما نعمة فبردت أطرافهُ، وتسمرت عيناهُ، وتوقف جسده عن الحراك، فلم يقوَ على الكلام، رغم صحب روحه الذي لامس السماء.

التفتت مايا من مقعدها الأمامي وأمسكت يديه، فانزوى في حضن ملاك دون أن يُحرِّك ساكنًا.

رغم إدراك شافي قسوة وقع ما يقال على مسمع نصفه الآخر المتوحشا فيه، فإنه لم يستطع كبح مشاعره بعد كل هذه الضغوط. صمت قليلاً وراح ينتقي كلمات الجرعة الثانية من ترياق الحقيقة، ليحقن بها وريده دون أن تؤذيه.

- الرجل الذي رأيته بجانبني يا نعمة هو والدنا، ونحنُ الآن في طريقنا إليه، لمواجهته، وكشف الحقائق جميعًا، وأولها أسباب وجودك في مركز التأهيل طوال هذه السنين.

حلَّ الصمت من جديد كملاك الموت، تجهمت وجوههم وراحوا يراقبون بقلق ملامحه المتجمدة التي هجرتها أي انفعالات.

سألته مايا والحيرة تقتلها:

- نعمة، هل أنت بخير؟ أرجوك قل شيئًا، لا تعذب نفسك بالصمت فنحن نحبك ونخاف عليك.

رَمَسَتْ عيناه ثم نظقت شفاهه بصوتٍ مرتجف خافت:

- لا تقلقوا، أنا بخير، لقد تملكني هذا الشعور، لطالما أحسستُ بأنك قطعة مني، وكأنك طفلي وأخي ونبض قلبي، لم أكن بحاجة إلى سماع هذا لأتأكد، عندما شاهدت صورة والدتي التي رأيته في منزلك، أخبرتني عيناها أنني ابنها. عاتبتها يومها وسألتهما:

- كيف تتركي نيني يا أمي أحيًا بعيدًا عنك وأنا بحاجة إليك؟ لماذا سمحتِ أن أتُنزِع منك؟ لكنها أحنت رأسها خجلاً ولم تُجِب، وعندما أخبرتني أنها ماتت، بكيت بصمت في أعماق ذاتي، وأدركت بقية القصة، أدركت أنك ظلمت مثلي، وتُركت وحيدًا، لو كانت موجودة لما سمحت بأن يحدث ما حدث.

تساقت دموعهم دون رادع، يا لهذا العذاب الذي قاساه! تالم وفرح بصمت دون أن يخبر أحدًا بما يخالجه!

ابتلع ريقه بمرار وأكمل قائلاً:

- تعمّدت أن أخفي عنك ما أبلغني به إحساسي لكيلا تتعذب، لكنني للأسف لم أستطع أن أحميك يا شريك روحي.

- سامحني يا نعمة وأنا أيضًا لم أستطع.

بعد ولادة هذه الحقائق التي أغرقت الجميع في مخاض اليم، حلّ الصمت لئسكن الهدوء في أنفسهم، ويعيد كلا منهم إلى أرض واقعه. التقط شافي أنفاسه، جمع ما تبعثر من شجاعته متحضرًا لتلك المواجهة التي تجنبها منذ أن طعنته الحقيقة بسكينها الحاد.

- بعد قليل سنطوي هذه الصفحة إلى الأبد، سنقف أمامه، سنجره على الاعتراف بما اقترفت يدها، يجب أن يطلق تلك المسكينة قبل وصول الشرطة.

عاد التوتّر ليسكنهم، وليدخل نعمة في قوقعة خوفه من جديد.

- لا، لا يا شافي، لن أستطيع، سأبقى بهيذاً، أنا أخافه.
- أرجوك، من اجلي وأجلك ومن أجل تلك المرأة، أعدك يا نعمة أ.
- تكون هذه اللحظات نهاية المطاف في رحلتنا الموجهة.

عقبت ملاك قائلة:

- لا تخف يا نعمة، فَمَنْ واجه الجمهور منذ ساعات لن يخاف
- مواجهة الحقيقة، نحن معك، نحن عائلتك، ولن نتركك.

خَيَمَ الصمْتُ عليهم من جديد، وانزوى كُلُّ مع ذاته وأفكاره
وتحليلاته، كانوا بحاجة إلى هذه الاستراحة قبل دخولهم عرين الأسد،
حيث كل الاحتمالات متوقعة.

أوقف شافي السيارة أمام مدخل القبلا، ترجلوا منها ودخلوا
مسرعين وكل منهم يحاول التماسك وكبت مخاوفه من ذلك المجهول
الذي ينتظرهم، وقفوا في الصالة، بينما راح شافي يبحث عنه في أرجاء
المكان، سألته مايا بعد أن تملك الخوف من مفاصلها المرتعشة:

- هل أنت متأكد أنه هنا؟

- أجل، السيارة في الخارج.

جال بأفكاره تحت أنظارهم التي كانت تراقبه.

- أعتقد أنني وجدته، تعالوا معي.

لحقوا به دون أسئلة، فتح باب المختبر، فوجده هناك خلف مجهره مرتدياً روبه الأبيض ونظاراته السميكه، صعقه دخولهم، فتوقف عن العمل وصاح به غاضباً:

- شافي، ماذا تفعل هنا؟! كيف تُدخل الغرباء إلى مختبري؟ اخرج من هنا أنت ومن معك.

- لا يا أبي لن نخرج، أنت تعرف جيداً من يكون هذا الشاب، لقد شاء القدر أن التقى به، كان يجب أن تفهم أيها العالم الفذ أن العالم صغير، ليست هناك جريمة كاملة كما يقولون في عالم القضاء.

- لا أعرف عمّا تتحدث.

صاح شافي بصوت ارتجّت له أرجاء المكان:

- كفاك كذباً، أي نوع من البشر أنت؟ من أي الكواكب أتيت؟ ولماذا فعلت بنا هذا؟

رد بحدّة:

- وماذا تريد مني أن أفعل؟ وكيف لي أن أحتفظ بطفل معاق وأنا أبكي أمه؟ نعم أنا من سلمه إلى المركز، لم يكن من السهل عليّ أن يقول الجميع إن للبروفيسور سالم طفلاً معاقاً، كيف لي أن أحتفظ به؟ بعد وفاة أمه تدهورت حالته الصحية، أدخلته المركز وتركت له النقود ليعتنوا به.

شلت كلماته أجسادهم، فُتحت الأفواه والأعين، تغلب شافي على غشيانه وصاح به من جديد:

- تبا لك أيها المجرم! ها هو طفلك المعاق قد أصبح نجماً لامعاً،
لم يكن لينقصك شيء لو تابعته ولو من بعيد، كيف لك أن تحرمني آخر
كل هذه السنين؟

التقط نفساً عميقاً، ثم أكمل إطلاق رصاصاته:

- أين مادلين وطفلها؟ لقد قرأت مذكراتك ووصلني ما فعلته بها،
أعرف أنك اختطفتها، كما أعرف كل جرائمك وتجاربك التي ارتكبت،
اعترف أمامنا الآن قبل أن تأتي الشرطة لمداومة المكان واعتقالك،
سوف أخبرهم بكل ما لدي من حقائق وسأسلمهم ما أملك من أدلة،
ذلك الكتاب الذي أخفيت وتلك الرسائل جميعها وألبوم تجاربك
الإجرامية، أملك نسخاً منها جميعاً.

لم يعد أمامه مجال للإنكار، فأطلق لسانه ليلقي الحقيقة المؤلمة على
مسامعهم:

- إنه ليس أحاك، أنت طفل مادلين الذي تبحث عنه، هل فهمت الآن؟
هل ستستوعب هذه الحقيقة؟ لقد استنسخت من خلية أخذتها منه، ابني
الحقيقي نعمة، هل تفهم؟ أنت مستنسخ ومعذّر وراثياً. أنت مجرد خلية
من جسد نعمة، هو ابني لا أنت، أنت صنّعة يدي، أنا من أعطاك الحياة
وأعطاك كل شيء لتصبح ما أنت عليه، هل أنت راضٍ الآن؟ هل أشبعت
الحقيقة فضولك؟ تلك القصة التي قرأتها كانت مجهولة النهاية، وها هي
نهايتها تُكتب الآن.

أغرقتهم كلماته في غياهب الصمت، وتزاحمت عليهم المشاعر والافتراضات، وانهمكت عقولهم فيما يجول في روح الآخر من ألم، نعمة كان أضعفهم، وأوشك أن يفقد سيطرته على انفعالاته ومشاعره، إلى أن قطع صوت شافي دائرة الصمت المفرغة قائلاً:

- إذن مادلين أُمِّي أنا؟! أين هي الآن؟

اقرب منه، وحدّق في عينيه مشدوهاً، ثم صاح به من جديد:

- وكيف لك أن تنتزعي من حضنها؟ لقد دمرت أُمِّي كما دمرت العشرات من الأرواح الحيّة، كيف لك أن تستنسخ الأجنة وتسحقها في ألتك اللعينة، دون أن يرف لك جفن؟

- ليست أُمك، إنها فقط رحم حملك إلى الحياة، أنت لا أُم لك ولا أب ولا جذور، ولماذا تريدني أن أتقيد بقانون ودين يحجران على العلم والعلماء؟ ولماذا لا أستنسخ؟ وها هي دول العالم الكبرى تستنسخ جيوشاً لها في الخفاء، بمختبرات سرية. جنود ليست لهم عائلات تبكيهم وتطالب بحقوقهم، يصنعونهم كما يشاؤون، بالمقاييس التي تناسبهم، يزرعون فيهم ما يريدون من مبادئ وإجرام، ويرسلونهم إلى الحروب والموت دون أن يحاسبهم أحد على ذلك، أما أنا فلقد صنعت منك عالماً، تنتسب لي، وليس لرحم ماجور.

أجابه بصرامة، وبقسوة الصخور التي لا تفتتها الحمم:

- بئاً لك أيها القاتل! رغم كل ما قلت فهي أُمِّي، الدم الذي في عروقي من دمها، إنها من حملتني بين أحشائها، وكيف لك أن تقنعني

أن الدكتور هناء هي أمي؟ كيف سمحت لنفسك أن تتركني أتعذب وأبكي أمي وهي حية، وأسألك ألف مرة كيف نسيته وكيف قطعت تلك المرحلة من ذاكرتي، وأنت تخلق الأكاذيب والقصص؟!!

أفقدت تلك الكلمات البروفيسور سالم تماسكه، ذلك الصلب الذي لم تثره يوماً أي انفعالات، فسقط أخيراً أسير ما صنعه يداه، رمى نظارته على الأرض، اقترب من شافي وأمسكهُ من قميصه وصاح به:

- لقد أعطيتك أوراق هذا المعاق، اسمه وأمه، وأعطيتك اسمي وأمجادتي، أنت لست أكثر من خلية، كان من الممكن أن تموت بعد تشكلها بأسابيع كباقي الخلايا، لقد أعطيتك الحياة، ويجب أن تشكرني أيها الجاحد!

صاح به وقد نفذ صبره:

- كل هذا لا يعنيني الآن، أريد أن أعرف أين أمي، أين مادلين؟ أين أخفيتهما؟

- قلت لك إنها ليست أمك، أنت نتاج بويضة عاهرة ورحم عاهرة أخرى.

- توقف عن هذا الهراء وأجيني أين هي؟ فوراً.

ضحك بهستيريا، وتملكه جنون العظمة والكبرياء، وهتف بفخر:

- تريد أن تعرف أين هي؟ لقد طحنت هذه الآلة أجزاءها التي قطعنها

بيديّ هاتين.

لم يستطع نعمة أن يتمالك نفسه أكثر، فراح جسده يتنفض دون قدرة منه على ضبطه. حضنته ملاك ومايا وهما في ذهول مما يجري أمامهما، لكنه فرّ من بين أيديهما وراح يركض هاربًا، أيقظ ما حدث الجميع، وأعادهم إلى أرض الواقع، فصاح بهم شافي:

- الحقا به قبل أن يؤذي نفسه.

أجابته مايا وهي تعدو خلفه:

- لا تخف عليه، أرجوك اتبعنا، أرجوك لا تبقَ هنا، فسوف يؤذيكَ. ودّعها بنظرة حزينة تحجبها الدموع ورجاها قائلاً:

- اذهبي مايا، اذهبي، اعطني به وبنفسك.

غابت في الممر، وعاد هو إلى والده، وقد ملأ صوت تلك الآلة الغريبة ذات الشفرات الحادة بعد أن أدارها المكان، فذبّ الذعر في قلبه من احتكاك أجزائها ومن تلك الخيالات التي تواردت إلى ذهنه إثر ذلك.

نظر إلى عينيه متوسلاً، على أمل أن يسمع نهاية أخرى، تغير مسار أقدارهم:

- أرجوك، قل لي، أقسم بروح هناء حبيبتك إن ما قلته هو الحقيقة.

- أجل، هي الحقيقة التي أصررت أن تعرفها.

مسح العرق المتصبب من جبينه براحة يده، ثم أكمل قائلاً:

- لن أسمح لأحد بأن يدمّر مملكتي أمام عيني، أجل لقد رميت جسدها هنا وأصبح أشلاء.

ضحك عاليًا وبيجنون وهو يراقب دهشته تلك:

- لقد عرفت أنك قرأت المذكرات، وأنت ستسافر لتبحث عنها، فسبقتك إليها، يجب أن تفهم أنك ملكي أنا فقط، أنت صنعة يدي، أنا من أعطاك الحياة ومن سيأخذها منك ولن أترك أمامك أي ثغرة تتمكنك من قلب الأدوار.

تسابت أنفاسه وهي تراحم بعضها، لتخرج من أنفه الضيق الذي تضاعف حجمه، وبلبل بالعرق المتصبب من جبينه، والذي رسم عليه الحقد والغیظ والانفعال عشرات الخطوط والتجاعيد.

نظر إلى ماكينته الغريبة تلك وراح يراقب دوران سفراتها، ثم صاح في وجهه مكملًا كلامه:

- لماذا اخترقت خطوطي الحمراء؟ لماذا لم تتجاهل ما كشف أمامك وتترك نعمة في عالمه وتكمل حياتك مستمتعًا بما قد حصلت عليه؟ وتريدني أن أعترف بوجوده؟ فليكن لك ما تريد ولكن وجوده سيلغيك.. ستصبح من دون اسم ولا جذور، فهو شافي سالم وليس أنت. وها أنا قد أثبتُّ لعلماء الكون، أنا، العالم العربي، وبرغم قمعهم لي، أثبت أنني فائق القدرة وقد استسخت بشريًا ونجحت تجربتي، وأنتي مجبر على تدميرها بسبب قوانينهم الغبية تلك، فلن يسمحوا لمستسخ مركب من خلقة وبويضة ورحم حاضن بأن يمتلك اسمًا لأنهم وببساطة يفضلون المبيت في كهوف الجهل على الاعتراف بقدرة الإنسان على الخلق كما الخالق، ولأن هذا سيفقدهم سلطتهم وسلطة الإله الذي يستبدون ويحكمون البشر باسمه.

علا لهاهت فعضاً على شفته محاولاً ضبط أنفاسه وأكمل ما أراد أن
يقوله بصوت تخشبي خلفه شياطين الجحيم وخيبة دمرته وجعلت منه
كائنا ممسوخاً بلا رحمة:

- أجل يا مَنْ كنت بمثابة ابني.. أجل، فلم تعد تعنيني بعد اليوم،
فابني الحقيقي أصبح الآن موسيقياً لامعاً، وسيخلد اسمي كما تمنيت،
إن النجاح إكسير الحياة الحقيقي الذي يخلد العظماء حتى وإن فنيت
الأجساد وتلاشت، سأعطيه اسمي، أما أنت فعقاب خيانتك لي سيكون
عسيراً. ستلحق بمدلين إلى ذلك المكان الذي لن يجدكم فيه أحد.. لقد
حذرتك سابقاً بالأ تخرق أسرار عالم، وما قرأته وسمحت لك عمداً بأن
تعرفه، كان بمثابة إنذار لتدرك أنه من المستحيل أن تملي عليّ إرادتك
دون ثمن.

بعد أن استجمع شافي أفكاره وشتات روحه المبعثرة في مئة اتجاه،
هز رأسه نافيًا وقد علت وجهه ابتسامة الانتصار:

- كم أنت غبي أيها البروفيسور العربي العالمي! لقد فاتك الكثير
ولم تحسب حساب جرأتي التي حملتني على السفر والبحث في جذور
حياتنا، لم تحسب حساب إنسانيتي التي كسرت كل القيود ونمت في
قلب أنت صنعته وجعلته محصناً عليها، نعم جسدي من صنعك ولكن
روحي ونفسي هما ملك ذلك القابع في داخلي والمتصل بجبال الله
شريكه وواهب إنسانيته.. أيها العالم القدير.. الشرطة في طريقها إلى
هنا، سيأتون ويعتقلونك، لقد علموا أنك من أخذ مادلين من المطار،
وهم يبحثون عنها الآن، نعم لقد بلغت عن اختفائها وهذا ما لم تتوقعه،

فصنيعك لم يكن جباناً مثلك وتحدى قدراته وتغلب على ما زرعه فيه من طاعة، وتخاذل، وخنوع.

صعقه ما سمع، وأدرك أنه في ورطة لا مخرج له منها، نظر إلى شافي بحزم، وكأنه قد رسم النهاية المحتمة، ثم أصدر حكمه قائلاً:

- ما فعلته هذا لا يقل قسوة عمّا فعلته بي عائلتي وما فعله بي علماء الغرب عندما سرقوا أبحاثي، أنت أيضاً سرقت نجاحي رغم كل ما فعلته من أجلك، رغم كل هذه التجارب التي تسميها جرائم والتي أجريتها فقط لأحصل عليك، ورغم أنني قد رميت طفلي، حبي ووعودي لهناء الحبيبة من أجلك، أما الآن فسأعيدك إلى النهاية التي أنقذتك منها، منذ صنعتك، سأعيدك دون ندم إلى تلك الآلة التي كان يجب أن تُطحن أشلائك فيها، كما فعلت مع باقي فئران اختباراتي، فهذا قدرك الذي تستحقه ثم خيانتك، وثمان محبتي، تلك المحبة التي قضيت عليها باسم الإنسانية كما الآخرين.

رمقه بنظرة أخيرة حملت وجع أعوام وخيبته بأبٍ لم يكن له يوماً سوى سيد، ولم يكن هو أمامه أكثر من مجرد عبد، اغتصب حرته باسم الأبوة الزائفة، حزم حقائبه وحسم أمره في تلك الدقائق الأخيرة، فلن يكون له مكان بعد اليوم على أرض لم تنجبه، ثم صاح به قائلاً:

- إذن بعد ما فعلت، لن يبقى أماننا سوى درب واحد يجمعنا، طريق أعدّ لنا منذ البداية، وسنسير فيه معاً، كما كنّا دائماً، سنذهب سوياً إلى الجحيم، الصانع السيد، والمصنوع الذي سلب حقه بالحياة.



على عشب الحديقة الأخضر الندي، حضنت ملاك نعمة، وراحت
تهدي من روعه.

- آه، أشعر يا أمي أن جسدي يتقطع، أين شافي؟ أريده أن يأتي الآن.
أرجوك يا مايا، أحضريه إلي.

- سيأتي يا نعمة، لقد وعدني.

- لن يدعه، سيقتله، لقد رأيت نواياه في عينيه.

استطردت ملاك قائلة:

- إنه ابنه، لنقل إنه قد ربّاه كابنه.

صاحت مايا:

- نعمة على حق، إنه قاتل، قاتل يا أمي، كيف تركناه معه وحيداً؟
سأعود إليه.

ركضت مسرعة كالمجنونة، وقفت عند الباب المقفل، ولم تستطع
الدخول، وإذا بالدخان الكثيف يملأ المكان، وهي تراقب من خلال
زجاج النوافذ المقفلة ما يحدث في الداخل، وتعود لتضرب الباب
بقبضتها، ومرت الدقائق طويلة ثقيلة، بين دموع وصراخ، إلى أن وصلت
سيارة المحقق، فترجّل منها مسرعاً وحاول إبعادها عن الباب، بعد أن
اتصل برجال الإطفاء، فرّت من بين يديه وعادت مسرعة إلى حضن
ملاك، علّها تجد من يعطيها الأمل في نجاته.

- شافي يا أمي! شافي!

- أرجوكِ تماسكي من أجل نعمة.

نعمة المسكين كان غارقاً في نوبة بكاء مريرة كالأطفال، فهو يدرك أنّ
مَنْ يدخل الجحيم لا يخرج منه سليماً.

دقائق وحضرت سيارة الإسعاف، ونقلتهم إلى المستشفى، بينما
استكمل رجال الإطفاء والإنقاذ محاولاتهم لدخول البيت، علّهم
يخرجون الوالد وابنه من جحيم ذلك الدخان المترديد.

وصل المحقق إلى المستشفى، دخل غرفة مايا، كانت لا تزال تحت
تأثير الصدمة، وقد جلس والداها بقربها.

- كيف هي الآن؟

- لقد نامت أخيراً بعد نوبة عصبية مريرة.

- هل من الممكن أن أتحدث معك قليلاً بعيداً عن هنا؟

- طبعاً سيدي.

جلسا معاً في قاعة الانتظار، فسأله بلهفة مستفسراً عن مصير صديق
ابنته المجهول:

- ماذا حلّ بشافي؟ هل تمكنتم من إنقاذه؟

- للأسف لا .

اعتصر قلبه حزناً، فما ينتظر مايا، لن يكون من السهل عليها اجتيازه .

- إنها مأساة .

- أجل، أردت أن أسألك إن كانت لديك أي معلومات عنه وعن والده .

أجابته بصوت مخنوق:

- لا يا سيدي، كل ما أعرفه أنه صديق ابنتي، وأن والده عالم في الهندسة الوراثية التي درسها ولدانا معاً وتخرّجا فيها منذ سنة تقريباً، لكن أخبرني أرجوك، هل وجدتم الجثتين؟ وهل تمكنتم من معرفة تفاصيل الحادث؟

- أجل وجدنا جثتيهما عالقتين داخل آلة غريبة كانت موجودة هناك، وقد طحنت بعض أجزائهما، قبل أن تتوقف بسبب احتراق محركها، الذي أدى بدوره إلى اشتعال الأسلاك الكهربائية، وامتداد النار إلى أنابيب الغاز ومستودع الوقود الموجود هناك في المخزن .

أغمض عينيه من هول ما سمع .

- يا إلهي! يا لها من نهاية أليمة!

- أجل، هذا مروع، في كل الأحوال، أرجو أن تبلغونا متى أصبح وضع مايا قابلاً للإدلاء بشهادتها، لتطلعنا على ما تعرفه من معلومات، فقد قالت لنا ملاك إن أسرار قصة مادلين المرأة المخفية معها .

- حاضر يا سيدي، سأبلغك فور أن يسمح الطبيب بذلك، كما ترى
وضعتها حرج، حتى إنني لم أتمكن من تركها لأزور نعمة وأطمئن عليه.
- إنه بخير، لقد زرته قبل أن آتي إلى هنا، وكان نائمًا أيضًا بعد إعطائه
جرعة عالية من المهدئ.

- غريب، لم أفهم بعد لماذا ذهبوا إلى هناك!

- إنها قصة طويلة ومعقدة فيما يبدو، الأفضل أن تسمعها من ابنتك
بعد أن تستيقظ.

- أتمنى أن تتمكن من البوح فعلاً، فلقد وصلت إلى هنا وهي منهاره
كليًا، لقد كان شافي حب حياتها، فهما معًا منذ سنين الدراسة الأولى إلى
الآن، وها هو الموت يرسم نهاية قصتهما بلا رحمة.

- آسف لسماع هذا، أحيانًا تطفى قسوة القدر على قوة الحب.

- للأسف!

54

بعد شهرين على الحادث.

جلسا في صالة الجمعية، يشاهدان التقرير الذي يعرضه التلفزيون عن عملهما ونشاطات الجمعية، متضمناً مشاهد من الافتتاح الذي حضره العديد من كبار الزوار، ووجوه المجتمع اللامعة.

شهران كاملان مرّا على وفاة شافي، الذي ترك وراءه قلوباً ما زالت تبكيه، ومركزاً لرعاية مرضى التوحد باسمه، بعد أن دفن سر موته ووالده واستنساخه معه، وكذلك سر اختفاء أمه أو صاحبة ذلك الرحم الحاضن، أما ثروة البروفيسور فانتقلت إلى نعمة، بعد أن أثبتت مايا المعلومات التي حصلت عليها من مركز التأهيل ومن المصرف، لتعود جميع الممتلكات وإيراداتها لتمويل الجمعية وخدمة زوارها.

أقفلت التلفزيون، وتفرست في وجه نعمة الحزين، الذي لم يبارحه الأسى منذ ذلك اليوم المشؤوم، قالت له بهدوء وهي تبتسم بعد أن مسحت دموعها:

- هيا يا نعمة، لنذهب إلى مكان بعيد عن هنا، أكاد أختنق من مرارة الذكريات.

في ذلك المقهى الهادئ المطل على زرقة المحيط، جلسا صامتين، متأملين، يعيد كل منهما ذكرياته ويجترها، فتعصر قلوبهما تلك اللحظات السعيدة التي مرت وتشعلها شوقاً وجوعاً لروح تركتهما وبقيت معهما. قطع كلامه سكون الصمت أخيراً، بعد أن أوقف جسده المتأرجح وعينه الهاربتين:

- يبدو أن قدرتي أن أبقى وحيداً يا مايا، لقد أمضيت سنين طويلة أراقب ذاتي وأنفخصها، فرأيت نفوساً كثيرة داخلني تحاصرني من كل الاتجاهات، فصرت لا أعلم من أنا ومن هم، فهم في داخلي وأنا في داخلهم، أشعر أحياناً بقسوة العقاب، وأحياناً برحمة الشواب، وكلما دخلت نفساً أجد فيها لحظات من الرحمة ولحظات من الفزع، أحياناً أشاهد معهم أشياء مروعة وأحياناً أرى مشاهد مشوقة، حتى صرتُ نفساً حيادية بينهم، في جمع يضمها من كل طرف إليه، ثم يتركها ليحضنها الآخر، أحياناً يطلبون النجاة مني وأحياناً أطلب النجاة منهم، وقد صرنا جميعاً في دائرة من الرحمة المفزعة، نبكي معاً ونسعد معاً ما بين الماضي والحاضر وتقلب الأزمنة، وأصبحت غير مدرك لماهية هذه العوالم التي أقحمت نفسي فيها، عندما اعتقت نفسي من تلك النفوس التي تصارعني أصبحت لا أدري، هل زوال النفس بزوال الجسد رحمة لي أم هلاك؟ ثم وجدت نفسي بعد هذا الجدل العقيم محبباً خائفاً أشكو إلى النفس الواحدة التي تلازمني، فلا تسمعني، أسألها فلا تجيبني!

حصرت تفكيرها عن كل ما يشته لتنجييه، فما قاله لم يكن كلامًا عاديًا، كان حديث نفوس تجمععه بشافي وأمه وأبيه وكائنات أخرى غير مرئية تتخبط في داخله متقلبة بين خيرها وشرورها.

- أنا أيضًا يا نعمة تسكنتي نفس التساؤلات، وأعيش صراعًا مُرًا بين الحياة والموت، إن قال لك أحدهم إن استمرار الحياة هو ما يربطنا بالحياة فقل له إنك مخطئ. هناك أرواح قد أرسلت أو ربما سقطت على الأرض سهوًا ودون تخطيط، وتلك الأرواح جذورها مرتبطة بالله وهي من يحمي هذه الأرض من عقابه الجارف لمخلوقاته الذين شوّهوا خلقه وتلاعبوا في صنعه. وأرجوك، أرجوك للمرة الألف لا تقل إنك وحيد، فأنت لم تعد وحيدًا، لقد أصبحت لديك جذور، ورغم أنها جذور مرّة الطعم، فإنها قد رسمت معالم جديدة لخارطة حياتك، وأنت الآن تعرف من أين أتيت، ولم يعد ماضيك مجهولًا، وها قد تخطيت كل هذا الماضي لتنتقل من جديد في مكان كل من فيه عائلتك ومحتاج إليك.

- وهل عليّ أنا أيضًا أن أوجه لك نفس النصيحة؟ فحزني عليك لا ينفصل عن حزني عليه.

هزت رأسها ونظرت بعيدًا مخفية دموعها عنه:

- أعطني بعض الوقت، سوف أخرج نفسي مما أنا فيه، ولكن جراحي الآن لا تزال تنزف، وما زال ألمها أقوى من النسيان، إنه حب حياتي.

- أفهمك يا مايا، فأنا قد عشقته ولم أعرفه إلا منذ أشهر قليلة، فكيف بالحال معك؟ إنه حقًا أمر مروع.

أدركت أنها ستُدخله من جديد في دوامة الألم، فانتفضت ومسحت
دموعها وقالت وهي تبسم:

- حسنًا، فلنغيّر الموضوع، ماذا ستشرب؟

- لا أعرف.

- إذن ستنادي النادل لترى بماذا سينصحنا ما دمنا لا نعرف.

نادت الرجل الواقف هناك بعد أن انتهت من وضع الطلبات على
إحدى الطاولات، رفع نظره إليها مبتسمًا، وقد أومأ برأسه معلنًا قدومه
إليهما.

اتسعت عيناها عندما رأت وجهه، ولم تصدق عينيها، وهي في
ذهول تام ربتت يد نعمة، مشيرة إليه كي يرى ما تراه، بعد أن عجزت عن
النطق، فهي ليست واثقة مما يحدث أمامها، أو إن كان ما شاهدته للتو
حقيقة أم خيالًا!

استدار نعمة ليربط هول المفاجأة لسانه هو أيضًا.

- أهلاً بكما، ماذا تريدان أن تشربا؟

صاحت مايا قائلة:

- شافي؟! ماذا تفعل هنا؟

ابتسم النادل بأدب وأجابها بهدوء:

- سيدتي أنتِ بالتأكيد مخطئة.

وبين ملامحها التي شلتها الدهشة وعيني نعمة المفتوحين على
نافذة قلق جديد، أردف النادل قائلاً:

- اسمي نادر سالم، لكن بإمكانك أن تتناديني بالاسم الذي تريدينه،
فهذا لن يزعجني.

«النهاية»

في اليوم التالي أحضرتُ معي تلك التلاجة المخصصة لنقل الخلايا والأعضاء البشرية، قمتُ بزرع البويضة الأولى في بطانة الرحم، تلك الأرض الخصبة التي تنبت بين طياتها بذور البشر أجمعين، لم تستغرق العملية الكثير من الوقت، بعدها بقليل زالت عنها آثار التخدير، فتحت عينيها ببطء وكأنها تستفيق من نوم عميق، أخبرتها أن كل شيء قد تم بشكل جيد وعلينا أن ننتظر، ونراقب انقسامات تلك البويضة معاً، مرَّ يوماً الأول وهي ملقاة تحت الآلة التي زدتُ قدرة التقاطها عشرات المرات، لأتمكن من متابعة تلك التطورات والانقسامات.



«أنا الآخر» رواية تغوص في قاع النفس البشرية، من خلال شخصية واحدة، انقسمت إلى نصفين، كلاهما يحتاج إلى الآخر ويفتقده حتى دون أن يعرف بوجوده! أحدهما مريض بالتوحد، لكنه يتميز بعقريّة موسيقية بشكلٍ مُبهر، والآخر يمتاز بجديّة تصل إلى حد البرود، لكنه عقري في هندسة الجينات الوراثية بشكلٍ مُذهل.. الاثنان شقيقان، لكنها ليسا تجسيدا للمعنى الإنساني والاجتماعي المعروف للشقيقين، نتيجة تدخّل عوامل غير طبيعية في عملية الخلق والتنشئة، من خلال عالم في الهندسة الوراثية مهووس بالاستنساخ البشري، انتقاماً من الموت الذي اختطف زوجته المريضة، فقرر هو أن يقهر الموت باستنساخ الحياة، مستغلاً عقريته وعلمه.. فهل ينجح؟ الإجابة تحملها سطور هذه الرواية المفعمة بروح الإثارة وعمق المشاعر الإنسانية.

سونيا بوماد: كاتبة وصحفية لبنانية مقيمة في النمسا. مدرسة بيانو سابقاً. رئيسة منظمة شرق غرب لدمج الحضارات. عضو «رابطة القلم» و«نادي الصحافة» النمساويين. صدر لها: «لاجئة إلى الحرية»، و«كايا»، و«التفاحة الأخيرة».



محمد سيف الأفخم: مدير عام هيئة الفجيرة للثقافة والإعلام. يشغل عدة مناصب حيوية في دولة الإمارات العربية المتحدة، بالإضافة إلى مناصبه ومشاركاته الإقليمية والعالمية في مجال البيئة والثقافة والمسرح.

